علي مولا

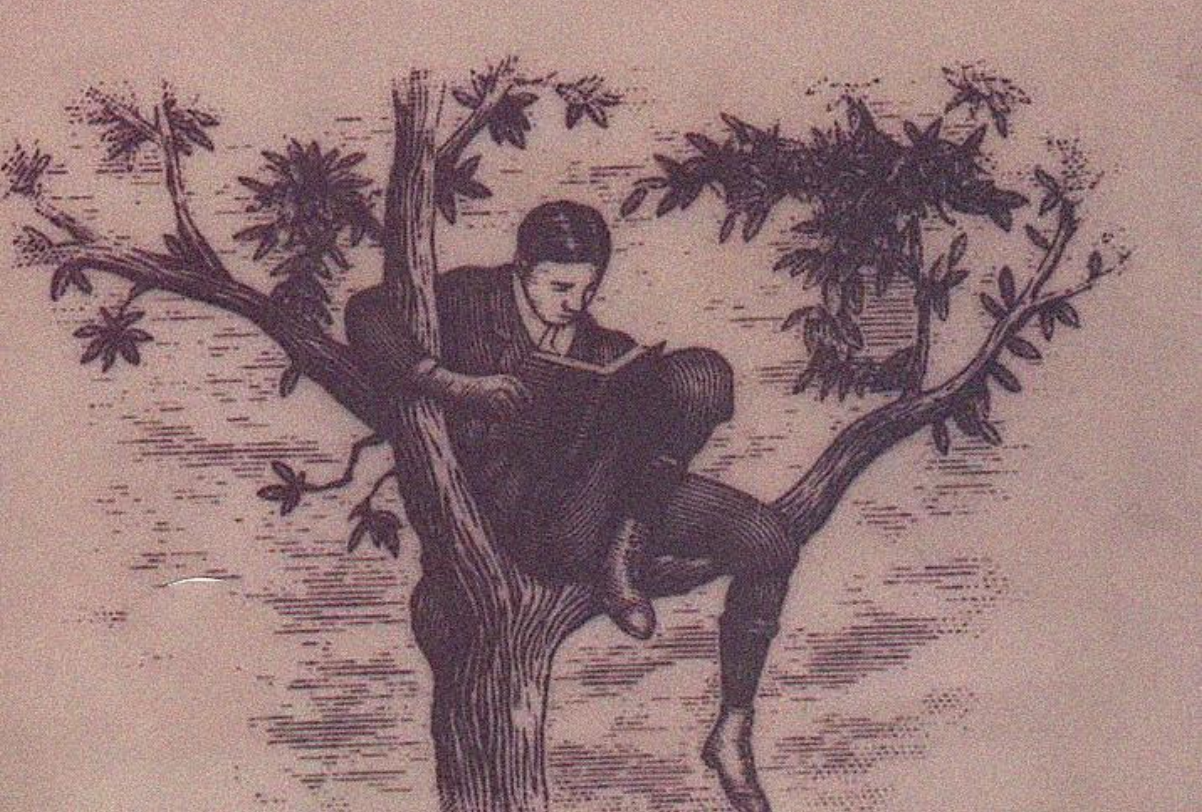
المدى

البرتو مانغويل

يوميات القراءة

"تأملات قارئ شغوف في عام من القراءة"

ترجمة : عباس المفرجي



البرتو مانغويل

يوميات القراءة

"تأملات قارئ شغوف في عام من القراءة"

ترجمة: عباس المفرجي





Author: Alberto Manguel
Title: Reading Diary
Translator: Abbas ALMeferji
Al- Mada P.C.
First Edition : 2008

اسم المؤلف : البرتو مانغويل
عنوان الكتاب : يوميات القراءة
المترجم : عباس المفرجي
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : ٢٠٠٨

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria

P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧

E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١

مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

E-mail:almada112@yahoo.com

تقديم

... ذلك إننا يجب أن نسعى بجهد الى معنى كل كلمة وكل سطر، لأننا نفترض دائما أن هناك معنى أكبر من الإستعمال الشائع الذي تتيحه لنا الحكمة والشجاعة وسماحة النفس التي نتحلى بها.

ثورو - " والدن "

مثل أي إنسان ذو ذوق رفيع، يمقت مينارد مثل هذه العروض الإيمائية العقيمة، التي لا تستفز فينا - كما يقول - الا الفرح المبتذل للمفارقة التاريخية، (أو ما هو أسوأ) تسحرنا بأفكار بدائية عن ان كل العصور متشابهة أو ان كلها مختلفة.

خورخه لويس بورخس - " قصص "

هناك كتب نتصفحها بمتعة ناسين الصفحة التي قرأناها ما أن ننتقل الى الصفحة التالية. وكتب نقرأها بخشوع دون أن نجرؤ على الموافقة أو الإعتراض على فحواها. وأخرى لا تعطي سوى معلومات ولا تقبل التعليق. وهناك كتب نحبها بشغف ولوقت طويل، لهذا نردد كل كلمة فيها لأننا نعرفها عن ظهر قلب.

القراءة عبارة عن محادثة. تماما مثلما يُبتلى المجانين بحوار وهمي يتردد صداه في مكان ما في أذهانهم، فإن القرّاء يتورطون أيضا بحوار مشابه، يستفزهم بصمت من خلال الكلمات التي على الصفحة. في الغالب لا يدوّن القارئ ردود أفعاله، لكن أحيانا تنتاب قارئ ما رغبة بإمساك القلم والتواصل مع هذا الحوار بكتابة الهوامش على النص. هذا التعليق، هذه الهوامش، هذه الكتابة الظل التي ترافق أحيانا كتبنا الأثيرة توسّع من النص وتنقله الى زمن آخر، وتجعل من القراءة تجربة مختلفة وتضفي واقعية على الأوهام التي يرويها لنا الكتاب، ويريدنا (نحن قرّائه) أن نعيشها.

قبل سنتين مضت، وبعد بلوغي الثالثة والخمسين، قررت أن أعيد قراءة بعضا من كتبي القديمة المفضلة. وقد دهشت مرّة أخرى أن ألاحظ كيف تبدو هذه العوالم المتراكمة والمعقدة من الماضي إنعكاسا للفوضى السوداوية التي يحياها عالمنا الحاضر. قد يُلقي مقطعا في رواية الضوء فجأة على مقالة في صحيفة يومية، ومشهد معين يمكن له أن يستعيد حادثة شبه منسية، وكلمات قليلة يمكن أن تكون باعثا لتأملات طويلة. لهذا قررت أن أسجل مثل هذه الملاحظات.

خطر لي حينها ان أعيد قراءة كتاب واحد كل شهر، وربما بعد سنة أكون قد أكملت شيئا هو هجين من المذكرات الشخصية والكتاب العادي : مؤلَف يشتمل على ملاحظات وتأملات وأدب رحلات، وصور وصفية لأصدقاء ولأحداث عامة وشخصية مستلهمة كلها من قراءاتي. لقد وضعت قائمة بالكتب التي سأختارها. بدا لي من المهم، ومن أجل التوازن، أن يكون هناك قليل من التنوع من كل شئ (وبما أنني قارئ إنتقائي، فإن هذا الأمر لم يكن صعبا).

القراءة فعل مريح، منعزل، هادئ وحسّي.سابقا تقاسمت الكتابة بعض هذه الميزات، لكنها في الوقت الحاضر إكتسبت شيئا من صفات المهنة القديمة للبائع المتجول أو ممثل الفرجة، فالكتّاب يُدعَون من أمكنة بعيدة لتمضية ليلة عابرة، وبدلا من أن يبيعوا فراشي التواليت أو مجلدات دائرة المعارف فإنهم يطرون على فضائل كتبهم الخاصة. بدافع هذه الواجبات أساسا ، وجدتني أسافر الى مدن مختلفة، لكني كنت دائما مسكونا برغبة العودة الى بيتي في القرية الفرنسية الصغيرة حيث كتبي وعملي.

يفترض علماء الطبيعة بأن الكون قبل نشوئه كان في حالة طاقة كامنة، حيث لا وجود للزمان والمكان - (في ضباب الإمكانية) كما يحلو لمعلق ما أن يدعوها - الى أن حدث الإنفجار العظيم. هذا الوجود الكامن يجب أن لا يفاجئ القارئ، الذي يكون كل كتاب بالنسبة اليه كائنا في حالة من الغموض حتى تبادر اليد الى فتحه والعين الى مطالعته وتوقظ الحياة في الكلمات. الصفحات القادمة هي محاولتي لتسجيل مثل هذه الإيقاظات.

الفصل الاول

٢٠٠٢
حزيران

السبت

لم يمض على إقامتنا في فرنسا سوى أكثر من عام بقليل. والآن علي أن أسافر الى بوينس آيرس لزيارة عائلتي هناك. ليس بي رغبة للذهاب، أريد أن أتمتع بفصل الصيف هنا في القرية وفي حديقتي وفي البيت الذي يظل باردا في موسم الحر بفضل جدرانه السميكة القديمة. أريد أن أنضّد كتبي في رفوفها الجديدة. أرغب أن أجلس في مكتبي كي أعمل.

في الطائرة تناولت نسخة من كتاب ادولفو بيوي كاسارس إكتشاف موريل، حكاية رجل ينزل في جزيرة يكتشف انها مسكونة بالأشباح. كتاب قرأته للمرّة الأولى منذ ثلاثين أو خمسة وثلاثين عاما.

هذه هي زيارتي الأولى لبوينس آيرس منذ أزمة كانون الأول عام ٢٠٠٠، حين تم فك عملة البيزو عن الدولار، الأمر الذي أدى الى إنهيار الإقتصاد وإفلاس آلاف الناس. في وسط المدينة لا يبدو للعيان ما يشير الى الكارثة، سوى في حشود الكارتونيروس - رجال ونساء وأطفال يملؤون الشوارع، قبلَ هبوط الليل، هاربين من الجوع في جمع القمامة من

أرصفة الشوارع -. ربما أغلب الأزمات الإقتصادية لا تكون دائما واضحة للعيان، إذ ليس هناك من مشاهد تثير الشفقة، وتساعدنا في أن نرى الخراب. معظم المحلات مغلقة، ويبدو الناس منهكين، والأسعار تجاوزت الحدود، لكن الحياة على العموم تأخذ مسارها، فالمطاعم ممتلئة ولا تزال المحلات تكدس في مخازنها البضائع المستوردة الغالية (مع هذا سمعت مصادفة إمرأة تشكو قائلة : (لا أستطيع العثورعلى أسيتو بالساميكو في أي مكان)، والمدينة تبقى صاخبة الى ما بعد منتصف الليل. لا يمكنني أن أرى بعين السائح، في مدينة كانت في يوم مدينتي، تكاثر أحياء الصفيح ولا المستشفيات التي تفتقر الى التجهيزات الطبية، ولا الإفلاس، ولا الطبقة الوسطى وهي تنضم الى جموع الفقراء الواقفين بالدور للحصول على حساء الدجاج.

أراد أخي أن يشتري لي تسجيلا جديدا لباخ،" الترنيمة". وقفنا عند خمس آلات لصرف النقود قبل أن نعثر على واحدة منّت علينا ببضع ورقات. سألته ماذا سيحدث لو لم تكن ثمة آلة قادرة على الصرف، أجابني بأن هناك دائما واحدة لديها ثقة سحرية بالناس.

تبدأ" إكتشاف موريل" بعبارة، أصبحت الآن مشهورة في الأدب الأرجنتيني : (اليوم، وعلى هذه الجزيرة، حدثت معجزة). يبدو ان المعجزات في الأرجنتين أصبحت ظاهرة يومية. راوي بيوي كاسارس : ((هذه ليست هلوساتٍ أو أوهاما : أناس حقيقيون فحسب، على الأقل حقيقيون مثلي أنا)).

اعتاد بيكاسو القول أن كل شيء كان معجزة، وهذه كانت معجزة لم يتمكن المرء حلها في الحمّام.

فيما بعد

سرت بمحاذاة شقة كاسارس، التي تقع قرب مقبرة لاريكوليتا، التي تضم رفات العوائل الملكية بأضرحة مزخرفة تعلوها تماثيل ملائكة وأعمدة محطمة. بيوي كاسارس، الذي يؤرخ في رواياته الأجواء دائمة التغير للمدينة التي عاش فيها طوال حياته (حتى لو دارت في جزر بعيدة أو مدن أخرى)، يكّن كرها لأمكنة مثل لاريكوليتا، لأنه يرى إنه من السخف أن يصرّ المرء على الفخفخة حتى بعد موته.

وجدت الآن بوينس آيرس مكانا مليئا بالأرواح. كتب غومبرويز، الذي قدم الى هذه المدينة من بولونيا في نهاية الثلاثينيات ورحل عنها بعد أربعة وعشرين عاما، كتب وهو على السفينة التي حملته بعيدا الى الأبد : (الأرجنتين ! تسكن أحلامي، أتمثلها وعيناي نصف مغمضتين وأبحث عنها ثانية في نفسي، بكل ما تملكه قواي. الأرجنتين ! إنه لأمر غريب، فكل ما أريد معرفته هو لماذا لم يتملكني هذا الهوى عندما كنت فيها ؟ لماذا يجتاحني الآن وأنا بعيد عنها ؟). أتفهم حيرته هذه. فهي مثل مدينة مدمرة من العصر القديم، تظل تلازمك عن بعد. فالماضي هنا متراكم في الحاضر، جيلا بعد جيل من الأرواح: أشخاص من زمن الطفولة، رفاق دراسة مفقودون، المسحوقون الباقون أحياء.

"omnes, omnes generationes" في الترنيمة يكرر الكورس بلا إنقطاع حشد بعد حشد من الأموات يُبعثون ليدلوا بشاهدتهم.

في بوينس آيرس نفسها لا يرى الناس الأرواح. يبدو كما لو أنهم يعيشون حالة من التفاؤل المجنون : (لا يمكن أن يصبح الأمر أسوأ مما هو عليه)، (لا بد من حدوث شئ ما). يقول ريمي دوغورمو (الذي يدين له

بيوي كاسارس بفضل غير معلن) : (يجب أن نكون سعداء، حتى لو كان ذلك من أجل كبريائنا فقط).

أخبرتني سيلفيا، زميلة الدراسة القديمة، أن هناك لوحة تذكارية لأسماء الطلبة الذين أغتيلوا على أيدي العسكر، قالت أنني سوف أتعرّف على بعض من هذه الأسماء.

الأحد

viveza criolla أو المكر، يفتخر الأرجنتينيون ولفترة طويلة بإمتلاكهم ما يدعى الخلقي. لكن هذه الذهنية المخادعة هي سلاح ذو حدّين. المثال الذي يجسّدهم في الأدب هو أوليسوس، فقد كان بالنسبة لهوميروس البطل الذكي، منقذ الإغريق وبلاء طروادة، والمظفر الذي هزم السيكلوب والسيرينات، لكنه بالنسبة لدانتي، الكذاب المخادع، المدان بالبقاء في الدائرة الثامنة من الجحيم. على الرغم مما يبدو مؤخرا من أن الأرجنتينيين يعززون رأي دانتي، فأنا اتساءل فيما لو كانت ثمة إمكانية للرجوع الى رؤية هوميروس والإستعانة بهذه الموهبة الخطرة لقهر الشؤم والتغلب على العقبات. لست متفائلا. في كانون الأول الماضي كتبت مقالة في جريدة لوموند، أنهيتها قائلا : ((الآن لم يعد للأرجنتين وجود، والسفلة الذين دمروها لا زالوا أحياء)). محلل نفساني ناقم، شبّه خاتمتي هذه بتلك الإستنتاجات التي خرج بها رجال البنوك الأمريكان والأوروبيون، الذين رأوا في هذا السقوط نوعا من العقوبة للعجرفة الأرجنتينية. هذا التشبيه الفارغ يعبّر عن عجز المحللين النفسانيين - مثلهم مثل معظم الأرجنتينيين- بقبول واقع أن البلاد، في حال تغير

الأمور، عليها أن تبادر الى تقييم نفسها من جديد، والأهم من كل شيء أن ترسخ نظاما قضائيا لا يرقى اليه الشك.

مساء

تكون تجربة الحياة اليومية ملغاة من خلال ما نرغب أن تكون، وتُلغى تباعا من خلال ما نأمل أن تكون عليه حقيقة.

الراوي، المجهول الاسم في رواية بيوي كاسارس، والذي يكون هاريا بعد ارتكابه جريمة لا نعرف تفاصيلها، يعتقد على الدوام بأنه حتى هنا، في هذه الجزيرة النائية والضائعة وسط البحر الكاريبي، سيأتون " هم " للقبض عليه. وبنفس الوقت فإنه يتوقع حدوث معجزة ما، مثل الخلاص، أو العثور على طعام، أو الوقوع في الحب.

داخل هذه الشخصية يكون الهروب والأوهام ملتحمين ببعض، لكن خارجها يبدو الأمر مثل مراقبة تفتح حقيقة مجنونة مزدوجة، مثل رأسان يتناطحان.

يؤكد الواقع المادي للجزيرة إنطباع الراوي بأنها عبارة عن كابوس، ونحن، بالطبع، نحسّ بهذا الإنطباع من خلال عيون الراوي نفسه. أجلس الآن في مقهى يقدمون فيه مع القهوة قطعاً صغيرة من السكّر مغلّفة بعلب مرسوم عليها وجوه أشهر شخصيات القرن العشرين.

بإمكاني الإختيار بين شابلن ومانديلا. أحدهم ترك علبة شي غيفارا فارغة في صحن السجائر. بعد خروجي من المقهى سرت بمحاذاة محل لبيع المعكرونة الطازجة يدعى لاسونامبولا " المسرنم أو السائر في نومه ". واجهة إحدى محلات الملابس فارغة الا (كل السلع يجب أن تنفذ).

خارج Todo debe desparecer من لوحة عليها عبارة صيدلية، تقف إمرأة وفي يدها وصفة طبية تسأل الناس الذين يدخلون الى الصيدلية أن يشتروا لها الدواء لأنها لا تملك نقودا.

كان راوي بيوي كاسارس قد أُنذر بعدم محاولة الذهاب الى الجزيرة، لأن هناك مرضاً غامض يتفشى فيها، يصيب (حسب ما يشاع) كل الذين ينزلون اليها، وهذا المرض يفتك بالجسم (من الخارج وصولا الى الأحشاء)، إذ يحدث أن يتساقط الشعر، ويموت الجلد والقرنية، ولا يبقى للمصاب سوى أسبوع أو أسبوعين من الحياة. الجزء الخارجي يموت قبل الجزء الداخلي من الجسم. والناس الذين يراهم، هم بالطبع، ليسوا سوى مظهر خارجي.

لماذا تظل تكتب يومياتك ؟ ولماذا تدوّن كل هذه الملاحظات ؟ يصف سيد الجزيرة الغامض، موريل، الأسباب التي تدعوه الى تدوين مذكراته قائلا : (كي أمنح الحقيقة الأبدية لأوهامي العاطفية).

احنّ الى حديقتي الجديدة في فرنسا، الى حيطانها.

الاثنين

يصف بيوي كاسارس - الأرستقراطي، المثقف، غاوي النساء - أو يتنبأ بعالم الضحية المألوفة، الضحية الأدبية بالطبع، ملاحقا بالنكسات الأدبية. أخبرني صديق كوبي مرّة، إن بيوي كاسارس يُقرأ في كوبا على إنه حكواتي سياسي، وتُفسّر قصصه على انها شهادات إتهام عن الناس الذين يُحاكمون بلا عدالة، كل هؤلاء الناس الذين يعانون من مصير النفي والمطاردة. (سأبين كيف ان الناس، من خلال عمل البوليس المتقن

وإستخدام أوراق إثبات الهوية والصحافة وأجهزة اللاسلكي والجمارك، يجعلون من أي خطأ قضائي شيئا يتعذر إصلاحه، وهو ما يجعل العالم أشبه بجحيم كبير لكل اولئك الناس المضطهدين).

نبرة الصوت (التي تُقال بها هذه الكلمات من قبل الراوي) يُراد بها أن تعبر عن حالة الأسف، لكن اليوم أصبح لهذه الكلمات نبرة وثائقية. أساءل نفسي ماذا سيكون رأي الكاتب الملتزم* بمثابة إهانة فظة.

كاسارس بهذا التأويل، هو الذي كان يعتبر لقب الكاتب الملتزم في "إكتشاف موريل" يصبح كل شئ مرويا بشّك. انها الحيلة القديمة : يصبح الخيال قابلا للإحتمال عبر التظاهر بالإفتقار لليقين.

بعد الظهر

إلتقيت بسيلفيا في مقهى لابورتوريكو، المقهى الذي إعتدنا أنا وأصدقائي إرتياده أيام الدراسة الثانوية. لم يتغير المقهى كثيرا، الجدران المغطاة بالألواح الخشبية، الطاولات المدوّرة من الحجر الرمادي، الكراسي الصلبة، رائحة القهوة المحمّصة، ربما حتى نفس الندّل دائمي الشباب بثيابهم البيضاء الملطخة. وصفت سيلفيا حالة البلد بانها إرتداد الى مرحلة المراهقة. المزيد من الأشباح تتبدى أمامي، هناك على تلك الطاولة كانوا يذاكرون للإمتحان، وعلى تلك يجلسون بإنتظار صديق، وعلى الطاولة الأخرى يضعون الخطط من أجل مخيم الصيف. كل هؤلاء الناس هم الآن مختفون أو ميتون أو مفقودون.

في دارة موريل، التي يدعوها بالمتحف، لا تضم المكتبة (مع

---

* – (ecrivain engage) في الفرنسية في الأصل .

إستثناء وحيد) الاّ الأعمال الخيالية : روايات، أشعار، مسرحيات، لا شئ " حقيقي ".

لم يكتشف قرّاء اللغة الإنجليزية أعمال بيوي كاسارس، ورغم ان كتبه طُبعت في الولايات المتحدة، الاّ انها لم تُقرأ. أول رواية لبيوي كاسارس (وربما الوحيدة) طبعت في انجلترا كانت حلم الأبطال في عام ١٩٨٦. تجاهلْ القارئ الإنجليزي لا يتوقف أبدا عن إدهاشي.

الثلاثاء

أكشاك بيع الصحف مليئة بالمجلات الصقيلة الصفحات التي تستعرض حياة الأغنياء والمشاهير في تفاهاتهم الفرحة، فالحياة تأخذ مجراها. حين أنهى ألفريد دويبلن يوميات النفي أثناء عودته الى بأدن بادن بعد الحرب، كتب عن مواطنيه الألمان : (انهم لم يكتسبوا تجربة بعد، رغم كل التجارب التي مرّوا بها).

أخبرتني أختي، وهي محللة نفسانية وواحدة من أكثر الذين أعرفهم ذكاء، أن جميع مرضاها تقريبا يعانون من وطأة الأزمة. لكن من جانب آخر، تولّد حافز جديد للإبداع بظهور عشرات المنشورات الدورية الأدبية والسياسية، وتجددت الحياة في السينما والمسرح. فإنهيار البلد أدّى، وبطريقة غامضة، الى خلق جو ملموس من الإبداع، كما لو ان الكتّاب والفنانين قرروا فجأة أن ينهضوا من الرماد لبستعيدوا ما سُرق منهم.

يذكرني موريل بشخصيات معينة (غلوريا سوانسون في فلم " حي الغروب " أو الإبنة المخلصة في " سيرة ذاتية لأميرة " لجيمس إيفوري) هذه الشخصيات التي قضت أيامها تراقب كيف يحيا الماضي على

الشاشة. ثيمة المحب الذي يُستعاد كصورة معروضة، ظهرت لأول مرّة، حسب ما أعرف، في عام ١٨٩٢ في رواية جول فيرن قلعة الكارباثيين (والتي ألهمت، حسب ما يذكر غافن ايوارت، برام ستوكر في دراكيولا).

في نسخة فيرن يقوم غورتز، البارون الغريب الأطوار، بإعادة الحياة الى مغنية الأوبرا الجميلة ستيلا، التي ماتت على المسرح أثناء أدائها الوداعي، وقد أحبها البارون بشكل إستحواذي ولزمن طويل. في النهاية يتبين إن ما أعاد البارون خلقه ليس جسد محبوبته بلحمه ودمه، بل صورتها مسقطة على لوح زجاجي وصوتها مسجلا على شريط لا غير.

(أتذكر الآن مثالا أقدم من هذا : الظلال في كهف بلاتو).

يتبع كاسارس قواعد القصة البوليسية : لا يخفي شيئا منذ أول كلمة في الرواية، ولا يكشف شيئا حتى آخر لحظة ممكنة (على الرغم ان المفاجأة في" إكتشاف موريل" تظهر تقريبا في منتصف الرواية).

تُستعاد مع الصور المعروضة للشخصيات في ماضي موريل الأحاديث المسجلة مسبقا.

في واحدة من هذه الأحاديث (التي يسمعها الراوي مصادفة)، يقترح موريل موضوعا للحديث عن الخلود. تضليل، حيث ان الخلود لا يعني فقط بقاء الروح بعد الموت. يخطر لي الآن مصطلح طبي عالق في ذاكرتي : " مثابرة الذاكرة ".

مارسيل بروست : (كل شئ محكوم بالرجوع، كما هو مكتوب على قبة سانت مارك، وكما تبشّر به الطيور، التي تعبّر عن الموت والنشور معا، وهي تشرب من جرار الرخام المخضرّة على أعمدة نصب بيزانتين).

دخلت في نقاش مع ستان برسكي عن الخلود، وحسب رأيه، وعلى

الضد من مخاوف الديستوبيين[1]، ان التقدم العلمي، إنْ لم يوفر لنا حياة خالدة، فانه سيمنحنا على الأقل إمكانية التمتع بالوجود لفترة طويلة. لست متاكدا من ذلك. لا أعرف إنْ كنت أريد حقا أن أحيا لزمن طويل جدا، بعد الثمانين أو التسعين (والحياة حتى هذا العمر هي على كل حال خلود قصير). الآن، وقد بدأ يلحّ علي اليقين بأن النهاية آتية لا ريب، فإني أتمتع أكثر من أي وقت مضى بالأشياء التي ألفت أن أكبر معها – كتبي المفضلة، الأصوات، الصحبة، الأذواق، الطبيعة – جزئيا، لأني أعرف بأني سوف لن أكون هنا الى الأبد. ستان يقول إنه يتمنى لهذه الحياة أن تدوم بشرط بقاء صحة العقل والبدن.

في يومياته يصف كاسارس جنازة الروائية ماريا لويس ليفنسون. يقول ان جسدها كان مسجّى في تابوت له نافذة صغيرة، وبعضهم لاحظ ان قصاصات من ورق الصحف تغطي وجهها. تفسّر ابنتها ذلك فتقول انهم وضعوا في داخل التابوت بعضا من الصحف ((حتى اذا ما فتح أحدهم التابوت في المستقبل، يعرف من النعي المنشور في هذه الصحف من هو الراقد فيه)).

فيما بعد

يبدو لي من الصعب أن أفهم كيف إني، وأنا أعيش في مدينة طفولتي بوينس آيرس، لم أنتبه لما سيحدث لاحقا. يقول سويندبرغ بأن الأجوبة على أسئلتنا هي دائما أمام أعيننا، لكننا لا نتعرّف عليها في حد ذاتها، لأن في أذهاننا أجوبة أخرى. نحن نرى فقط ما نتوقع أن

---

١ – سكان ديستوبيا المدينة غير الفاضلة .

نراه. ماذا كنت اذاً ساتوقع عندما كنت في الثامنة أو العاشرة أو الثالثة عشرة من عمري ؟

أتذكر مناقشاتنا الطويلة في المقاهي، أوفي غرفة أحدنا بعد المدرسة، أو نحن نذرع الشوارع سيرا على الأقدام. كانت تتخلل تلك المناقشات فكاهة خاصة : سخرية مشوبة بالحزن، سخف مع وقار. كان يبدو على ناس بوينس آيرس انهم يمتلكون قدرة على التمتع بأصغر حادث هامشي، والشعور بأكثر اللحظات دقة من التعاسة. كان لديهم إحساس متقد بالفضول وعين ثاقبة للفكرة الظاهرة. وإحترام للعقول الذكية وللأفعال السمحة وللملاحظة النزيهة. لقد كانوا يعرفون موقعهم في العالم، وكان الفخر يملئهم بهويتهم المفترضة. الأهم من كل شئ انه، وسط كل هذا، كان هناك إمكانية للنمو والإزدهار. لقد حددت القيود الإقتصادية والإجراءات السياسية التي رافقتها، والتي كانت مفروضة من الخارج بواسطة الشركات الأجنبية التي لم تصبح بعد متعددة الجنسية، حددت كثير من المبادئ الإجتماعية، ومع ذلك فانها هيأت روح الفضول لدى الأرجنتينيين وحاستهم المميزة للفكاهة وبسالتهم السوداوية، هيأت مجتمعهم لأن يصبح أعظم وأفضل، أن يصل الى شئ أبعد مما يبدو نفوذا عابرا لحكومات فاسدة. اذا ما وقعت الكارثة، مثل ما يحدث لها أن تقع في أي مكان في العالم، فإنها (كما يؤمن الأرجنتينيون) لن تدوم طويلا، اذ ان بلدنا كان غنيا جدا وقويا جدا ومليئا بالوعود، أكثر مما يمكن التخيل بأنه سيعاني من مستقبل مظلم بلا نهاية.

كتب ليوبولد لوغونس في عام ١٩١٦ : ((السياسيون ! انهم كارثة وطنية. كل شئ يمثل التخلف والفقر والظلم، أما ناتج عن هذه الكارثة أو مستثمَر من قبلها)).

٦

أخبرني أخي اليوم، ونحن جالسون على مائدة الفطور، بأن عشرة بالمئة ((فقط)) من النظام القضائي مرتش. ((بالطبع)) أضاف ((عدا المحكمة العليا، حيث ان كل عضو فيها بدون إستثناء قابل للرشوة)).

الأربعاء

ربما بدافع التواضع، وبحماسة أرجنتينية، يمنح كاسارس بطله الجنسية الفنزويلية.

تنتهي "إكتشاف موريل" مع موجز مشبع بالحنين، يتضمن ما يعنيه الوطن الأم للراوي.

إنها قائمة بالأماكن والناس والأشياء والوقائع والأحداث ومقطع من أغنية شعبية...

بإمكاني القيام بنفس الشيء كي أتذكر بوينس آيرس.

الأشياء التي أتذكرها :

* اللون القرمزي لورقة العشرة بيزو

* الأرغفة المتنوعة الأصناف المعروضة عند الخباز : بيبيت (خبز البريوش المحّلى بالسكر)، فوغازا (الخبز المسطح القشري)، مينيون (الخبز الصغير المقشّر)

* رائحة الكولونيا التي يربّت بها الحلاق على وجه أبي، في محل الحلاقة في هارودز

* البرنامج الفكاهي لا ريفستا ديسلوكادا، الذي يبثه الراديو ظهيرة كل أحد

* اللون البني الداكن للمجلات النسائية المعروضة تحت أقواس بوينو سافدرا

* شطائر الديك الرومي الصغيرة في محل بتي كافيه
* الرائحة النفاذة للأمونيا حول أشجار المطاط في بارانكاس دي بيلغرانو
* صوت عجلات عربة المياه الغازية على حصاة الشارع تحت نافذتي
* دورق الصودا وقنينة النبيذ على طاولة العشاء
* رائحة حساء الدجاج قبل الغداء
* السفينة البخارية الكبيرة الراسية في الميناء، مطلقة دخانها وهي تتهيأ لعبور الأطلسي
* شجرة الجكرندة الإستوائية في صباح ربيعي مبكر

واحدة من القصائد التي حفظتها مبكرا ولامست شغاف قلبي، كانت للشاعر هاينه ((فيما مضى كان لي وطن حبيب)).

الخميس

الذاكرة حين تكون كابوسا : في "إكتشاف موريل" يحلم الراوي بماخور لنساء عمياوات، زاره مرّة (كما يقول) في كلكتا. في الحلم يتحول هذا الماخور الى قصر فلورنسي فخم ومليئ بالزخارف. هنا في بوينس آيرس أحلم أنا، باللغة الإسبانية، بأناس لا يتكلمون أبدا ولا يسمعوني حين أتكلم معهم، ودائما في المدينة التي في ذاكرتي وليست كما هي الآن.

في أحلامي ينتهي طريق رقم ٩ دي خوليو عند طريق سانتافي.

يتملك راوي بيوي كاسارس إنطباع بأنه لا يكافح من أجل البقاء حيا وإنما هو يلعب لعبة فحسب.

سأغادر بعد غد عائدا الى فرنسا. أجلس مع إبن أخي توماس نتناول الغداء. تحدثنا عن الخيانة التي تعرض لها تاريخ الأرجنتين، وعن حاجة توماس للبقاء مؤمنا بإمكانية القيام بعمل إيجابي. كان متحمسا لعبارة قرأها لسيمون دو بوفوار : ((إكتشفت، وكلي شعور بالإزدراء، الطبيعة العابرة للمجد)).

من أجل أن يستهوينا كتاب ما، ربما عليه أن يقيم رابطة من الإتفاق العرضي بين تجربتنا وتلك التي في القصة أو الرواية، إتفاق بين مخيلتين، مخيلتنا وتلك المدونة على الورق.

الاثنين

عدت الى فرنسا. قرأت في الطائرة مقال عن ما يسمى بالنمل الأرجنتيني. حشرة ضارية ومقاتلة في وطنها الأم، لكنها في أوربا توقفت عن القتال (لأسباب غير معروفة)، وإستثمرت طاقتها الفائضة في بناء نفق طوله ستة آلاف كيلومتر يمتد من شمال إسبانيا حتى جنوب إيطاليا.

بدأت اليوم في ترتيب مكتبتي. الرفوف جاهزة، ملمّعة بالشمع ونظيفة، فكرت، وقبل أن أضع الكتب في مكانها، بأنه يجب عليّ أن أفتح الصناديق كلها، فالكتب حسب تصنيفها إختلطت ببعضها البعض، وسوف لا أعرف الحيّز الذي أحتاجه لوضع، على سبيل المثال، الروايات البوليسية أو أعمال كاسارس. في واحد من الصناديق الأولى التي فتحتها وجدت نسخة من كتاب بيوي كاسارس المغامرة الأخرى، وهو عبارة عن مجموعة مقالات حررتها عندما كنت أعمل في دار النشر

غاليرنا في بوينس آيرس. كان عمري آنذاك عشرين عاما، وكنا ثلاثة نعمل في هذه الدار، أنا ورئيس التحرير وزوجته. الكتاب من القطع الصغير جدا بخطوط سوداء مسحوبة على خلفية حمراء. أتذكر كيف ذهبت الى بيت كاسارس لأجلب المخطوطة، وقد كانت من الورق المنسوخ بالكربون، وكيف قرأتها وانا في طريقي عائدا بالباص.

كان ذلك في الشهور الأولى من العام ١٩٦٨. بعدها بثلاثين عام بالضبط رأيت كاسارس ثانية قبل أسابيع قليلة من موته، لقد إنكمش حتى صار ضئيلا، رجل ناتئ العظام يتمتم حين يتكلم، لكن عيناه لم تزل تحتفظان، ويشكل مدهش، ببريقهما. أخبرني انه بصدد التفكير بحبكة رواية جديدة ((ستكون فيها جزيرة)) قال، ثم أضاف مبتسما ((مرّة ثانية)).

أحتفظ بصورة فوتوغرافية لبيوي كاسارس وهو في السابعة عشرة من عمره، صورة جانبية يظهر فيها ملتحيا، وسيما بمقاييس ذلك العصر. لدي صورة أخرى له، في آخر لقاء لي معه، يظهر فيها وكتفاه محنيان وخداه غائران. ليس من المؤكد بأن موريل سيختار الإحتفاظ بالرجل الشاب دون الآخر الذي على حافة الموت، أو سيختار الصورة التي كان عليها دون الأخرى التي سيكون عليها في ما بعد. يقول موريل وهو يتطلع الى صورة محبوبته فوستين (والتي يقع الراوي أيضا في حبها) : ((تأثير المستقبل على الماضي)). بالضبط.

ما يراه الآخرون انه أفضل مآثرنا، لا يطابق عادة ما نراه نحن أنفسنا. أجرت، ذات مرّة، إديث سوريل مقابلة مع مارك شاغال في بيته في سان بول دو فانس، كان الرسام قد بلغ حينها منتصف الثمانينات

ويعيش مع زوجته الثانية فافا، التي تزوجها، في ذلك الحين، قبل عشر سنوات. كانت إديث تسأل شاغال عن شعوره وهو يُعَد واحداً من أكثر الفنانين شهرة في العالم، في نفس الوقت الذي إستأذنت فيه زوجته وغادرت الغرفة لدقيقة. أمسك شاغال فجأة بيد إديث وأومأ بإتجاه زوجته المغادرة هامسا، ووجهه يفيض بالحبور، ((إنها من عائلة بروسكي!)). بالنسبة لفتى يهودي فقير نشأ في قرية يهودية صغيرة في فيتسبك، الإقتران بإبنة عائلة تاجر غني يملأه فخرا أكثر من أي مجد فني.

من هي فوستين ؟ من تكون في ذهن كاسارس؟ لقد قرأت لتوي ان الأرجنتينية آنيس شميدت، بعد أن إلتقت هاينرش مان في فلورنسا عام ١٩٠٥، أصبحت نموذجا لروسا فرويلش، الشخصية التي جسّدتها في ما بعد مارلين ديتريش في "الملاك الأزرق".

الخميس

أجلس في مكتبتي محاصرا برفوف فارغة وأعمدة متنامية من الكتب. خطر لي بأنه يمكن أن أقتفي أثر كل ذكرياتي من خلال هذه المجلدات المكدّسة. فجأة سيبدوعندئذ كل شئ فائضا عن الحاجة، كل هذه الأوراق المطبوعة المتراكمة، أو ربما تجربتي الخاصة هي التي ستكون فائضة عن الحاجة. إن الأمر يشبه الحقيقة المزدوجة التي يجرّبها الراوي عندما يستشهد بشيشيرون ((الشمسان الإثنتان اللتان تتألقان، كما سمعت والدي يقول، أبّان حكم توديتانوس وأكويليوس)). يكتشف الراوي في البيت، على الرغم من كون هذا مستحيلا، نسخة مطابقة

للكتيب الذي يحمله في جيبه : ليست نسختين لنفس الكتاب وإنما النسخة عينها التي في جيبه. حقيقة مزدوجة تلغي نفسها. لهذا السبب يكون اللقاء بالطيف نذيرا بأننا سنلاقي الموت لا محالة.

عنوان لمقالة : " المكتبة كطيف نذير ".

الغرفة التي تأوي مكتبتي، تبدو لي واسعة جدا، والآن وهي ملأى بالكتب تبدو أوسع.

تناولت المجموعة الكاملة للشاعر العراقي بدر شاكر السيّاب وقرأت:

حجرتي الجديدة

واسعة ، أوسع بأي حال

مما سيكون عليه قبري

لسنوات طويلة ولضيق المكان، إحتفظت بأغلب كتبي مخزّنة في مكان ما. كنت أفكر مرارا بأنه يمكنني سماعها تناديني في الليل. الآن أبقى معها كلها ولوقت طويل، مغمورا بالصور ومقاطع من نصوص أحفظها، وإقتباسات عشوائية، وعناوين وأسماء. لقد عثرت على نسختي القديمة من" إكتشاف موريل"، الطبعة الثانية الصادرة عن دار سن في عام ١٩٤٨، العام الذي ولدت فيه.

الجمعة

مرّت عدة أيام وأنا مشغول بإفراغ صناديق الكتب، ولا زال أمامي عدة أسابيع قبل أن أنتهي. ذكريات وذكريات زائفة. إعتقدت أني تذكرت شيئا ما بطريقة معينة وبوضوح، لكن ملاحظة قصيرة، في

الصفحة الأخيرة من كتاب فتحته بالصدفة، أخبرتني أني مخطئ، فالحدث وقع في مكان آخر وحدث لشخص آخر وفي وقت مختلف. يقول راوي بيوي كاسارس : ((عاداتنا تفترض طريقة معينة في الأشياء التي تحدث، تفترض عالما مترابطا نوعا ما. يظهر لي الآن أن الحقيقة تغيرت الى وهم)).

حين كنت أنفض الغبار عن كتبي تساقطت أوراق منها : بطاقة تراموا ي بوينس آيرس (توقف هذا عن العمل في نهاية الستينات)، رقم هاتف إسم لا أتذكر اني أعرفه، قصاصة مكتوب عليها عبارة laudant illa sed ista legunt مؤشر صفحة من دار كتب في باريس، أُغلقت منذ مدة طويلة، تدعى ماسبيرو، قطعة من بطاقة سينما لفلم " غريس "، قطعة من بطاقة طائرة أثينا - تورنتو، فاتورة كتب من محل ثوربس في غيلدفورد لا زالت بالشلنغ والبنسات، قطعة ورق لاصقة عليها إسم محل كتب ميتشلز في بوينس آيرس، رسم لبطتين أو حمامتين بالقلم الشمعي، ورقة لعب عشرة بستوني إسبانية، عنوان إستيلا اوكامبو في برشلونة، وصل من محل في ميلانو لقبعة لا أتذكر أبدا أني إشتريتها، صورة هوية لسيفيرو ساردي، كرّاسة عن مبيعات مكتبة هانتغتون في باسادينا، ظرف عليه عنواني في جورج ستريت في تورنتو.

نحن لا نختار ما يتبقى. في مقاطع من الماضي، التي يلتقطها موريل خلال عروض الصور الشبحية، تتردد قطعتان موسيقيتان رديئتان هما " فالنسيا " و " شاي لإثنين ".

كان لدى أمي إسطوانة لساره مونتيل تغني فيها " فالنسيا ".

السبت

الخيالي يجب أن يبقى حيا في سلسلة من التفسيرات المنطقية أو اللامعقولة (شرلوك هولمز : ((عندما تقصي المستحيل، فإن ما يتبقى، مهما يكن بعيد الإحتمال، يجب أن يكون هو الحقيقة))). يطرح راوي كاسارس خمس فرضيات للأشياء الغريبة التي يراها : بانه مصاب بوباء، بأنه يغدو لامرئيا بسبب الهواء الفاسد ونقص التغذية، بأن الناس الذين يراهم هم مخلوقات قادمة من كواكب أخرى وهم غير قادرين على سماعه، بأنه أصيب بالجنون، بأن هذه الأشباح هم أصدقاؤه الميتون وان الجزيرة هي عبارة عن المطهر أو الفردوس. التفسير الحقيقي يفترض به أن يكون " علميا ".

يتطفل بيوي كاسارس نفسه على الحكاية (بصوت سكرتيرته الخاصة) بعبارة ((فكرة أن يكون هناك عدة فراديس واردة، فإذا لم يكن هناك سوى جنة واحدة حيث على الجميع الذهاب اليها، وفيها يكون هناك دائما زوجان ظريفان بإنتظارنا مع كل آماسي الأربعاء الأدبية التي يقيمونها، فإننا سنتوقف عن الموت منذ وقت طويل)).

ثم هذه العبارة ((الإنسان والجماع الجنسي لا يمكنهما تحمل لحظات عاطفية طويلة وعارمة)). (لا بد ان بورخس فكر بهذه العبارة عندما نسب الى كاسارس في هذا الإقتباس الشهير : ((المرايا والجماع الجنسي بغيضان، لأنهما Tlön, Uqbar تضاعفان من أعداد البشر)). الصديقان بورخس وكاسارس يعكس أحدهما مزايا الآخر في كتاباتهما. إن "اكتشاف موريل" و Tlön, Uqbar كتبت في العام نفسه ١٩٤٠).

الأحد

بخلاف " فيليس " لألدوس هيكسلي (أفلام من "عالم جديد رائع" يمكنك لمسها أومسّها بإصبعك)، فإن صور موريل المعروضة بالإمكان إدراكها ليس فقط بحاسة اللمس، وإنما بحاسة الشم أيضا (تقنية يمكن تحقيقها بسهولة كما يقول)، ومن خلال الإحساس بالحرارة. ((لا أحد من الذين يشهدون ذلك يمكنه القول أنها صور)) كما يقول الراوي متباهيا. وهو على يقين أيضا بأن " ناسه المنسوخين " هؤلاء يفتقرون الى الوعي ((مثل شخصيات في فلم)) كما يقول. (أو كما أعتقد أنا، مثل كتب، مثل أصدقاء تتذكرهم).

الأصدقاء الذين أتذكرهم توقفوا في الزمن، كما لو أنهم محتجزون في فلم، فهم لا زالوا في العمر الذي رأيتهم فيه آخر مرّة (كثير منهم الآن ميتون أو مفقودون)، أشك بأنهم سيتعرّفون علي الآن. انهم ما أعرف من الماضي.

((من ذا الذي لا يرتاب بأحد يقول : " أنا وأصدقائي عبارة عن أشباح، نوع جديد من فن التصوير " ؟)). حين كنت أطوف في بوينس آيرس، التي إعتقدت أني أتذكرها، كانت الأرواح تبدو وكأنها تطرح نفس السؤال الساخر. عندما كنت يافعا لم أحس أبدا أني موجود في مكان " متذكر ".

الإثنين

مثلما هو متوقع، الحقيقة تنطوي على الخيال. في جزيرة موريل تكون جدران عرض الأفلام في الفيلا مطابقة للجدران الحقيقية المبنية من القرميد والجص، وتكون الشقوق التي فيها مغطاة بأشياء حقيقية. وفي

رواية بيوي كاسارس " خطة الهرب" والتي تدور في جزيرة وهمية أخرى، هناك سجن متخيل تكون جدرانه مغطاة برسوم تمنح السجناء الوهم بالحرية.

كلا هذين الإختلاقين يتجاوزهما الواقع، فقد إكتشف مؤرخ الفن الإسباني خوزيه ميليكوا إنه أثناء الحرب الأهلية الإسبانية قام الجمهوريون (!) ببناء زنازين بعلو ستة أقدام، وعرض ثلاثة أقدام، وطول ستة أقدام، حارّة وخانقة، وفيها سرير مائل جدا بحيث أن السجين بأي وضعية حاول الإستلقاء سيسقط على الأرض. على واحد من الجدران عُرضت إنشوطة طويلة عليها اللقطة الشهيرة لتشريح العين في فلم لويس بونويل "كلب اندلسي". المعماري الذي صمم هذا الكابوس هو الفرنسي، النمساوي الأصل الفونسو لورينسيك، وقد أطلق على عمله هذا إسم " التقنية النفسية للتعذيب ".

بعد الظهر

سأنام ليلتي هذه في المكتبة كي أشعر حقا بأن المكان ملكي. يقول سي. بأن هذه يبدو مشابها لما يقوم به الكلب حين يتبول في الزوايا.

كانت فكرة موريل الأولى أن يرتب مختارات من الصور تكون معروضة مثل تذكارات، لهذا أطلق على الفيلا إسم المتحف، يقول إن تقدمنا العلمي لا يتوقف عن إختراع آلات ((لتعويض الغياب))، فالغياب كما يدّعي مجرد مسألة مكانية، وهو يتصوّر بأن كل الأصوات والصور التي أحدثها أشخاص لم يعودوا على قيد الحياة، تبقى عالقة في مكان ما والى الأبد، وفي يوم - كما يأمل هو - ستكون هناك آلات

قادرة على إعادة بناء كل شيء، مثل الحروف الأبجدية لتي تعيننا على فهم أو تشكيل أي كلمة ممكنة. عندئذ، يقول (ستصبح الحياة عبارة عن مستودع للموت). هناك ميزة وحيدة في صالح أناس موريل المتخيلين : لن تكون لهم ذاكرة كي يستعيدوها، وسيعيشون اللحظة دائما وكأنهم يعيشوها للمرّة الأولى.

يُقال بأن أولئك الذين لم يزوروا في حياتهم كنيسة سان آندريس دي تكسيدو في غالثيا يجب "A San Andrés de Teixido vai de mortó quen foi de vivo" أن يفعلوا ذلك بعد موتهم

تعريف الجحيم : منذ بدء الزمان، حُفظت كل واحدة من أفعالنا واقوالنا وأفكارنا، بتكاثر اللانهاية من خلال عدد لانهائي من اللانهايات، تكرار لن يكون للهرب منه سبيلا.

الخميس

قرأت أن الراوي يسمع فوستين تتحدث عن كندا، كندا التي أنتمي. منذ أن أصبحت مواطنا كنديا عام ١٩٨٥، صارت متعتي البحث عن صلات بهذا البلد في اماكن غير متوقعة، وصارت تخطف نظري كل حروف (C) الكبيرة التي أراها في الصفحة.

لقد تنبهت الى أن كندا كانت بالنسبة لبيوي كاسارس هي المرادف لشانغري-لا، لكن بدون غرابة : مجرد منطقة نائية، أرض بكر بعيدة.

إنه أمر مثير للفضول كيف إن القرّاء يصيغون نصهم الخاص من خلال الإشارات التي يضعوها على كلمات معينة أو أسماء معينة، يكون لها، بالنسبة لهم، معناها الخاص، فهي تناشدهم وحدهم فقط ولا يمكن

للآخرين ملاحظتها. هذا يذكرني بالناقد المجهول الإسم لرواية عشيق الليدي تشاترلي، حيث كتب منوها في المجلة الإنجليزية هورس اند هوند بأن كتاب لورانس يتضمن وصفا رائعا للحياة في الريف الإنجليزي، لكنه للأسف أفسد بالإسهابات العاطفية والجنسية.

سألني هيوبرت نيسن اذا ما خطر في بالي مرّة بأن العقل أشبه بمخطوطة مطوية لذاكرة هي تقريبا لا محدودة : العقل ككتاب.

الجمعة

إنتهيت من إكتشاف موريل مرّة ثانية. صدى صوت بيوي كاسارس يتردد في الغرفة.

تناولت يومياته كي أقرأها هذه الليلة قبل النوم.

الكتب التي أقرأها ليلا في فراشي هي غير الكتب التي صنفتها في المكتبة في النهار.

الأولى تتطفل علي، قبل أن يغلبني النعاس، بزمانها وبطولها وبإيقاع القص الخاص بها.

والأخرى خاضعة لمشيئتي الخاصة في الترتيب والفرز، ومنقادة لي بشكل شبه أعمى (في بعض الأحيان يخطر لها أن تتمرد، فأبادر عندئذ الى تغيير موقعها على الرف).

أي رفقة ستكون لروايات كاسارس حين أنتهي من ترتيب المكتبة ؟ ضمن أي مجموعة سوف أجدها ؟ في أي موقع ستكون إكتشاف موريل بعد أن تأخذ كل صفوف الكتب هذه مكانها على الرفوف ؟ (اذا إحتفظت بها مرتبة حسب الحروف الأبجدية، ومصنفة حسب اللغة،

فستأتي قبلها أشعار جيم جل دي بيدما ، وبعدها المجموعة الرائعة من القصص القصيرة لأيزودورو بليستن).

عثرت على هذا التعليق في يوميات بيوي كاسارس : ((كنت دائما أعلن بأني أكتب للقارئ، لكنني في الواقع لا زلت حتى الآن أكتب، بينما القرآء (القرآء الأصيلون) قد اختفوا ، وهذا يثبت، بما لا يقبل الجدل، بأني ببساطة إنما أكتب لنفسي فقط)).

الفصل الثاني

تموز

الثلاثاء

أنا الآن في قطار اليوروستار المتوجه الى لندن. لا يبدو ان المكيّف في عربتنا مفتوح، فالهواء هنا حار ورطب. في المقعد الذي أمامي تجلس امرأتان لم تتوقفا عن الحديث، منذ ان غادرنا باريس، بصوت خفيض لا يمكنني معه سماع كل كلمة، لكنه ليس خفيضا بما يكفي كي أحول دون سماعه. كان صوتاهما يثيران الازعاج، واحد منهما على الأقل، رأسي بدأ يطنّ. بعد قليل قالت صاحبة الصوت الأقل ازعاجا بنبرة واضحة: ((لقد تدحرج بكرة صغيرة ومات)).

هل تتحدث عن كلب؟ أم قطة؟ هل تصف موت احد ما تعرفه؟ تملكني شعور بأني أتابع قصة سوف لا أعرف بدايتها ونهايتها أبدا.

حاولت العودة الى الكتاب الذي بين يدي، وهو رواية أتش. جي. ولز "جزيرة دكتور مورو"، وهو نسخة من كتاب الجيب للجميع، مغلّف بورق سميك، أملكه من ايام الدراسة الثانوية. أول مرّة قرأت فيها دكتور مورو كانت أيام العطلة الصيفية، كنت في الثانية عشر، وكان الكتاب هدية في عيد ميلادي من صديقي المقرّب ليني فاغن. كان صيفا سعيدا، ففي بيت ريفيٍ استأجرناه قرب بوينس آيرس اكتشفت رواية

نيكولاس بليك " يجب أن يموت الوحش"، وقصص هوراشيو كيروغا، ورواية راي برادلي " أحوال المريخيون"، ثم أُضيف ويلز الى مؤونتي في جزيرتي القاحلة.

لم اكن اعرف شيئا عن الكتاب ولا عن مؤلفه، لقد تقاسمت مع بطل الرواية - " ادوارد برندك - الرجل المستقل " -، عدم اليقين بما سيحدث لاحقا. اعجبتني الصورة البلاغية (التي لم اكن اعرف انها صورة بلاغية)، لقراءة ما يدّعى بأنها الحكاية الخاصة لبرندك التي (وجدت بين أوراقه) بعد موته. كنت كمن يسترق السمع لإعترافات حميمة، عدا اني كنت أعرف بأني سأسمع كلا البداية (بداية واحدة)، ونوعا من النهاية. لمّا كنا صغارا، كانت القصص تبدو كأنها لا تنتهي أبدا في الصفحة الاخيرة من الكتاب.

لا أحب ان يلخص لي أحدا الكتب التي أنوي قراءتها، لا بأس ان يشوّقني بعنوان أو مشهد أو إقتباس، لكن ليس بكل أحداث الكتاب. القرّاء المتعصبون، التلخيص الذي يتضمنه الغلاف الأخير، مدرسو ومؤرخو الادب، يفسدون كثيرا من متعتنا في القراءة من خلال وشايتهم بالحبكة، وطالما تقدم العمر بنا فان ذاكرتنا يمكنها أيضا ان تحرمنا من متعة الجهل بمعرفة ما سيحدث لاحقا. انا بالكاد أتذكر كيف كان الأمر عليه عندما لم نكن نعرف بأن دكتور جيكل ومستر هايد ليسا سوى شخص واحد، أو ان كروسو سوف يلتقي فرايدي.

قارئ عذري. في ذلك الصيف عشت، مثل برندك، بضعة أيام سعيدة، لم أكن أعرف شيئا عن قصة هذه الجزيرة، وكنت خائفا من هذا الشخص الغريب الأطوار الذي يدعى دكتور مورو.

إشتبهت، عن خطأ، بان السكان المتوحشين كان لهم يوما حياة بشرية طبيعية، وفشلت بتقدير التجربة الشنيعة التي تجري في" منزل الآلام ". حتى تم الكشف في منتصف الكتاب، فقد تيقنت ان الأمر مروع اكثر مما تخيلت، وواصلت القراءة، وانا خائف وممتن، حتى النهاية الكارثية.

مثل هذه القراءة الساذجة ربما لم تعد ممكنة، حتى لكتب نقرأها أول مرّة.

الأربعاء

يُفترض ان ألقي محاضرة هذه الليلة. لقد اختار لي ناشر كتبي فندقاً صغيراً قرب سوهو سكوير، حيث أقام هازلت يوما ما. لم تكن مديرة الفندق من النوع الودود جدا. لا أظن ان هازلت، وهو من أكثر الناس نزقا، كان سيقبل ان يسكن في فندقها.

في الصفحة الثانية من " دكتور مورو" هناك إشارة لمركب يبدأ رحلة من أفريقيا، وعلى متنه نمر البوما. فجأة تذكرت كتابي الأول لكارل ماي، رواية " كنز البحيرة الفضية"، التي قرأتها في السادسة من عمري. كنت مفتونا بالمشهد المفتوح في هذه الرواية الذي يصف هروب نمر من قفصه على سطح سفينة، تعبر بحيرة في امريكا الشمالية. كلا المشهدين يتماثلان في ذهني.

ملاحظة: تتألف القراءة احيانا من القيام بربط من الجمع بين المقتطفات.

شارع سوهو خارج نافذتي يعجّ بضجيج لا يعقل، ربما هي الضجة

نفسها التي سمعها هازلت حين كان مقيما هنا. هذا الصخب ذو طبيعة حيوانية (هذه الفكرة استوحيتها بلا شك من رواية ولز)، لو كنت لا أعي بأني موجود في مدينة، فإني سأفترض أشكالا حيوانية بخطوم أو مناقير لكل هذا الصراخ، وهذه القعقعة والثرثرة والزمجرة التي أسمعها، ويكون الأمر اسوأ حينما تمتزج هذه الضجة بالروائح النتنة الحارة التي تنبعث من الرصيف. لا تكون لندن في اجمل حالاتها في تموز. تعجبني لعنة سويفت لهذه المدينة، التي كتبها في يومياته ستيلا : (أدعوا على أعدائي ان يعيشوا هنا في الصيف).

أواخر الليل

رغم ان احداث رواية دكتور مورو تقع، بالطبع، في الجزيرة الرهيبة، الاّ إن هناك في الخلفية دائما فكرة عن نقيضها المفترض، المتمثل بالمدينة المتحضرة، التي يحاول برندك ان يختبئ بها، قبل النهاية بقليل. قلت ((مفترض)) لأن لندن بالنسبة لبرندك تغدو نسخة اخرى من الجزيرة الكابوس. في المحادثة الأولى مع مونتغمري، مساعد مورو، يتخيله برندك .((رجلا أحب الحياة هناك، ثم أصبح فجأة وبشكل قاطع معزولا عنها)) قمت في الصباح الباكر بجولة في لندن. الخليط المعماري لحي سوهو له فتنة دنيوية، فهو يعطي إنطباعا بأنه جاء بدافع الحاجة لا بناءً على أساس موجه. له صفة الخليط الطبيعي، وفيه ايضا طبيعة هرمية واضحة (غنى - فقر، غلاء - رخص)، تلك التي تحاول يافطات المحلات اخفاءها.

يناقش ارسطو في كتابه الثاني من مؤلفه " السياسة" ستة أنظمة

سياسية يتخيلها لستة أنواع من المواطنين، وقد لاحظ ان هذه الأنظمة بحاجة لأرضية صلبة من القيم الرمزية كي تتطور.

أول رجل أدرك ذلك - كما يقول ارسطو - كان المعماري هيبوداموس دي ميليتوس المعاصر لبيركليس، الذي رغم انه لم يكن يفقه في السياسة شيئا، الاّ انه إستطاع ان يضع خارطة لمدينة مثالية وحسنة الادارة. من الواضح إن مدينة هيبوداموس - أو مدينة ارسطو، بما اننا بعد فترة عشرين قرنا لا نستطيع ان نفصل بين المؤلف ومصادره - كانت إنعكاسا للتركيبة السكانية المثالية الاغريقية : عدد محدود من المواطنين مقّسمين حسب الدور الذي يؤدونه في المجتمع.

قائمة بالخواص المميزة لمدينة ارسطو المثالية تتضمن التالي :

* بطريركية، حيث لا يكون للنساء فيها نفوذ ولا سيطرة.

* ديمقراطية، بمعنى ان تناقش شؤون الحكم علانية، لكن من قبل المواطنين فقط.

* عسكرية، لكن غير توسعية، بما انه أُتفق على تعريف المدينة المثالية بكونها مكانا محددا.

* نخبوية، ليست مصممة بأن تكون موطن السعادة لعموم البشر، بل فقط لاولئك المواطنين المنتخَبين الذين اختارتهم الاقدار للولادة في هذا الوطن الاستثنائي، لهذا يكون لهم الحق في استخدام العبيد في خدمتهم.

خلف هذا الفهم الغربي للمدينة المتكاملة تكمن فكرة الامتياز. سيتفق مورو بلا شك مع هذا.

الخميس

لا زلت أتسا ءل عن ((معنى)) مدينة مثل لندن. لم يكن ولز يحب هذه المدينة، ففي مقالة له عن مستقبل أمريكا يصف لندن بأنها عبارة عن ((طاس هائل فيه سائل بشري دبق، يُغلى ما فيه على نار هادئة على حافة التلال المحيطة بها، ثم يندلق هذا السائل، على نحو مقزز، على المقاطعات الاخرى)).

مع وسائل نقلها العمومية المعطلة، وأسعارها الجنونية، يجب ان تُعد لندن واحدة من اكثر مدن العالم التي يستحيل على فرد ذي دخل محدود الاقامة فيها. بأي إسلوب دعائي تقنع شركات السياحة البريطانية الناس عكس هذا الأمر؟

الجمعة

يؤمن دكتور مورو بان للإنسان قدرة على توجيه حياته. أمّا مونتغمري فان الأمر بالنسبة إليه مسألة حظ، بينما يؤمن برندك بشكل جلي بالقدر، وهذا ليس الأمر نفسه، وهو يعتقد أيضا بان القدر يمحي الحد الفاصل بين البهيمة والإنسان. النهاية الشهيرة في مزرعة الحيوانات:

((تنتقل أنظار الحيوانات، الواقفة في الخارج، من الخنزير إلى الإنسان، ومن الإنسان إلى الخنزير، ومرّة ثانية من الخنزير إلى الإنسان، حتى لم يعودوا قادرين على القول أي هو الخنزير وأي هو الإنسان)).

ملاحظة متحذلقة : الواقعية في هذه الرواية كانتية. بطل الرواية يرى العالم كما يتخيله هو، بينما القارئ يعرف أن هناك عالماً قائماً بذاته لا سبيل للبطل إلى معرفته. الصراع ينشأ من التوتر الحاصل بين ما يؤمن به البطل وبين ما يعرفه القارئ.

السبت

خطوات برندك الاولى في الغابة (حيث يفاجئه " الوحش" الغريب، ويُلاحق من قبل "المخلوق") لها وقع أزلي وحقيقي. تصبح الغابة مكانا مضطربا في حكاية من حكايات الجن؛ أدغال دانتي المظلمة حيث يلتقي بالوحوش الثلاثة، الغابات التي تلاحق فيها الفيوريات* اوريستس.

يعج الكتاب بمشاهد كابوسية متقنة : ((عندئذ لامس شئ بارد يدي، جفلت خائفا وحين نظرت رأيت بقربي كائنا ورديا أشبه بطفل مسلوخ الجلد)).

وتنتهي بالطبع المحنة، حيث يصف برندك محاولته للعيش ثانية في المدينة، بعد هروبه من الجزيرة المرعبة : ((لا يمكنني الفرار من البشر، فأصواتهم تأتي من النوافذ، والأبواب موصدة لكن بدون إحكام، ثم أخرج الى الشوارع أصارع أوهامي، فتتربص بي نساء تموء، ورجال ذوو رغبات دفينة يرمقونني بنظرات غيورة، وعمال مرهقون شاحبوا الوجوه يمرّون بي وهم يسعلون، عيونهم متعبة وخطاهم عجلى مثل خطى حيوان جريح)).

بعد الظهر

في كوفنت غاردن، وبدافع الفضول سألت في مكتبة عن جزيرة دكتور مورو. سألني البائع عن إسم المؤلف فذكرت له اسمه، ((هل هو حديث؟)) سألني، قلت له انه مؤلف قديم. ((اذا كان أقدم من شهر واحد)) قال، ((فهو غير متوفر لدينا، لكن بإمكاننا ان نطلبه اليك)). بحث عن عنوان الكتاب في الكومبيوتر، ((لا أستطيع ان أجده)) قال، ((ربما نفدت نسخه)).

---

* - الأرواح المنتقمة في الأسطورة الإغريقية Furies .

الأحد

في الوقت الذي كتب فيه ولز رواياته في (الخيال العلمي) (الرجل الخفي، آلة الزمن، الناس الاوائل على القمر، جزيرة دكتور مورو)، كان المثل الأعلى الطوباوي قد بدأ يتلاشى في وجهه الآخر: الديستوبيا، المكان الذي تزدهر فيه أسوأ صفاتنا المنفلتة مثل نباتات مفترسة.

أتذكر حين كنت طفلا كان لدي، بشكل غامض، فهم قروسطي عن الكون. كانت الحدود بين السحر والعلم ضبابية، فالصحف التي كانت تصدر أيام طفولتي، والتي كانت تنشر بشكل يومي إعلانات عن الأعاجيب (لقاح الدكتور سالك لشلل الأطفال، أول جهاز تلفزيون يُنصب في بوينس آيرس، الكومبيوتر البدائي، رحلات الفضاء)، تشارك رف كتب متخيل يضم كرسي الأمنيات لأنيد بليتون وبلاد المرح لبينوكيو. في ما بعد تعلقت بتلك المسلسلات التلفزيونية المبكرة (منطقة الشفق و بوريس كارلوف يقدم)، التي تصور دنيا العلم وكأنها ميدان خطر للعقل، حيث تُرتكب فيه الشرور من غير عقاب وتطوف الكوابيس بحرية. بالنسبة لي تعكس هذه المسلسلات، بشكل مظلم، العالم السري لحياة المراهقة.

هنري جيمس في رسالة الى ولديه وليام وهنري : ((كل رجل بلغ مستوى مراهقته الفكرية يبدأ بالشك بأن الحياة ليست مزحة، بأنها حتى ليست ملهاة ظريفة، على العكس، تزهر وتثمر من أكثر الأعماق مأساوية للنقص الجوهري الذي تكمن جذور أسبابه فيه. الميراث الطبيعي لكل امرئ مؤهل لحياة روحية، هو غابة متوحشة يعوي فيها الذئب وتنعق فيها البومة)).

منتصف الليل

شاهدت لتوي فلم عروس فرانكشتاين في برنامج السهرة في التلفزيون، وصوت صفارة سيارة شرطة يأتيني عبر النافذة من الخارج.

قائمة بالعلماء المجانين :

* دكتور فرانكشتاين
* رابي لو اوف براغ
* دكتور كاليغاري
* كابتن نيمو
* ساحر اوز

هل تظهر العالمات المجنونات فقط في حكايات الجن والأساطير؟ السيرس؟ ميديا؟ زوجة أب سنو وايت الشريرة؟ ساحرة هانسل وغريتيل؟ عرّابة سندريلا الساحرة؟

كما يكتشف العلماء بأنفسهم، فأن تجاربهم المجنونة ليست نهائية، اذ يبدو ان المخلوق الذي يبتدعوه يرجع دائما الى حالته الأصلية. مورو : ((إن مخلوقاتي، بطريقة ما، ترتد مرّة ثانية ؛ من جديد ينمو، يوما بعد يوم، جسد الوحش الصلب...))

ملاحظة : تجنّبْ القراءة المجازية مع ولز - مورو كإله، البهائم كبشر - مثل هذه الترجمة ستبدو مبسطة بشكل مريب. حافظ على الرعب الصافي للمغامرة.

ينغمس ولز، هنا وهناك في روايته، في لغة بلاغية عادية : ((ماذا يمكن أن يعني هذا؟ مجمّع محاط بأسوار منيعة على جزيرة منعزلة، ورجل مشهور بتشريحْ الأحياء، وهؤلاء الناس المعاقين والمشوهين؟))،

لكن هناك أيضا إكتشافات مهيأة بشكل رائع، كما في التخطيط الدقيق لفكرة الوحش : العرض المفزع على الزورق الذي يتم فيه سحب قرعة لمعرفة من هو الشخص الذي سيؤكل أولا ، والدواء الذي مذاقه يشبه ((مذاق الدم)) والذي يجعل برندك يشعر انه أصبح أكثر قوة، وسطح المركب القذر المغطى ((بفتات جزر وقطع صغيرة من شئ أخضر اللون)) كما في قفص...

ولز بارع في اطلاق الأسماء : ((منزل الآلام)). في المرّة الأولى التي سمع فيها برندك حيوانا يطلق صرخات ألم مبرّح، رأى أن هذا الصراخ ((مزعجا)) وقد دعاه بـ ((التعبير المتقن عن الألم)). واحد من الجلادين الأرجنتينيين في فترة الحكم العسكري (رجل مثقف)، كشف فيما بعد عن انه استطاع ان يتعود سريعا على ((التعبير عن الألم)) هذا، فهو يقول بان صوت الضحية يغدو منفصلا عن الشخص نفسه، يصبح كما هو في الحقيقة شيئا غير مادي، لهذا فهو لا يثير في الجلاد أي نوع من مشاعر الشفقة أو حتى يعطيه دافعا لوقف التعذيب، كان الألم يبدو، كما يقول، كما لو انه يحدث في مكان آخر.

ديكنز في الأوقات الصعبة : ((هل تحسّين بألم يا أماه؟))، ((اظن ان هناك ألم موجود في مكان ما من هذه الغرفة)) قالت السيدة غراندغرند، ((لكنني لا أستطيع ان اقول مؤكدة باني اتألم)).

الاثنين

رجعت الى باريس اليوم. عندما نزلت من القطار في محطة غار دو نورد تذكرت ملاحظة تشسترتون : ((أنْ ترى لندن كما ينبغي هو أمر

في غـايـة الصـعـوبـة، أكـثـر من أي مـكان آخـر.. لندن لغـز، باريس تفسير)).

في الجزء الأول من كتابه تجربة في السيرة الذاتية يتذكر ولز كيف انه في السنة السابعة من عمره قرأ في عدد قديم من تشامبرز جورنال عن رجل يتم قصم ظهره على عجلة. في الليلة نفسها حلم حلما فظيعا يرى فيه الله نفسه وهو يدير آلة التعذيب. اذاً فان الله - يستنتج الصبي - هو المسؤول عن كل شئ في العالم، وهو مسؤول ايضا عن الشر الذي يحدث فيه. في الصباح يقرر ولز بانه لا يمكنه بعد الآن ان يؤمن بالقدير الأعلى. هذا الكابوس ربما هو الذي أوحى له بشخصية مورو، بالمقابل مورو أوحى لي بالخوف الصحي من الأطباء، وشعورا عاما من عدم الثقة بأي صاحب سلطة.

حين سُئل بورخيس اذا كان يؤمن بالله أجاب : ((اذا كانت كلمة الله تعني التعبير عن كائن موجود خارج الزمن فلست متاكدا اني أؤمن به. اما اذا كانت هذه الكلمة تعني شيئا في داخلنا يقف الى جانب العدالة فالجواب نعم، فأنا أؤمن، برغم كل هذه الجرائم، بان هناك مغزى اخلاقياً لهذا العالم)).

الثلاثاء

أتذكر اني رأيت مرّة صورة فوتوغرافية يظهر فيها جرذ، ملحوم على ظهره أذن بشرية، صورة يبدو كأنها خارجة من واحدة من لوحات بوش*. يقول دكتور مورو : ((لم انشغل أبدا، حتى هذا اليوم، بالجانب

* - هيرونيموش بوش، رسامٌ هولندي من القرن الخامس عشر، اشتهر بغرابة شخوصه وموضوعاته Busch .

الوثني من المسألة))، لكن المسألة وثنية، وهي في النهاية تعكس رفضنا لقبول رعب الموت كفصل ختامي.

فاشيل لندساي في ((العين الرصاصية)) :

لا تدع الأرواح الغضّة تخمد

قبل ان تسعى الى مآثرها وتبدي جلّ زهوها .

جناية العالم الوحيدة انه ترك اطفاله ينمون بلداء ،

فقراؤه مثل ثيران ، منهكة وذي عيون رصاصية

ليس لأنهم يموتون جوعا ، بل لأنهم يجوعون بلا أحلام ،

ليس لأنهم يبذرون ، بل لأنهم قلّما يحصدون .

ليس لأنهم يعبدون ، بل لأن ما من إله ليُعبد ،

ليس لأنهم يموتون ، بل لأنهم يموتون مثل نعاج .

((الإله الذي يُعبد)) يقلقني، لكن هؤلاء الفقراء مثل ثيران والميتين مثل نعاج هم مخلوقات في كابوس مورو. ((وحتى لو بدوت أنا أيضا مخلوقا غير عاقل، لكن مجرد حيوان يعذبه مرض غريب أصاب عقله، جعله يهيم وحيدا، مثل نعجة أصابها داء)).

الاربعاء

أنهيت كتاب جزيرة دكتور مورو على مضض. رغم انه لم يفقد رعبه المدهش، فانه يتراءى لي الآن، وقد أصبحت أكبر عمرا، انه غدا أكثر صعوبة وتعقيدا ومليئا بالتلميحات الأدبية.

العلماء المجانين مثل بوبو دادي البليكي، والمخلوقات البهيمية

التي تعوي صارخة - بعكس الحالة الوجودية التي عليها غريغور مسخ كافكا -، والجزيرة، التي كانت يوما بعيدة بعدْ جزيرة بروسبيرو، وقد حددها الآن على الخريطة المستكشفون الاستعماريون الذين يرون في مورو نموذج الإمبريالي، كل هذه كان لها دور في قراءتي لهذه القصة، وهي التي قبلتها القصة بإذعان ونمت بها بسرعة وبشكل فوري تقريبا.

حاول ولز، في فترة لاحقة من حياته، ان يضفي خيالية أقل و جدية أكثر على افكاره. مع ذلك، اعتقد ان محاولته هذه لم تفلح، فقد بقي في ذاكرتي ذلك الكاتب الشاب مؤلف ((قصص مغامرات علمية))، والذي قال عنه جول فيرن ساخطا: ((لكن هذا الرجل يلّفق ما يكتبه)).

بجانب الإله المرعب مورو، أتذكر المسافر عبر الزمن الذي يجلب معه من المستقبل وردة لا وجود لها، والرجل الخفي المسكين الذي جفنا عينيه لا يستطيعان حجب الضوء وجلده العاري لا يحميه من البرد، والخائن على القمر المشتهى. أتذكر كل هذه التلفيقات المحتومة، والتي كتبها ولز قبل ان يبلغ الخامسة والثلاثين. وما يقارب النصف القرن التالي من عمره تعمّق في الافكار العامة وفي التاريخ والاصلاح الاجتماعي وفي نظريات التعليم، وقد وضعها في مؤلفات رصينة مثل اليتوبيا الجديدة، المكيافيلية الجديدة، موجز التاريخ، علم الحياة. لقد بقي شجاعا وذكيا وصادقا في الأوقات الصعبة، وأحيانا مفهوما بشكل خاطئ، مع ذلك فإن موهبته كصانع أساطير قد تخلّت عنه بشكل كامل تقريبا، ومع ان قصة أو قصتان شقّت طريقها بين مؤلفاته - بلاد العميان و لاعب الكريكت - لكن على العموم فان منبع أحلامه، كما هو واضح، قد نضب. يبدو الأمر، على وجه التقريب، كما لو أنه عندما اصبح عجوزا

بدأ في وضع كتب مستمدة من حقائق واقعية، في مسعى منه لإسترجاع ما كان يمارسه، حين كان شابا بلا خبرة أو مران، من سحر في الإختلاق والرؤى المغامرة.

انه أمر يشبه ما يحاوله الآن هذا القارئ العجوز، رغم علمه بإن هذا مستحيل، بإسترجاع شيء من الإثارة غير المعهودة في قراءته الأولى لرواية جزيرة دكتور مورو .

الفصل الثالث

آب

الثلاثاء ٣

نسختي من رواية كيم، جزء من خمسة وعشرين مجلدا تضم الأعمال الكاملة لكبلنغ، صدرت في بومباي عام ١٩١٤ (خمس مجلدات نشرت في ما بعد)، عثر عليها لي صديقي سي.، قبل عدة سنوات، في متجر لبيع الكتب المستعملة في باريس. كان الإضراب العام، حينها، يعمّ باريس وقد دام عدة أسابيع، وكان علينا، اذا إحتجنا لأي شئ في وسط المدينة، السير على الأقدام من الدائرة العشرين حتى المركز، خلال شوارع خلت من الباصات وبمحاذاة محطات المترو المغلقة، وسط حشد، لطيف بشكل ملفت وثرثار، من المشاة. كانت نقود سي.

تكفي لشراء الكتب فقط، ولم يبق لديه شيئا لأجرة سيارة الى البيت. عندما فكر بأن عليه المشي، حاملا هذه الكتب الخمسة وعشرون، عدة كيلومترات، سأل بائع الكتب، مترددا، إن كان بإمكانه ان يسترجع خمسين فرنكا من ثمن الكتب أجرة الطريق، لكن العجوز النكد (الذي ربما سيبخل بقرش على كارون) رفض طلبه، عارضا عليه، بدلا من ذلك، كيس كبير.

هكذا بدأ سي. رحلته ماشيا، مع حمولة من خمسة وعشرين كتاب

على كتفيه، عبر باريس. لم يمش طويلا حتى توقفت سيارة الى جانبه وفيها امرأة، سألته عن وجهته، لم يبد عليها انها ذاهبة الى مكان بعيد، لكنها ما أن عرفت حكاية سي. حتى أصرّت على توصيله الى البيت.

في ((المكتبة الكونية)) شهامة هذه المرأة عادلت فظاظة بائع الكتب.

ورق هذه النسخة من كيم لونه أصفر شاحب، حروفه غامقة السواد وبارزة بوضوح، الحرف الاستهلالي فيها بروسي ازرق. داخل كل مجلد رقعة ورق لاصقة تتضمن العنوان ورقم المجلد، يمكنك استخدامها اذا أردت ان تجلد الكتاب بشكل أنيق (الكتاب صادر بغلاف كرتوني كي يتاح لكل قارئ تجليده حسب ذوقه). في صفحة العنوان في المجلد توقيع رديارد كبلنغ، بحروف صغيرة مترددة لكنها مقروءة تماما.

كيم واحدة من الكتب القليلة التي طالما وجدت متعة في قراءتها؛ انها تغدو مع كل قراءة جديدة أكثر حميمية. لوصف حالة القراءة هذه أود ان استخدم كلمة تقال في كيويك لتشير الى حالة السعادة المثلى: heureuseté. أحب نغمة القص، حيوية كل شخصية ثانوية، الصداقة المثيرة للمشاعر بين اللاما باحثا عن النهر، والفتى باحثا عن نفسه. لا أود لرحلتهم الطويلة ان تنتهي أبدا.

الأربعاء

حجر بيتي الأصفر يعكس أشعة شمس آب. في الحديقة تزهر أشجار الحور بلون أبيض رائع. حسب دي كوينسي: ((شجرة الحور ترتعش تعاطفا مع الرعب الذي عاشته الشجرة الأم في فلسطين التي أرغمت على توفير مادة لبناء الصليب)).

حرارة الجو في قريتي تتلائم مع الجو في الرواية. أرقب من نافذتي زوجا من الحمام ينقض على العشب، يدور للحظات مختالا ثم يطير ثانية عائدا نحو برج الحمام فوق حجرة مكتبتي. انهما يفعلان ذلك، كما يبدو، لمتعة التكرار. لهذا السبب امتع، جزئيا، باعادة القراءة.

في " كيم" كل شئ معروف منذ البداية : الطبيعة الفضولية لكيم، الغموض الذي يلّف ماضيه ومستقبله، بحث اللاما، أجواء القصص الخرافية التي تُستحضر بالإشارة الى هارون الرشيد و ألف ليلة وليلة. ليس هناك من تحفظ أو إرتباك في قصّ المغامرات، الاّ حينما تغدو مُحيِّرة بتعمّد، لحث القارئ على تكملة مشهد ما أو حوار ما بإسلوبه الخاص. عدا ذلك فان كبلنغ يعرف جيدا ما يدور في قصته ويعتمد على وضوحها.

منذ وقت مضى، أقترحت على روهنتون مستري، وهو الآخر، مثل كبلنغ، مولود في بومباي، ان يقرأ كيم، فهو لم يقرأها من قبل، وقد تحمّس للأمر. مثل كبلنغ، لايرى روهنتون من داع الى شرح الكلمات العامية الهندية التي ترد في رواياته ؛ اذ ان معانيها تتضح من خلال النص وتجعل من لغة الشخصيات حية.

انا أكره شرح الكلمات.

أخبرني روهنتون انه وجد حوار كبلنغ، ووصفه للعدد الواسع من الشخصيات الهندية دقيقا، بشكل مطلق، كما هو في الواقع. كنا نتساءل عمّا اذا كان كبلنغ قد إختلق الأمثال والإهانات والجمل المأثورة التي استخدمها في روايته : ((هؤلاء الذين يتسولون بصمت، يموتون جوعا بصمت))، ((أنتَ جميل مثلك مثل ثور شيفا المقدس))، ((إبن

آوى الذي يعـيـش في براري مـازاندرين لا يمكن صـيـده الاّ بكلاب مازاندرين فقط)) وهلّم جراً...

ليس هناك، بين جمهرة الشخصيات الثانوية، أكثر رسوخا في الذاكرة من الإمرأة العجوز التي إلتقاها كيم وراهبه اللاما في ((الطريق الكبير)). إمرأة تهوى الطعام الجيد والنميمة والتشويق الذي تمنحه الوجوه الجديدة، وضحكتها خافتة " مثل ببغاء مسرور فوق كتلة من السكر ". وجودها يبدو ضروريا في الرواية، تقريبا مثل معظم الشخصيات المحلية. من ناحية ثانية، أعتقد ان هناك شيئاً مصطنعا في سلوك الشخصيات الأوربية، شيئا مجرّداً، متحفظاً، ربما أراد كبلنغ ان يجسّد النبرة الزائفة في الذهنية الانغلو-هندية. لاحظ المؤرخ العسكري جون موريس ((ان نفسية الراج* كانت حقا مبنية على كذبة. الأغلبية من البريطانيين في الهند كانوا يمثلون دورا. لم يكونوا في الحقيقة الناس الذي كان يُفترض بهم ان يكونوا)).

عندما كان كبلنغ صبيا صغيرا في بومباي، كان على مربيته، بعد ان تلبسه، ان تبعثه الى صالة الجلوس مع تحذير ((تكلم الآن بالانجليزية مع ماما وبابا)). اتذكر مربيتي (التي كنت أتكلم معها بالانجليزية والالمانية) وهي ترسلني مع وصيّة مشابهة بان ((أتكلم الاسبانية)) مع والديّ - اللغة التي لا أعرف منها سوى بضع كلمات ملعثمة.

الخميس

هناك تعقيد عجيب وهائل في هند كبلنغ، يعكس - حسب روهنتون - وضعا حقيقيا (لم أذهب الى هناك أبدا). مرّة قال كبلنغ بان هناك

* - الحكم البريطاني في الهند .

أمكنة في العالم، اذا انتظرت وقتا كافيا، سترى الجميع، في نهاية الأمر، يمرّون فيها. واحدة منها هي محطة كنغز كروس في لندن، والأخرى محطة القطار في بومباي. يبدو ((الطريق الكبير)) في الرواية تماما مثل واحد من هذه الأمكنة. عبارة اليوت ((لم تكن لدي فكرة ان الموت أنهى هذه الكثرة))، هي - بالنسبة لي - صدى لكلمات اللاما ((انه عالم كبير ومخيف. لم أعرف أبدا بانه كان هناك عدد هائل من الأحياء فيه))

كبلنغ مغرم بالقوائم: أسماء الناس المختارة بعناية، الطعام، الأشياء، الأحجار الكريمة، الملابس؛ مرتبة بقوائم صفحة بعد صفحة، بذائقة شعرية. كولريدج: ((الشعر، الكلمة الأفضل في الترتيب الأفضل)).

هكذا يصف كبلنغ ((البيت العجائبي)): من خلال حصر بطئ ومفصل للمنحوتات والأفاريز في متحف لاهور، حجر بعد حجر، وصورة إثر صورة، مرئية بعيون اللاما، التي تمسح مجموعة القطع الفنية ((بتبجيل المتعّبد وبنظرة الخبير المقدِّرة)). هذا وصف رائع للجدارة الأدبية الخاصة بكبلنغ.

اصطحبنا هذا الصباح صديقتنا كاثرين اشنبورغ (وهي في زيارة لنا، والقيام ببحث حول الآثار الرومانية) لرؤية المدخل المنحوت بالحجر الأبيض لكنيسة نوتردام لاغران في بواتييه. وجدت معظم الرسوم ملغزة؛ من هو هذا الرجل الذي ينبت في رأسه غصني شجرة؟

(اكتشفت لاحقا انها ((شجرة يسوع))). من هو هذا الوحش المنتصب بقدمين متباعدتين، وعلى كل قدم رأس أفعى؟ من هما هذان الشخصان اللذان يتعانقان أو يتصارعان؟ من هي هذه المرأة التي تحمل كتابا مفتوحا في يديها؟ سألت نفسي، كم واحد منا، بين هذا الحشد

الصغير من السواح، رأى اليوم هذه الأشياء بكلا براعتي عين اللاما (أو حتى بواحدة منهما). من منا سيقدر، مثل اللاما، على قراءة ((كل وقائع التاريخ الجميل... على الصخور الملطخة)) ؟ لقد فقدنا الجزء لأكبر من مفرداتنا.

الجمعة

أعطيت كاثرين تقدمة مطرّزة بشعر راهبة (حسب قول تاجر العاديات)، كي تضيفها الى مجموعتها من سَقطْ الأشياء الدينية القديمة، التي تحتفظ بها في الحمّام في تورنتو. أمر غريب، لكاثوليكية، ان تستطيع فصل نفسها تماما عن الطبيعة المقدسة المفترضة للأشياء الدينية. ربما كانت هذه نزوة مناقضة لتلك التي لدى واحدة من شخصيات غراهام غرين، شخصية الكاتب الكاثوليكي الفرنسي موران الذي كان يوما مشهورا، والذي فقد ايمانه، لكنه بقي مواظبا على حضور قداس منتصف الليل لأنه، كما يقول ((لا يريد ان يثير الاستياء منه)).

أحد ما قال لو كنا قادرين على تفسير غموض الدين بشكل تام، لما كان هناك مجال للايمان.

جوليان غرين يقول ((ليس هناك ايمان دون صراع)). لا يبدو لي الأمر على هذا النحو في حالة اللاما. لا يقوم اللاما بجهد مرئي، لا يحاول إيضاح شئ ؛ انه يروي قصصا ويتابع طريقه، آملا في النهاية ان يكون حرا من ((القوة الموجهة)).

رفيق كيم، المعلم المتحذلق البدين هري بوبا : ((كيف لي ان أخاف من شئ غير موجود اطلاقا)).

السبت

صباح حار جدا. أنقذت ابنتي أليس قنفذا من حوض السباحة. لقد سقط في الحوض وأخذ يسبح يائسا في دوائر. حملته الى احد أركان الحديقة وتركته يعدو بعيدا وهو يرتجف.

سؤال النهايات : قلّبت كيم حتى الصفحة الاخيرة لمجرد المتعة. النهاية عيد مقدس بهيج : سارت الامور بشكل حسن مع كيم، ووجد اللاما نهره. وبحركة أخيرة صالب يديه وابتسم ((كرجل فاز بالخلاص لنفسه ولأحبته)).

نحن نقرأ ما نريد ان نقرأ، لا ما كتب المؤلف. في " دون كيخوته"، انا لست مهتما، بشكل خاص، بعالم الفروسية، بل بأخلاق البطل، وفي علاقة الصداقة الغريبة مع سانشو. في " ريح الصفصاف" اهتممت أقل بكثير بالسيد تود من رات، ومول، وبادجر. في " كيم" لم أبال على الاطلاق بـ ((اللعبة الكبيرة))، كل هذا اللغو الصبياني لقصة التجسس، لكني فُتنت بالبحث الشخصي لكيم واللاما، وبذكاء الوصف لعالم لا أعرفه.

ملاحظة : الرحلة الأدبية هي إما مناجاة او حوار، اما تعقب درب مسافر (يوليسيس، بيلغرم، كانديد، اليهودي التائه)، أو رفقة بين شخصيتين (دون كيخوته وسانشو، هيكلبري فن وجيم، الأخ والأخت في البحث عن الطائر الأزرق، كيم وراهبه اللاما).

الأحد

أقام الزوج الثاني من الحمام الاسود مسكنا له على سطح برج الحمام. انهما يسطعان في الحرارة.

يحتضن الصيف في الحديقة، ضمنيا، كل تغيرات السنة : أغصان الشتاء قبل ان تتبرعم بأوراق الربيع، المكان الذي سقطت فيه الفاكهة في الخريف، تتابع فترة الأزهار، التعاقب المنتظم للفصول، هرم وموت الأصدقاء، تقوض جدران منزلنا، تآكل ذاكرتي؛ كل هذا واقع محتوم، لكنه أيضا تأكيد (وبرهان) على ديمومة الأشياء. الوقت دائري، هذه الأحداث تقول : بعد موت أحد ما، فاني اتكلم مع أحد آخر يتذكره، أو يريد ان يعرف شيئا عنه؛ نحن نبني جدار الحديقة من الأحجار التي سقطت من مخزن البيت؛ الأشياء التي لا أستطيع تذكرها ثانية موجودة في مكان ما، على احدى الصفحات المرقمة بعناية في واحد من كتبي. وانا - بالطبع - سوف أختفي؛ والجدار الجديد سيسقط، ايضا؛ والكتب ستتبعثر. لكن هذا الذي نشكّل، نحن جميعا، جزء منه، جزء مهما كان صغيرا، سيبقى موجودا، ثابتا تحت النجوم.

وكما في عين نحّات ينحت قطعا من حجارة، سيصبح الكل، بغيابنا، اكثر جمالا.

الاثنين

يحكي كبلنغ كيف ان أمه وجدت يد طفل رماها نسر من أبراج الصمت على حديقة دارهم في بومباي. قال لي روهنتون بان هذا غير ممكن، لأن النسور لا تشرد كل هذا البعد عن الأبراج.

أرسل صديق لي قصاصة من صحيفة انجليزية، مع عنوان ((ربة بيت تقتل مئة من طيور العَقعَق لتنقذ الطيور المغردة))، كي تحمي الطيور التي تحب، فإنها نصبت شراكا لطيور العقعق وحطمت رؤوسها على جدار حديقتها.

فيما بعد

تعـريف "كـيم" للحب، عندمـا سـأله الأب فكتـور ان كـان مـولعـا باللاما: ((بالطبع أنا مولع به، فهو مولع بي)).

يروي اللاما قصصا لكيم ((بينما هو يرسم باصبعه على الرماد))، مثل المسيح الذي انحنى على الارض، وباصبعه كتب على التراب، كما لو انه لم يسمعهم)).)) هذا ما كتبته آنا بيسيو في روندا دي نوجه : ((ينشأ الحب عندما نحوك نسيجاً على نسيج، بينما يقال شيء ما باليدين أو الفم. يستخدم الفم القصص ليحوك، ليجعل النقوش المنثورة تظهر.

نقوش يمكن قراءتها بصوت عال، لكن، تقريبا، لا أحد يعرف كيف تقرأ)).

المقطع الأول الرائع في كتـاب جي. آر. آكـرلي، يومـيـات هندية، يتـعلق بالمهـراجـا، الذي عـمل في بلاطه : ((انه يبـحث عن أحد ليـحب فخامته، أعني؛ تلك كانت حاجته الحقيـقيـة، كما أعتـقد. انه يتذرع باسباب اخرى، بالطبع، سكرتير انجليزي، أو معلم خصوصي لأبنه، لأنه لم يكن تماما مثل الأباطرة الرومان، فكان عليه ان يختلق الأعذار)).

الخميس

عنوان لأطروحة دكتوراه : ((الرواية كطريق عائق)).

يعتقد اللاما ان كل عائق في طريقه سيزال من تلقاء نفسه، بينما كيم يؤمن بانه قادر على ازالته بنفسه، أو الدوران حوله. قرأت أمس في سيرة حياة ماكس برود أن كافكا كان يكره بلزاك، وقد انتبه مرّة الى

الشعار الذي نقشه بلزاك على عصاه : (أنا أحطم كل عائق)، عندئذ أضاف كافكا شعاره الخاص : ((كل عائق يحطمني)).

عوائق طبيعية وعوائق سياسية : من الواضح ان كبلنغ يحتقر الرجل الأبيض الذي لا يعرف اي شئ عن البلاد التي يستبد فيها. الفتى الذي كُلف بالعناية بكيم في الثكنات يضربه على نحو متكرر بدافع الاحتقار والجهل. كان هذا الفتى ((يطلق على جميع السكان المحليين لقب "عبد" ؛ لكن الخدم وكنّاسو الشوارع، بينما هم يضللوه بمظاهر الاحترام، كانوا يشتموه في وجهه بكلمات بلغتهم لا يفهم منها شيئا، وكان في هذا عزاء لكيم عن الضربات التي يتلقاها منه)).

((ليس هناك خطيئة أعظم من الجهل)) يقول غرايتون صاحب في ما بعد.

الجمعة

قبل سنوات مضت، سألني مايكل اونداتجي ان كنت أتذكر اسم العريف البريطاني في كيم، لانه يريد ان يستخدمه في رواية كان يكتبها.

((أقرأيه ببطء)) يقول المريض الانجليزي لحنا، ((يجب قراءة كبلنغ ببطء. راقبي أين تقع الفواصل، بهذا تتمكنين من اكتشاف الوقفات الطبيعية. انه كاتب يستخدم المحبرة، لذا فهو يرفع بصره عن الصفحة مرارا)).

في الصفحة ٢٠ في الطبعة التي أملكها من المريض الانجليزي يتم الاشارة الى بندقية فرنسية صنعت في مدينة "Châtellerault" كان يجب

إن تكتب "Châttelrault" مشهورة بصنع الاسلحة، قريبة من المكان الذي أعيش فيه الآن منذ سنوات. جشع السلطة المحلية، لسوء الحظ، حوّل شاترلو الى مركز تجاري كئيب، متجاهلة البيوت الجميلة، التي تعود الى القرن السادس عشر (على سبيل المثال البيت الذي ولد فيه ديكارت)، والجسرالأنيق على نهر فيين، وانشأوا موقفا هائلا للسيارات، بعد قطع جميع الاشجار.

السبت

يروي كبلنغ القصة دائما من وجهة نظر الشخصيات الأهلية : في "كيم" البريطاني هو شخص دخيل يحاول السيطرة، لكنه في معظم الوقت يضيع بين الثقافات القديمة الغريبة.

وهو يدرك ايضا بان هؤلاء الذين يرزحون تحت الحكم الاجنبي، بريطانيا العظمى كانت أم روما، سيحاولون دائما ((ان يسقطوا الدولة)). في " أغنية بكت " كتب :

روما لا تنظر أبدا حيث تضع خطاها .
حوافرها الثقيلة تنقض دائما
على بطوننا ، قلوبنا أو رؤوسنا
وروما لا تبالي أبدا بزعيقنا .

يتجلّى الاحتقار الذي يبديه الغازي، عندما يجعل كل المتعاونين معه محل شبهة.

رابندرات طاغور، في رسالة موجهة الى نائب ملك الهند، متخليا

عن رتبة الفروسية، بعد مذبحة آمريتسار، في عام ١٩١٩ : ((الاندلاع العام للنقمة الذي تفجر في قلوب شعبنا، يُقابل بالتجاهل من قبل حكامنا... لقد أتى الوقت الذي أصبحت فيه شارات الشرف التي نحملها تسطع بخزينا، في هذا المحيط غير اللائق من الإذلال، ومن ناحيتي أتمنى ان أقف، مجردا من كل إمتياز خاص، بجانب أبناء قومي، الذين هم وبسبب ما يدعى بتفاهتهم عرضة لمعاناة من إنحطاط لا يمكن ان يلائم الجنس البشري)).

تبدو الصحف في آب خلوا من الأنباء.

الاثنين

في أحلامي لا أبدو أكبر من عمر الثامنة عشر. مدام دي دوفان، البالغة من العمر تسعة وستين عاما، تكتب الى هوراس والبول : ((لقد نسيت انني عشت، انني في الثالثة عشر فقط)).

لدي إحساس بانني لم أتعلم شيئا منذ مراهقتي. الإكتشافات التي قمت بها قبل هذه الفترة هي وحدها مازالت باقية، وماأعقبها يبدو تافها، غير جوهري، أو في أحسن الاحوال، هامشي.

يتكلم كبلنغ عن ((الفورة الاولى للعقول النامية بواسطة الشمس والبيئة، بالاضافة الى... شبه الانهيار الذي يبدأ في سن الواحدة أو الثالثة والعشرين)).

في الخارج الحر رهيب. في الداخل، وبسبب الجدران السميكة، برودة رائعة. أتذكر نفس الإحساس في أصياف بوينس آيرس الحارة، راقدا في ظلام شبه كامل خلف النافذة المشبكة التي يدخل الهواء من خلالها.

حتى لو شعرت بأحاسيس مثل هذه الآن فانها لن تكون جديدة.

سن البلوغ حسب تعريف صديق كيم، مهبد تاجر الخيول : ((عندما كنت في الخامسة عشر، أطلقتُ النار عل رَجُلي، وانجبت رَجُلي)).حين أتطلع الى الوراء، الى قراءاتي أيام المراهقة، أتذكر السؤال الجوهري، الأكثر رعبا، مطروحا " بصوت ناعس واهن " من خلال مدخن النارجيلة كاتربيلار في مغامرات أليس في بلاد العجائب : ((من أنت؟)).

الصيغة الفعالة لهذا السؤال تظهر، تقريبا، في كيم : ((ما أنا؟))، ثم وبعد عدة فصول : ((من هو كيم...كيم...كيم؟)).

كبلنغ : ((عدد قليل جدا من الرجال البيض، بجانب أعداد كبيرة من الآسيويين، ممكن ان يصيبوا أنفسهم بالدهشة من خلال تكرار إسمهم الخاص، مرة بعد مرة لأنفسهم، داعين أذهانهم تنطلق بتأمل مايدعى بالهوية. عندما يتقدم المرء بالعمر، فان قواه عادة ترحل، لكنها أثناء وجودها فانها يمكن ان تنقض على رجل في أي لحظة)).

تتلاشى الهوية والمكان، في ما أتذكره أو ما أظن اني أتذكر. حالما أدير رأسي جانبا، ستصبح كلها ذكرى وستتغير وفقا لذلك. بعد الاختبارات الكابوسية في بيت لورغان صاحب، على كيم ان يستخدم كل ما يمكنه لاثبات الواقع الذي يعرفه (" لا يزال هناك، تماما مثلما كان هناك " انه يصّر). الواقع هو الذي يعرف كيم انه يراه (حتى لو كانت عيناه تنكره)، في كل غرابته المتنافرة.

لمسة ذكية : المرأة التي تصبغ جلد كيم، كي تجعله قاتم اللون " للحماية " في اللعبة الكبيرة (حيث يتم فيها تغيير هويتهم الخارجية)، عمياء.

الثلاثاء

عدا طبعة بومباي، أملك عددا من كتب كبلنغ جُمعت مع الوقت من أماكن عديدة. أنا مولع، على وجه الخصوص، بكتابين منها : نسخة رقيقة وبالية من تحت اشجار الدردار رقم ٤ من مكتبة ويلرز انديان ريلوي، ثمنها روبية واحدة، مطبوعة في الله آباد عام ١٨٨٨، عندما كان كبلنغ في الثالثة والعشرين. والثانية نسخة جيب مجلدة بالاحمر عن دار ستالكي وشركاه، إشتراها بورخس حينما كان في الخامسة والعشرين، بعد عودته الى بوينس آيرس، وقد وهبني اياها كهدية وداعية عندما زرته في عام ,١٩٧٣

بإمكاني كتابة نوع من السيرة الذاتية، وفقا للأشياء التي مُنحت لي من اصدقائي. هنا في مكتبي :

* تمثال برونزي لجانيش، فيل برأس إله الاصول، اهداه لي صديق، انقطعت عن رؤيته منذ زمن طويل، بعد إستلامي أول جهاز كومبيوتر في عام ١٩٨٤.

* كمثرى زجاجية، كانت تملكها جدة سي.، أعطاها لي في لقائنا الاول.

* علبة اقلام هندية من المعدن المظفور، هدية من روهنتون وفريني.

* صندوق فيتنامي حجري مرصّع بإشارات لا يمكنني قراءتها، من ايزابيل هوغان بمناسبة ميلادي الخمسين.

* عمود ورقي مرسوم عليه سماء، ضمن طقم صممه مايكل ليفين لفرويلنغز ايرفاشن.

* قلمان، أحدهما قلم ريشة والآخر قلم غامس، هدية من ابنتيّ.

* ثعبان صلصالي صغير صنعته ليزا ديتريك.
* ثقّالة اوراق جلدية، وهبتها لي باربارا مون.
* صحن واقي حجري، جلبه لي من الهند ليني فاغن.
* صحن بخور، صنعته بودج هال، أعطتني إياه في يوم وفاة روب ريد، ويضم الآن صخورا، من كهف سيبل قرب النيبال، ومن تيسليتد بافيمنت في تسمانيا، ومن كولبويز بي في اونتاريو، ومن طريق في جبال فوسجيز، ومن طريق قرب بيتي في كالغاري، بالاضافة الى رأس من السيراميك هدية من كاثرين وقلادة طينية من المايا جلبها لي رون رايت من يوكاتان.
* ذراع صغيرة من الأبنوس، يقال بأنها جزء من نموذج صُمم لإقامة تمثال هائل لبربري يحمل مشعلا في جانب من كنيسة سان زاكريا في فينيسيا.
* صندوق يضم بطاقات، مرسومة باليد من قبل صاحب محل تاباك المقابل لشقتنا في القرية الألزاسية سيليستان، حيث أمضيت سنة واحدة للقيام ببحث في المكتبة البشرية.

في سيرته الذاتية، يضع كبلنغ قائمة بالأشياء التي يحتفظ بها فوق مكتبه. ((مثل كثير من الناس الذين ينكّبون على حرفة معينة في مكان واحد لفترة، احتفظت على الدوام بأدوات معينة فوق طاولة عملي، وهي طاولة عرضها عشرة أقدام ومكتظة الى أبعد حد. واحد منها كان صينية أقلام على شكل زورق طويل ومصقول، ملئ بفُرش واقلام حبر جافة، صندوق خشبي فيه مشابك وشرائط، و آخر من القصدير يحوي دبابيس، بالاضافة الى إناء زجاجي فيه اشياء متنوعة لا لزوم لها، من ورق

الزجاج الى مفك البراغي، وثقالة أوراق، يقال انها كانت لوارن هاستنك، ووبر الفقمة صغير جدا وثقيل، وتمساح من الجلد، ومسطرة ملطخة بالحبر، وممسحة حبر، تقدم لي كل سنة هدية من خادمتنا المحبوبة، وهي بمثابة قائد الكتيبة لكل هذه الأصنام الصغيرة)).

الخميس

رسالة من مرسل مجهول، بعثت لي عن طريق ناشر كتبي الامريكي. من العدم، شخص إسمه لا يعني لي شيئا، يكتب قائلا اننا إلتقينا عندما كنت في الحادية عشر او الثانية عشر من العمر، وكنت قد فعلت شيئا حينذاك بقي في ذهنه كل هذه السنين. أستغرب ان يكون هناك نتائج متأخرة، لأشياء نسيت إنني قلتها أو فعلتها منذ عهد طويل، أشياء كانت طارئة وغير مهمة.

بعد نصف ساعة بدأت بـ كيم حيث توقفت عن القراءة أمس، ووجدت هذه الكلمات التي يقولها اللاما : ((انت ضيعت صنيعا في الحياة، ومثل حجر رُمي في بركة انتشرت النتائج على نحو لا تعرف الى أي بعد وصلت).

السبت

اليوم الأخير في الشهر.

تشترك كلمة انتظار في الاسبانية espera بالجذر نفسه لكلمة امل esperanza في "جورنال" قال جيد: " يالها من لغة جميلة يخلط المرء فيها بين الانتظار والأمل"

نهاية " كيم" تدور حول الإنتظار، وإكتشاف المرء انه بلغ هدفه، الذي كافح طويلا من أجله، وتقريبا دون أن يعرف. رؤيا اللاما النهائية هي مثل الرؤيا التي حدثت لسان بينيدكت اوف نورسيا، في وقت ما من القرن السادس، اذ رفع بصره من كتاب الصلوات ورأى في الظلام خارج نافذته ((ان كل العالم أُستقطب في شعاع من الشمس وظهر مرئيا أمام عينيه)).

السطر الأخير من " شجرة الانسان" لباتريك وايت : ((وهكذا، في النهاية، لم تكن هناك نهاية)).

الفصل الرابع

أيلول

السبت

رافق سي. جارتنا مدام اتش. الى مقبرة قريتنا، للبحث عن قبر الماركيز، الذي عاش في القلعة هنا أيام طفولتها. إنها في السابعة والسبعين من العمر، وتواجه صعوبة في التوازن عندما تمشي. المقبرة عبارة عن مكان صغير مسيج، نُقلت الى ضواحي القرية خلال القرن الثامن عشر. عندما وجدا الضريح، ساعدها سي. على النزول من سلّم قريب وأضاء مصباحا كهربائيا ليساعدها على قراءة التواريخ، موته كان أقدم مما كانت تعتقد.

تنهدت قائلة: ((Mon dernier marquis !)) (ماركيزي الاخير) أكثر ما أتذكره من كتاب شاتوبريان مذكرات من وراء القبر، لم يكن تفجّعه على موت الأرستقراطية الفرنسية، وانما اللهجة الحزينة المتواصلة، وضخامة الكتاب. المجلدان La Pleida مروعان بحجمهما. كي أشعر براحة أكثر، وسط الألفي صفحة، رجعت الى ملاحظاتي التي دونتها بقلم الرصاص في الصفحات الخلفية للكتاب.

أكتب على الدوام على صفحات الكتب التي أقرأها. عندما أعيد قراءتها، لا أستطيع، معظم الوقت، ان أتذكر لماذا فكرت حينها بأن

مقطعا معينا كان جديرا بالإشارة اليه، بوضع خط تحته، او ماذا كنت أعني بتعليق معين. أمس وقعت بالصدفة على نسخة من ريني ليس لفكتور سيغالن مؤرخة في عام ١٩٧٨ في تريست. لا اتذكر اني كنت يوما في تريست.

شرع شاتوبريان بكتابة مذكراته، بتشجيع من مدام ريكامييه، وقد غطى فيها قرنا كاملا، تقريبا، من ولادته في عام ١٧٦٨ وحتى ١٨٤١، بالكاد قبل سبع سنوات من وفاته. كانت مشروعا هائلا : أن يستدعي ذكريات طفولته في سانت - مالو، مراهقته في كوبورغ، مهنته العسكرية في باريس، قيام الثورة الفرنسية، رحلته الى العالم الجديد، منفاه الصعب في انجلترا، تعاطفه المبكر مع الطموحات نابوليون، تحرره المتأخر من سحر الامبراطور ودوره الاخير كوزير للخارجية أثناء حكم سلالة البوربون. وبشكل خاص، محاولته الإستحواذ على السنوات التي انقضت.

قلّة من كتّاب السيرة الذاتية أتاحوا للزمن نفسه ان يحتل دور الصدارة : اغلبهم كانوا مفتونين جدا بشخوصهم هم أنفسهم. بقراءة شاتوبريان نحن نشهد، بالإضافة الى الجانب الذاتي، الكشف الواعي لتغيرات المجتمع : في العادات والمفاهيم والأخلاق والتقاليد. انه يقف (كما يبدو في البورتريه الشهير لجيروده) في الجانب البعيد، ناظرا الى الأبهة الارستقراطية التي جُرِّد منها، وهي خسارة لا يمكنني التعاطف معها. لكنه يحكي، في نفس الوقت، عن الخسارة الأعمق الناشئة عن التقدم في العمر، عن التجربة، عن تحّول الرغبات، ومع هذه الخسارة أشعر بأني قريب منه بشكل حميمي. يتذكر انه في شبابه كان

((مفجوعا بتوق الى السعادة))؛ وهو الآن، في هرمه، يراقب بهدوء ((بزوغ الفجر الذي لن أرى شمسه تشرق)).

كتب لي دوغلاس لوبان، في خريف ١٩٩٥، قبل فترة قصيرة من موته، قائلا: ((أشعر انه من غير الإنصاف أن أعدّ العدّة للرحيل، في اللحظة التي بدأتْ بها اللعبة تصبح أكثر إثارة)).

أقرأ شاتوبريان وكأنه معاصر لي.

الثلاثاء

لدي إهتمام أدبي في الأديان. لم أحظ بتربية اساسية في أي منها، اذاً خبرتي الدينية (إن وجدت) هى عشوائية او كيفما أتفق. أعطاني ايهودا البرغ، قبل عدة سنوات، ميزوزا (تعويذة يهودية) فضية، من القرن الثامن عشر، علقتها، حسب الوصية الواردة في التوراة، على العضادة اليمنى لباب مكتبي، وقد وضعتها، كما يقتضي التقليد، بشكل منحرف، كحل وسط للنزاع بين التلموديين القروسطيين الذي دعا بعضهم الى وضعها بشكل عمودي، والبعض الآخر بشكل أفقي.

قرأت في مكان ما عن جدال حول السماح للمساجين اليهود بتعليق ميزوزا في زنزانة السجن، بما ان المقيمين الدائميين فقط هم الذين يحتاجون اليها، والمقيمون في السجون لا يؤمل لهم ان يكونوا دائميين. المقاطع المقدسة الموجودة على الميموزا تعدُ، من بين أشياء أخرى، بنزول الأمطار في فصولها : ((المطر الأول والمطر الأخير، كي تجني ذرتك ونبيذك وزيتك)). بالنسبة لي تعّد هذه استعارة عن الكتابة.

يتسائل شاتوبريان ببلاغة، إن كان الله راض عن أعمال المرء كما عن حياته : ((هل أن كتابا واحدا كاف لمرضاة الله؟))، هذا ما أرجوه.

الاربعاء

في مثل هذا اليوم من العام الماضي، اتصلتْ بي إبنتي لتنقل لي الأخبار، التي لا تصدق، عن إصطدام طائرة بمركز التجارة العالمي. عاودتْ الإتصال طوال اليوم، وهي تنشج، لتخبرني عن آخر ما استجد. كانت وحيدة في شقتها وبحاجة لأحد يشاركها رعبها. ولأني لا أملك جهاز تلفزيون، فقد استمعت الى الراديو. عدم رؤية الصور أتاح لي، كما أعتقد، حيزا للتأمل اثناء سماعي لوصف المجزرة. كانت الكراهية الواضحة في هذا الفعل ساحقة.

الى اي حد يمكن لأحد ما ان يُضطرّ لحمل مثل هذه الكراهية لـ " الآخر" ؟ يُعرّف " الآخر" من قبل براوننغ بسطرين، طالما أثارتني منذ ان كنت تلميذا :

لم أر متوحشا كرهته بشدة
لا بد انه شرير كي يستحق ألما كهذا

في القرن التاسع عشر كان يطلق على الإرهابيين إسم النهلستيين (العدميين)، وهم اولئك الذين لا يبالون بأي شئ، ولا يخشون الموت؛ شعارهم هو الذي تغنّى به الفاشيون إبّان الحرب الأهلية الإسبانية: (يحيا الموت!) !Viva la muerte في ذلك المساء وقبل أن أذهب للنوم، فتحت شاتوبريان وقرأت إعترافه، كيف ان مدّ الثورة كاد أن يجرفه، لو لم ير أول رأس معلق على رمح. ثم صادفت هذه : ((لم يكن الموت أبدا في نظري موضع إعجاب، أو حجة من أجل الحرية؛ ليس هناك كائن أكثر عبودية، وأكثر حقارة، وأكثر جبنا، وأكثر تعصبا من الارهابي)).

الخميس

قبل إسبوع قرأت في القطار تتمة " صمت الحملان" لتوماس هاريس. البطل – الوحش الذي ليس له من هدف في الحياة سوى إشباع غرائزه : هل يوجد مثيل لهذه الشخصية في أي فترة من التاريخ؟ هانيبال لكتر تمثيل مجسّد لغرورنا، وفي مجتمعنا أكل مخ العدو، بالمعنى الحرفي، هو صورة مقبولة للإنتقام. كيف لنا اذاً أن نشكو من جنون الآخرين؟

تحدثت عن هذا مع كاثرين على التلفون، فقالت اني أبالغ دائما.

بعد الظهر

يتعرف الغرب على "الآخر" فقط كي يمعن في إحتقاره، لكنه يفاجأ عندما يُقابل بالمثل.

قال فردناندو كامون مرّة لبريمو ليفي : ((هناك ما يوحي في الثقافة المسيحية بأن العلاقة مع " الآخر" كانت لهدف وحيد وهو التوصل الى هدايته للدين... لا يُعد مصير " الآخر" شيئا بالمقارنة مع هدايته. اذا مانظرت الى المعنى الحقيقي لهذا القول ستخطر لك، في نهاية الأمر، فكرة الإبادة)).

ما زالت الحقيقة البدهية القديمة قائمة ؛ بأن العنف يولّد العنف؛ بأن السلطة مفسدة؛ بان التعصب بكل أشكاله هو عدو للصواب؛ بان الدعاية هي الدعاية حتى لو ادّعت انها تثير حماسنا لمقارعة الإثم؛ بأن الحرب ما كانت أبدا مجيدة، الاّ في عيون المنتصرين، هؤلاء الذين يؤمنون ان الله يقف الى جانب الاقوياء.

لهذا السبب ربما، نحن نقرأ، ونلجأ في اللحظات السوداوية الى الكتب : لنجد كلمات لما نعرفه مسبقا.

شاتوبريان : ((نحن نعيش فقط بواسطة الابداع)).

الشعور بالرعب بمثل هذه الأفعال التي حدثت العام الماضي كان صدى لما حدث عبر التاريخ : الرعب الذي عاناه العرب من الأعمال الوحشية للحملات الصليبية الاولى؛ شعوب الإنكا الذين لم يصدقوا ان يكون من البشر هؤلاء الدمويون حشود بيزارو؛ سكان تسمانيا الأصليون الذين لم يجدوا الكلمات المناسبة (لغتهم لا تعرف المصطلحات) لوصف وحشية المستعمرين الاوربيين.

يبدو ان التاريخ، في نظرنا، لا يحدث الا من خلال المقارنات.

بعد بضعة أيام من المأساة، سمعت ان أحدهم قد اختبأ في ذلك الصباح في داخل مكتبة قريبة من مركز التجارة العالمية. ولانه ليس هناك ما يفعله سوى إنتظار تبدد الغبار الذي ملأ الجو، فقد أخذ يتصفح الكتب الموجودة في المكتبة، في غمرة أصوات الصراخ وصفارات الإنذار. كتب شاتوبريان، بانه في فوضى احداث الثورة الفرنسية، طلب شاعر بريتاني كان قد وصل توا الى باريس، ان يؤخذ في جولة في قصر فرساي. ((هناك أناس)) يعلّق شاتوبريان ((يزورون الحدائق والينابيع، بينما من حولهم تتهاوى الامبراطوريات)).

الجمعة

في عام ١٩٣٠ إقترح اندريه بريتون، بفظاعة، بان ((الفعل السريالي الأكثر بساطة يتضمن النزول الى الشارع، وفي يدك بندقية،

وبأكبر سرعة يمكنك ان تسحب الزناد بها، تطلق النار عشوائيا في الحشود)). لقد أراد القول ان الفعل يوجد فقط في عالم الخيال المفرط. كان يكتب عن الادب؛ لكن الواقع تجاوز كتاباته.

التقيت مافيس غالانت في مقهى لاروتوند. حكت لي كيف كانت مأخوذة بالتعاطف الذي أبداه الفرنسيون، العام الماضي مع امريكا، وكيف ان أي شخص، يتكلم ما يشبه اللهجة " الامريكية " (الكندية او الاسترالية، لا يهم)، كان يسمع اينما حلّ كلمات المواساة. كانت تشعر انها مُجبرة على تقبل رأفتهم. صديقة لها دخلت الى محل في باريس، وما أن تكلمت بلهجتها " الامريكية " حتى طُوقت بالمتعاطفين والمتمنين لها صحة طيبة، وبعد دقائق إكتشفت ان بطاقتها المصرفية قد نُشلت.

الثلاثاء

في ذكرياته عن توركاتو تاسّو، لاحظ شاتوبريان كيف كان هذا الشاعر مقتنعا بحضور مقدس في العالم. في يوم وهو جالس قرب الموقد، رأى شعاع الشمس يدخل من النافذة، فأشار ((Ecco l'amico spirito che cortesemente è venuto favellarmi. ("هاهي روح ودودة، وهي، من لطفها، جاءت كي تتحدث معي").

قبل بضعة شهور، حاول سي. إنقاذ شجرة ماغنوليا، كنا قد إقتلعناها عندما قررنا إعادة بناء المخزن المنهار لنجعل منه حجرة للمكتبة. لقد أعاد غرسها في مكان آخر بأمل ان تبقى حية. كانت الشجرة تبدو هشة وعارية من الاوراق ونحيلة بشكل فظيع. يبدأ شاتوبريان مذكراته مع بضع شجيرات غرسها في حديقته في اولناي،

صغيرة جدا بحيث كان ظله يغطيها عندما يقف ((بينها وبين الشمس)).

أرسلت مافيس بطاقة كتبت فيها شيئا نسيت ان تخبرني به : كيف يمكن وصف مشهد الناس الذين رموا بانفسهم من مبنى مركز التجارة العالمية: ((كانوا يبدون مثل الفوارز في السماء)).

الخميس

كان النهار بطوله مشمسا. هناك نحلات تطير بشكل منخفض، وتئز حول كاحلي على العشب. احس بالإنهاك من الأخبار (إختلاق "الحرب على الإرهاب"، مسوّغات الهجوم على العراق)، التي يبثها التلفزيون، الذي إشتريناه حديثا، مع اعادة مختصرة لأحداث العام الماضي.

لقد خلقنا مناخا من الكراهية. أثناء حكم الدكتاتورية العسكرية في الأرجنتين، كان هناك شعور ملموس بالاشمئزاز والكره ازاء كل شخص بالبزّة الرسمية. راودني هذا الشعور، في مناسبات مختلفة، حين زرت باربادوس والعراق والقدس.

ربما كان واجبا أن يبدو آلهتنا وحكامنا بمظهر الغاضبين. يقول جوليان غرين، انه في القرن الثامن عشر باسكتلندا كانت كلمة (غضب) "warth" تتردد بشكل متواصل على منابر الوعظ، بحيث ان الشخص المعني بطباعة العظات عندما كان يستنفذ خزينه من حرف W كان يُجبرعلى استخدام حرفي V بدلاً منه

إلهنا هو إله من حكاية خرافية، جالسا يمتحن أبنائه الثلاثة، كل واحد منهم كان يؤمن بانه الإبن الأثير، لكن ما من أحد منهم كان حقا هو " المختار ".

في " الموازين" لجورج كورتلين :
حسنا قل لي ، انت ذكرت الله قبل برهة . هل تعرفه ؟
نعم ولا . انا اعرفه فيما سمعت من الناس يتحدثون عنه ،
لكننا لسنا على هذه الدرجة من العلاقة الحميمة بحيث
نلعب البليارد سوية .

يفترض شاتوبريان بان هناك عالماً وصل الى نهايته، وهو كظل بين الظلال، سيكتب ما يتذكر عن انهياره. ربما هذا هو كل ما نفعله : التذكر. هل لكل هذا النبش في الصور الكلمات من هدف؟ ((الذكريات التي أوقظت في مذكراتي تغمرني بقوتها وبحجمها، لكن اذا ستعنيه لبقية البشر؟)).

دوريس ليسنغ معلقا على ١١ سبتمبر : ((شعر الامريكان انهم فقدوا الفردوس. لكنهم لم سألوا انفسهم أبدا لماذا ظنوا، في المقام الاول، انه كان لهم الحق في ان يكونوا فيه)).

من كتاب ديفيد ينارويتز " في ظل الحلم الامريكي : قريبا كل هذا سيكون خرائبا ديرة بالمشاهدة "، الذي كتبه عام ١٩٩١ : ((لا يستطيع الامريكان التعامل مع الموت، الاّ ذا كان ملكهم)).

الانجلو - سكسونيون القدماء تركوا المباني الرومانية تتقوّض ثم كتبوا مراث عن خرائبها.

امثلة اخرى؟ مراسلات النساء الفرنسيات الشهيرات في القرن الثامن عشر؛ الروايات لبوليسية الانجليزية في عصرها الذهبي؛ جوزيف روث وساندور ماريا؛ روايات وقصص افيس غالانت؛ " كتاب الوسادة"

لساي شانغون... كل محاولات إسترداد الماضي هذه، تمتلك اصية رثائية عميقة.

وفقا لشاتوبريان، ان العالم الذي نراه هو منذ الآن ذكرى : لأشياء زائلة وقتية، راحلة، كنها تأبى ان تهجرنا بالكامل. الماضي سوف لن يختفي؛ ما نمر به موجود فقط في اللحظة التي تنقضي.

يحكي شاتوبريان قصة المرشد الروحي لأخته، المدعو مسيو ليفوريه، الذي زاره في ليلة تعيينه في منصبه، شبح كونت شاتوبورغ. ظل الشبح يلاحقه في كل مكان : في البيوت، في الاحراج، في الحقول. في يوم، وبعد ان عيل صبره، إستدار مسيو ليفوريه نحو الشبح فقال : ((مسيو دو شاتوبورغ رجاء اتركني))، على رجائه هذا اجاب الشبح : ((كلا)).

الحاضر بالنسبة الينا دائم؛ نرفض أن ندعه يمضي. محررو الأخبار يفترضون جدلا جمهورا مصابا بالتناسي، عاجزاً عن تذكر ما حدث قبل لحظات؛ جمهور في حاجة الى شبح دائم لـ " الحدث ". هل هذه هي محاولتنا لإقصاء الموت؟ الومضات السريعة، التكرار، حس الاستعجال؛ تُقدم لنا كشئ أشبه بلحظة لا تنتهي أبدا، لا تتيح لنا مسافة في الزمان أو المكان.

تعريف آخر للجحيم : القيام اللانهائي بنفس الفعل، دون اي احتمالية للنهاية.

شاتوبريان :((شئ واحد يقهرني : ان الذاكرة هي في الغالب خاصية مرافقة للغباء؛ انها عادة تنتمي للنفوس الغبية التي تغدو أكثر غباء بسبب الحمل المضاعف التي تضعه فوقها الذاكرة. مع ذلك ما الذي سنصبح عليه بدون ذاكرة؟ سننسى صداقاتنا، حبنا، متعنا، اعمالنا؛

والعبقري سيكون عاجزا عن تجميع افكاره؛ والقلوب المليئة بالحنان ستفقد حنانها إذا لم تتذكره؛ وجودنا سيُختزل الى لحظات متعاقبة لحاضر متدفق دائم. سوف لن يكون هناك ماض)).

الكلمة الاخيرة في مذكرات هي " الابدية ".

الجمعة

نزاع قرية، أو نزاع برج الأجراس*. قرر عمدة قريتنا نصب أجراس ميكانيكية في برج الكنيسة، لان الأجراس اليدوية القديمة ثقبت، قبل عدة سنوات، برصاص صياد ثمل.

تجمع عدد من أهالي القرية امام باب الكنيسة، يتناقشون حول الوقت المناسب الذي يبدأ به رنين الاجراس. لقد صوّتوا في الحال ضد العادة التقليدية بدق الاجراس مرتين كل ساعة، التي كان بها الناس يبدأون باعطاء فرصة ثانية لاحد ما، لم يبدأ العد من الدقة الاولى، ان يبدأه من الدقة الثانية. إقترح دركي سابق، يسكن في طرف القرية، لهذا كان بالكاد يسمع صوت الاجراس، ان يبدأ الرنين مع ناقوس التبشير في الساعة السادسة صباحا وينتهي بعد اثنتي عشرساعة مع ناقوس التبشير الثاني. اولئك الذين يسكنون قريبا من الكنيسة لم يوافقوا على الإقتراح، لانهم لا يريدون ان يُوقظوا في وقت مبكر من الصباح.

إرتفعت حدّة النقاش. اخيرا غضب جاري، الإشتراكي القديم الذي تربّى على القوانين العلمانية التي فرضتها الثورة الفرنسية (التي أسف عليها شاتوبريان بعمق)، فصاح دون تفكير :

* - querelle de clocher بالفرنسية في الأصل .

((أتعرف ماذا تستطيع ان تفعل بناقوس تبشيرك؟ يمكنك ان تقحمه في ...!)).

موجها كلامه للدركي السابق، الذي انتصب بدوره بوقفة جد فخورة وأجاب : ((مسيو، اذا نحن فقدنا ناقوس التبشير فاننا سنفقد فرنسا!)).

عدد لانهائي من لحظات عابرة من الإبتهاج، تكاد تكون دائما غير متوقعة، لا تلفت النظر، وهي سريعة الزوال. مشهد البدر عبر النافذة، مذاق مربى مشمش خاص، ضغطة يد مفاجئة، سطر لستيفنسون من مختطف : ((لدي ذاكرة عظيمة للنسيان...)).

وطأة السعادة : يقول شاتوبريان انه كان على الدوام يستمد القوة من التعاسة. ((اذا ما حدث يوما وطوقتني السعادة بذراعيها، فأني سأختنق)).

مع ذلك ليس كل ما يتذكره كان تعاسة، فهو يصف كيف تحرّق رغبة، حين كان طفلا، الى الملكة ديدو في الالياذة، وكيف ترجم شعر لوكريتوس hominum divumque voluptas (" أم أولاد اينياس، بهجة شهوانية للبشر وللالهة ") بحماسة ملتهبة دعت معلمه إلى إنتزاع القصيدة من يده، آمراً إياه بالجلوس ودراسة جذور الاغريق.

قراءات شاتوبريان في طفولته : ((كان من عادتي ان أسرق شمعة صغيرة من المصلّى في الليل لقراءة الوصف المُغوِ لمشاعر الروح الدفينة)). انا ايضا أتذكر، أثناء صيف طويل بهيج، قراءة كل أنواع الكتب التي أجد فيها، على نحو غير متوقع، تدريبا جنسيا، تحت الاغطية الناعمة، ومصباح يدوي تشرق بضياءه الصفحة، وجلدي ساخن ومنساق برغبة مقاومة النعاس كي لا أنام فتتوقف القصة.

بيكفورد في بداية "vathek": إنه يؤمن، مثل الخليفة عمر بن عبد العزيز، بيكفورد في بداية إن ليس من الضروري ان يجعل المرء من هذه الحياة جحيما ليكسب الجنة في الحياة الآخرة)).

السبت

مطر مدرار يتبخر على الارض.

أعطينا اليوم ابن المالك السابق لبيتنا واجهة حجرية قديمة، استخرجناها من الأرض أثناء إعادة بناء المخزن. بهذا سيكون عنده قطعة من فترة طفولته في بيته الجديد الذي يقوم ببنائه.

شاتوبريان : ((سلسلة الأحداث التاريخية، قدر البشرية، إنهيار الإمبراطوريات، مقاصد العناية الالهية، تطرح نفسها في مذكراتي كذكرى لقدري الخاص : بعد اكتشافي الخرائب الميتة، دُعيت ان اكون شاهدا لمنظر الخرائب التي كانت لا تزال حية)).

يعتقد شاتوبريان، ان مفهوم الارستقراطية بحد ذاته جدير بالاحترام. بعد ثلاثة عشر عاما من إكتمال مذكرات شاتوبريان في عام ١٨٤٧، أعطى فكتور هيغو مثالا عن الكيفية الي يعبّر بها القرن التاسع عشر عن إحترامه للأرستقراطية : ((زار أمير ويلز في ١٨٦٠، كندا والولايات المتحدة. اقترح البهلوان بلوندين، في رسالة الى الصحيفة النيويوركية ايفننغ بوست، بانه على إستعداد، مشاركة منه في الاستقبال المهيب للأمير عند دخوله الاتحاد، بان ينقل سموه الملكي، وبالمجان، على عجلة تسير على حبل بهلوان فوق شلالات نياغرا)).

في ما بعد

مذكرات من وراء القبر، وسط أشياء اخرى، انتولوجيا هائلة لحيوات قصيرة، وصورة شخصية لرجل قام بدور Boswell (كاتب سيرة صديق) لنفسه ولمعاصريه.

بعض الامثلة :

* قبل الثورة بقليل، قُدم شاتوبريان الى الملكة : ((رمتني بنظرة من عينيها مع إبتسامة، وحيّتني باسلوب فاتن. لن أنسى أبدا تلك النظرة، التي أُطفئت بعد وقت قصير من ذلك اليوم. ماري انطوانيت، وهي مبتسمة، تكشف، على نحو تام، عن شكل فمها، بحيث ان ذكرى تلك الابتسامة (وكم هو أمر مرعب)

أتاحت لي التعرّف على فك ابنة الملوك هذه، عندما أُكتشف رأس السيدة العاثرة الحظ أثناء نبش القبور في عام ١٨١٥)).

* غداة وصوله الى الولايات المتحدة، حيّت شاتوبريان صبية سوداء من العبيد تبيع فطائر الذرة ودجاجا وبيضا وحليبا. بعد ان إشترى منها، أعطاها منديلا من الحرير. كتب ((عند وصولي الى بلد الحرية، أول من رحّب بي كانت عبدة)).

* عند موت البابا كليمنت الثاني عشر، قام الكاردينال الحاجب، وفقا للبروتوكول، بالطرق مرتين أو ثلاث على جبهة قداسته، مناديا بأسمه، للتيقن من موته. بعد وصفه هذه المشهد، يعلّق شاتوبريان : ((ماذا كان سيقول لو ان كليمنت الثاني عشر أجابه، من أعماق الابدية، " حسنا؟ ماذا تريد؟ ")).

لماذا أستمتع بهذه الرفقة الحميمة مع شاتوبريان، هذا الشاهد المميز لزمان ومكان معينين؟ على وجه الخصوص، بسبب حس المشاركة بقصص سرية، بأسرار شخصية مخفية ومكشوفة. بروست لفيليب سوبو : ((أتعرف، انا بوآب بعض الشئ)).

شاتوبريان حول المواظبة على كتابة اليوميات، والحاجة الى تدوين الإنطباعات الشخصية على الفور : ((وجودنا سريع الزوال، الى حد إننا إن لم نسجل في المساء أحداث الصباح، فان العمل سيثقل علينا وسوف لن يكون لنا وقت كاف لتدارك ما فاتنا ان نسجله في وقته. لكن هذا لن يمنعنا من ان نضيّع سنواتنا، من ان نرمي للريح هذه الساعات التي هي بالنسبة لنا بذور الأبدية)).

إنه أيضا عديم الحياء في نواياه الادبية. نعم، انه يتحدث عن تاريخ، لكن، أهم من كل شيء، يجب أن يلائم هذا التاريخ مخيلته الأنيقة. يقول انه كان بحاجة الى ((غاية نافعة)) في رحلته عبر الاطلسي، لهذا ((إعتزمت إكتشاف الممر الشمالي الغربي)). ((هذا المشروع)) يقول ((لم يكن بمعزل عن طبيعتي الشعرية)).

الاحد

إعترفت الحكومة الامريكية انها بالفعل تملك " إدارة المعلومات المضللة ". لا أستطيع أن أحدد أي هو الشائن أكثر : وجود مثل هذا القسم، أم الإعتراف بوجوده.

شاتوبريان معلقا على الأكاذيب التي تضمنتها خطبة تاليران السياسية، الذي شغل منصب وزير الخارجية في حكم لويس الثامن

عشر: ((هناك خلل في الذاكرة، أو أكاذيب، تثير خوفك؛ انت جالس تفتح اذنيك، وتفرك عينيك، لكنك لا تعرف إن كنت مخدوعا بسبب السهر أو بسبب النوم... لاتستطيع ان تقول ان هذا الرجل ربما إستمد من الطبيعة مثل هذه السلطة التي تهبه القدرة على إعادة خلق أو محق الحقيقة)).

الاثنين

وعد باسبوع هادئ هادئا في البيت. هناك كتّاب أستطيع أن اقرأهم وسط الصخب، لكني أحتاج الى الهدوء كي أجلس مع شاتوبريان؛ والاّ سيفوتني الكثير جدا من النبرة التي تتوارى خلف الإسلوب.

جزء كبير من " مذكرات" شاتوبريان يتعلق بنابوليون، أولاً كشخصية بطولية محتملة، ثم كطاغية. سرده التاريخي لخيبة الأمل يذكرني بصداقات وعداوات مشابهة : جيد وستالين، سونتاغ وكاسترو...

لومٌ يبدو انه موجّه للذات : ((كل ما يراه العالم في نابوليون هو إنتصاراته)).

ان وصف شاتوبريان لإستبداد نابوليون ملائم، تقريبا، لأي دكتاتورية اخرى : ((هؤلاء الذين كانوا مضطهدين، كانت ترهبهم رؤية أصدقائهم خوفا من تعريضهم للشبهة؛ ولا يجرؤ أصدقائهم على زيارتهم، خوفا من غضب هو أثقل حتى من الاضطهاد. ان الخارجين عن القانون العاثري الحظ، يغدون منبوذين، محجور عليهم في سجن الكراهية الذي شيده الطاغية.

أنت مرحّب بك طالما ظلت حريتك في التعبير سرية، لكنك ستحرم من كل شئ حالما تكشف عن هذه الحرية؛ لا يبقى لك من رفقة سوى السلطة، فهي تتجسس على علاقاتك، على أفكارك، على سلوكك. هكذا كانت تلك الايام من السعادة والحرية)).

شاتوبريان كأوربي . يتذكر توماس مان، في عام ١٩٣٤، لقاءً مع مرشده القديم، الناشر الالماني سامي فيشر، فيدوّن في يومياته ملاحظة قيلت من قبل فيشر حول واحد من المعارف الشخصيين المشترك :

((انه غير أوربي)) قال وهو يهزّ رأسه.

((غير أوربي، سيد فيشر؟ لم لا؟))

((لانه لا يفهم الأفكار البشرية العظيمة)).

بورخس ناقدا فلم جيمس ويل درب العودة ١٩٣٧ : ((مجرد معارضة الحرب ليس كافيا. الحرب هوى أزلي يُغري بمفاتن زاهدة ومهلكة. لإلغاء الحرب يجب ان تقابل بهوى آخر. ربما بذلك الهوى الذي لدى " الاوربي الطيب " ـ ليبنز، فولتير، غوته، آرنولد، رينان، شو، رسل، اونامونو، تي. أس. اليوت ـ الذي يعرّف نفسه بانه وريثا وخلفا لكل البلدان. يوجد في أوربا عدد كبير من مجرد ألمان أو مجرد آيرلنديين، ما ينقص هو الاوربيين)).

الثلاثاء

الآن صارت أجراس الكنيسة تبدأ بالرنين في الساعة الثامنة، متأخرة في ان تُعد كمنبه إيقاظ.

جاء الينا إبني روبرت في زيارة. تحدثنا عن سياسات السلطة المطلقة فقرأت له هذه الأسطر من شاتوبريان عن نابوليون : ((كي نحس بالاشمئزاز من فاتحين، سيكون من الضروري ان نعرف كل الشرور والكوارث التي سببوها؛ سيكون من الضروري ان نشهد اللامبالاة التي أبدوها تجاه اكثر المخلوقات براءة، هؤلاء الذين ضحوا من أجلهم بحياتهم في زاوية من العالم لم يطأوها هم بقدم أبدا)).

قال لي ربرت انه يئس من إمكانية بقاءه وفيا لمبادئه الأخلاقية في عالم فاسد، يتحكم فيه عدد لا يحصى من نابوليونات. كيف نعرف أي من أفعالنا هو تسوية، وأي هو ستراتيجية للبقاء على قيد الحياة، وأي هو خيانة؟ حيل الجشع (كان نابوليون، على سبيل المثال، يطمع بإمتلاك كل شئ) مثيرة للدهشة؛ انهم لا يعرفون حدودا، حتى تلك التي تقود الى فنائهم.

على العشاء، تذكرنا قراءتنا لقصص الأطفال في تورنتو، تلك التي كتبها اوسكار وايلد، حين كان عمره سبع أو ثماني سنوات. جلبت واحد من كتبه وقرأت وصف وايلد لحلم في "الملك اليافع" . الطمع والموت يراقبان حشد من الرجال يكدحون في الطين. ((هؤلاء خدمي)) قال الطمع، وكان يحمل في راحة يده ثلاث حبات من الذرة. إقترح الموت ان يقوما بصفقة : مقابل حبة واحدة من الذرة، سوف لا يؤذي اي منهم. رفض الطمع، فقتل الموت ثلثهم. عُرض الاقتراح ثلاث مرّات وثلاث مرّات جُوبه بالرفض. في النهاية لم يبق من الرجال واحد حيا.

الاربعاء

مزيد من الأمطار، لكنها لم تعد تمنح اي شعور بالارتياح. الوقت متأخر ليلا. أستمع الى نسخة ١٨٩٣ من ريكيم لفوريه، ليست النسخة المبهرجة لعام ١٩٠٠، بل النسخة التي تخيلها قبل ان تُكتب لأوركسترا كاملة. حتى لقد وزّع فوريه نسخة قبل هذه في عام ١٨٨٧ (من أجل متعتي الخاصة) كما قال بعد موت والديه. النسخة الاولى لا تتضمن " يوم الدينونة "، وعُزفت مع بضع آلات وترية، في الاغلب الاورغن المزدوج. ثم بعد ست سنوات، في كانون الثاني، أضاف قطعتين من الجهير الاول : " أوفرتوريوم " و " ليبرامي "، في هذه النسخة المتواضعة يختفي المؤلف؛ يكون المستمع هو الحاضر فقط.

في " انترويتوس "، على سبيل المثال، ما نسمعه هو أنفسنا، صوتنا الخاص يدعو ((من الاعماق السحيقة))، فوريه بعيد عن المسرح، غير مرئي. عند قراءة مذكرات من وراء القبر نسيت ان شاتوبريان هو الذي يتفجع لا أنا.

الخميس

في النهاية، يقول شاتوبريان، لا شئ يفنى. ((وفائى لذكرى أصدقائي الميتين يجب ان يمنح الثقة لأصدقائي الاحياء : بالنسبة لي، لا شئ يتلاشى في الظل، كل شيء عرفته يوما يعيش حولي. حسب العقيدة الهندية، حين يأتينا الموت، فانه لا يفنينا؛ انه يصيّرنا خفيين فحسب)).

كوكتو في يومياته : ((الإخفاء شرط للأناقة)).

الفصل الخامس

تشرين الأول

السبت

أقوم بجولة أدبية في المانيا ، قارئا كل يوم في مدينة مختلفة. يبدو الجو كما لو انه لا زال صيفا : الشرفة الخارجية مفتوحة، زهور الجيرانيوم في كامل تفتحها في كل مكان، وفي الصناديق التي على النافذة.

اليوم أنا في مونستر. جالسا خارج مقهى تقع على شارع مارّة مرصوف بالحجر، اقرأ رواية كونان دويل " إشارة الرقم أربعة"، قريبا من نصب تذكاري للهولوكوست، يمثل إمرأة يهودية راكعة على ركبتيها، تنظف حجارة الرصيف بفرشاة اسنان. طلبت قدحا من المثلجات بعصير الفاكهة الأحمر. تعثرت النادلة، وهي فتاة من المانيا الشرقية في مريلة مزخرفة، بأحد الكراسي فسقط القدح من يدها على الحجر. إعتذرت بإرتباك، وقد جذبت إنتباه المشرف، وإنحنت على أربع لتنظف الخبيصة الحمراء.

في كاتدرائية مونستر، التي قصفت بقنابل الحلفاء، حجر من كاتدرائية كوفنتري، نقش عليه ((دمرت يوم ٤ تشرين الثاني ١٩٤١))، مع كتابة ((سامحوا أحدكم الآخر كما سامحكم الرب في المسيح)). وجدت في هذا نوعا من السخرية الخبيثة، تعلن عن تفاخر غير لائق من كلا الطرفين.

جوج ميريديث في حب عصري : ((لقد خُدعنا بما هو مزيف في داخلنا)).

الأحد

شاهدت الخميس الماضي في ميونيخ، في بيت الأدب، معرضا للفوتوغراف لصور ممثلين أُخذت من عدة أداءات لأدوار مختلفة لهم؛ مجموعة الوجوه هذه خلقت أداء جديدا. الترتيب المختلف للوقائع شكّل اسلوبا جديدا، حكاية جديدة، نظرية جديدة (لو كانت هذه قصة بوليسية) لما حدث فعلا.

في القصة البوليسية يكون الإفتراض، في الغالب، ان أي شخص هو القاتل.

هذا الصباح عبرت البلد في القطار : الغابات الألمانية الرائعة تشبه الغابات التي تضمّها صور القصص الخرافية في كتبي. ثم تخطر هذه الفكرة : عبر هذه الغابات كانوا يطاردون الأسرى الهاربين.

بعد الظهر

برلين. لمعظم المدن الالمانية مظهر فائق النظافة لا تملكه المدن الاخرى أبدا (لندن مثلا).

هذا بلا شك ناشئ عن نظرة الغريب، الذي، مثل واتسون، لا يرى ما خلف المظاهر الخارجية.

هذا الاسبوع أينما ذهبت، أرى سلسلة من الملصقات تعلن عن حملة لمكافحة المخدرات، حتى المدمنين الظاهرين في هذه الملصقات يبدون مفروكين ونظيفين.

في سنوات مراهقتي المتأخرة، وعندما دخلت في العشرين، اعتقدت بانه يمكن لأي أحد، في أي لحظة، ان يرى عبر مظهري الخارجي ويكتشف كل أسراري. كنت خائفا من ان حتى أفكاري، تحت الفحص الدقيق، سوف لن تبقى مخبأة لوقت طويل، وان أي مراقب حاذق، كأن يكون محقق داهية مثلا، سوف يعرف بأني مذنب بكل أنواع المحرّمات.

أول مرّة تناولت فيها مخدر ال. أس. دي. كانت في فندق رخيص في لندن مع ثلاثة أشخاص، واحد منهم كان مشرفنا في المدرسة الاعدادية في بوينس آيرس. كان هذا في العام ١٩٦٩ أو ١٩٧٠؛ كنت في الواحدة أو الثانية والعشرين من عمري، ولم يكن لدي توقع واضح عن التجربة التي سأخوضها. لقد قرأت هكسلي وكاستانيدا، لكني وجدت انه من المستحيل التخيل (كما كان غالبا في تلك الأيام) انه يمكن للتجربة الأدبية للآخرين ان تتوافق مع تجربتي الخاصة. الأحداث التي على الصفحة كشفت عن نفسها في وقت منفصل، وقت إقتربت منه، نعم، لكني دخلت في دنيا متوازية، حقيقية ودائمة أكثر من تلك التي تحكمها هموم النقود، والطعام، والصحة، والجنس والحب. اذاً عندما إقترح المشرف ان نأخذ معه كلنا الحبوب الزرقاء الصغيرة التي كانت معه، وافقت، بالطبع، دون أي رغبة بمقارنة ما سيحدث مع ما قرأته منذ زمن طويل.

لكن إن لم تكن الكتب التي في متناول يدي حاضرة في ذهني في تلك اللحظة، فان الأخرى غدت مفتوحة من تلقاء نفسها. ربما شكل الحبوب الشبيهة بالفاكهة المجففة، والعيون المدوّرة لمشرفنا، وإسم الشارع الذي يقع فيه الفندق (لويس)، والإحساس الكاذب بالسقوط والعوم،

جعلتني أفكر بسقوط آخر ومغامرات أخرى، فبدأت أخربش على صفحات شفافة زرقاء أفكارا حول مغامرات أليس في بلاد العجائب، أفكار ظهرت لي هامة جدا في حينها، والآن تبدو تافهة عندما كفّت ان تصبح مبهمة. في الصفحة السابعة، بعد تدوين شئ ما عن السقوف وإيقاع رثائي، كتبت، بما يشبه الإشراق المفاجئ الذي لا علاقة له بأليس: " إشارة الرقم ٤ !!! " بحروف كبيرة.

أول مرّة قرأت فيها كتب شرلوك هولمز كانت في البيت الصيفي المؤجر في مار دل بلاتا على شاطئ الأطلسي جنوب بوينس آيرس، كتاب بعد آخر، غير قادر على التوقف. لا أعرف ما الذي شاقني فيها حينذاك : ليست هي حبكات القصص، بما انه السلسلة البوليسية El Séptimo Círulo، التي حررها بورخس وبيوي كاسارس، تحوي كتبا أكثر إثارة وفيها حلول أصيلة ؛ ليست هي اللغة، التي تبدو لي أقل فتنة بكثير من تلك التي لستيفنسون وكبلنغ، بل هو ربما ما يدعوه تشسترتون ((طابع السخرية، الذي يتخلل كل الإستحالات المقدسة للقصة))، الذي يعتقد انه جعل من قصص هولمز ((اضافة حقة ورائعة لأدب الهراء العظيم))، أو ربما هو ايضا الحضور البارد، لكن المطمْئن، لمكان كنت أزوره في أحلام يقظتي بإستمرار.

برأيي، ما من مدينة ألمانية (لا برلين دويبلن ولا لوبيك توماس مان) كان لها واقع لندن كونان دويل : الغرف المضاءة بمصابيح الغاز في بيكر ستريت، الشوارع الخطرة الملتوية، الساحات الضبابية الأنيقة. بعد سنين سافرت الى لندن، واثقا اني سأجد الجغرافية الجديرة بالذاكرة، لكن غرفتي الرخيصة بأريكتها التي كانت سريري، فوق محل السمك والتشبس، أيقظتني من حلمي.

لا أتذكر ماذا كان عليه رد فعلي عندما إكتشفت ان شرلوك هولمز كان مدمن كوكايين.

الفقرة الإفتتاحية من إشارة الرقم أربعة التي تصف الأستاذ متناولا القنينة " من حافة رف المستوقد " ومحقنة زرق الأبر " من علبتها المغربية الجلدية "، ثم " بأصابعه البيضاء العصبية الطويلة " يسوّي " الأبرة الدقيقة " ويشمّر " كم قميصه الأيسر "، وأخيرا يغرز " النهاية الحادة في موضعها " ـ كل هذا يحدث في حضور دكتور واتسون ـ، هذا الفقرة إستحوذت علي دون أي شعور بالإستياء، (كنت مصدوما، على سبيل المثال، أكثر بإقتحام شبح الكلب الشيطاني في كلب باسكرفيل). لكن فيما بعد، في لندن بعيدة الإختلاف عن تلك التي ظننت انني أحببتها، عندما تمتعت فيها بهلوساتي الكيمياوية الاولى، تذكرت هذا المشهد قبل أي شئ آخر. تعليق هولمز على نقد واتسون ـ ((إفترض إن لها تأثيراً سيء على الجسم، لكني وجدتها، على أي حال وسيلة ممتازة لصفاء الذهن، ولم أهتم لآثارها الجانبية)) ـ يبدو ان هذا حقيقة. أخذت ال. أس دي. ثلاث مرّات اخرى، ثم توقفت، لا لأسباب تحذيرية، بل لأني شعرت ان التجربة ستكرر نفسها، مثل مشاهدة فلم للمرّة الرابعة.

غراهام غرين عن الفقرة الإفتتاحية في إشارة الرقم أربعة : ((أي من المؤلفين المعروفين اليوم يقدم، على نحو مفاجئ، بطله كمدمن مخدرات دون ان يُجابه بالإعتراض من جمهوره؟ هذا يعني اننا أصبحنا مجتمعا متساهلا، لكن بإتجاه واحد)).

غدا أعود الى فرنسا.

الاثنين

من السهولة عليّ القراءة في القطارات، لكن من الصعوبة الكتابة فيها.

عاصفة ثلجية، هذا الصباح، قصيرة غير ملاحظة تقريبا، أرقبها من نافذة القطار في طريقي الى البيت. في كتاب الطقوس الدينية الانجليكانية : ((لقد وهب الثلج مثل الصوف))، ثم ((الشئ المفرح والسار،هو ان تكون ممتنا)). وضعت في ذهني قائمة بأوصاف الثلج من كتب كنت قرأتها، ولأنها كثيرة، أعتقد انها سوف لا توافق تلك التي لقارئ آخر.

في ما بعد

هولمز بوصفه بطلاً مأساوياً، شاعرا أنه واقع في شرك عالم خانق، معانيا من ألم الوجود. أمثال: Weltschmerz

هولمز : لا أستطيع العيش من دون عمل فكري. ماذا هناك للعيش من أجله بعد؟ واقف حد النافذة هنا وأنا أفكر، هل كان هناك، في أي زمان، مثل هذا العالم الموحش الكئيب عديم الجدوى؟ أنظر الى هذا الضباب الاصفر كيف يدوّم على الطرقات ويطفو فوق البيوت الكالحة. هل هناك شئ أكثر يأسا وابتذالا ورتابة من هذا ؟ ما فائدة إمتلاك المرء الموهبة، حين لا يكون هناك مجال لإستخدامها؟

فاوست : آه،كيف لازالت هذه الجدران تطبق على روحي، حفرة السجن الخانقة الملعونة هذه...

ولازلتَ تسأل، لماذا قلبك

حبيس وعالق في صدرك،
لماذا تتألم من وجع غامض،
مسلوب من كل رغبة في الحياة؟
في مكانك هنا، لا تحيطك الطبيعة الحية
حيث وضع الله البشر،
بل جدران عفنة وعظام بهائم
وبشر متفسخة.

بروفوك: الضباب الاصفر الذي يفرك ظهره على ألواح النوافذ،
الدخان الاصفر الذي يحّك خطمه على ألواح النوافذ
لعق بلسانه زوايا المساء.

عن ماذا تدور إشارة الرقم أربعة ؟ البحث عن التوازن كعلاج للسأم. التوازن، ربما، هو الثيمة الرئيسية في كل قصة بوليسية. الإنتقام (شكل من التوازن). السبب والنتيجة (واحدة اخرى). العدالة (واحدة اخرى).

بي. دي. جيمس : ((ما تدور حوله القصة البوليسية ليست هي جريمة القتل بل إستعادة الأمن)).

الثلاثاء

العودة الى البيت. القطة التي قررت أن تختار الإقامة هنا، بدت غاضبة لأني تركتها كل هذه الفترة، وابتعدتْ حين إقتربتُ منها، تركت باب المكتب مفتوحا كي أغريها بالدخول.

قبل وقت طويل إكتشفت كتابا ملفتا ، كتبه ساموبل روزنبرغ، العري أفضل قناع . عملَ روزنبرغ كمستشار أدبي في ستوديوهات رئيسية للأفلام، تعاقدوا معه عندما رُفعت عليهم دعوى بالسرقة الأدبية. عمله كان ((تحليل السيناربوهات المعَّدة عن أعمال أخرى، وعندما يكون التشابه بين " ما لهم " و " ما لنا " قريبا جدا مثل توأمين، أحاول، كي أجنّب أرباب عملي الوقوع في شرك المقاضاة، أن أبحث عن أسلاف أدبيين مشتركين لكلا الملكيتين)).

بإستخدامه معيار هولمز كنقطة إنطلاق، عمد روزنبرغ الى ربط نيتشه، ملفيل، ماري شللي، بوكاشيو، راسين، فلوبير، وآخرين كثيرين بالاسطورة الشرلوكية. يرى روزنبرغ في شخصية تاديوس في إشارة الرقم أربعة تقليدا ساخرا لأوسكار وايلد، مع شفته الهابسبورغية. (في عام ١٨٨٩، إلتقى وايلد وكونان دويل في مأدبة عشاء أقامها المندوب الامريكي لمجلة Lippincott. تمخض هذا اللقاء عن الاتفاق على مشاركة الأثنين في تحرير المجلة : وايلد مع صورة دوريان غراي وكونان دويل مع مغامرات شولتو.

تطابقات :

* كونان دويل في وصف تاديوس شولتو : ((منحته الطبيعة شفة متدلية، وصفاً بارزاً جدا من أسنان صفراء وغير منتظمة، يحاول بيأس ان يخفيها بوضع يده بإستمرار على الجزء السفلي من وجهه. انه، بالرغم من صلعه الظاهر، يعطي إنطباعا بالشباب)).

* هيرسك بيرسون في وصف وايلد : ((شفتاه سميكتان إرجوانيتان حسّيتان، أسنانه غير متساوقة عديمة اللون... يُلاحظ بانه

عندما يتكلم يضع بإستمرار إصبع محني على فمه، مما يدل على انه واع بقباحة أسنانه)).

يقول تشسترتون : ((بجب ان نفكر ليس فقط بما هو غير محتمل، بل بما هو محتمل أيضا؛ وبخاصة بالتطابقات العرضية التي هي محتملة بشكل ساحق)).

الخميس

قضيت يوم أمس أعيد ترتيب كتب الروايات البوليسية. لقد وضعناها في الطابق الأعلى، في غرفة الضيوف، التي تُعرف الآن بإسم غرفة جرائم القتل.

"the sign of four"، العبارة كما وردت في القصة هي: The Sign of Four. لكن فقط عديم الإحساس بالإيقاع هو الذي سيستخدمها في عنوان، كما فعل كونان دويل في مجلة Lippincott في شباط ١٨٧٠ . احد ما او شيء ما اقنعه ان يسقط (the) حينما طُبعت القصة في شكل كتاب.

قائمة بالروايات البوليسية المفضلة :

* نيكولاس بليك، الوحش يجب ان يموت
* ريجنالد هل، أجساد وصمت
* روث رندل، حكم بالرجم
* اغاثا كريستي، مقتل روجر آكرويد
* جون ديكسون كار، النظارة السوداء
* Rósaura a las diez ماركو دنيفي،

* مرغريت ميللر، كيف تحب ملاكا
* فروتيرّو و لوتشنتيني، سيدة الأحد
* جيمس كين، ميليدرد بيرس
* فيليب كرّ، تحقيق فلسفي
* دوروثي ال. سايرز، ليلة مبهرجة
* ليو بيروتز، سيد يوم الحساب
* اليري كوين، مأساة أكس
* انتوني بيريكلي، التجربة والخطأ
* سيباستيان جابريسو، قاتل مجزأ
* جيمس ماككلور، الخنزير البخاري
* رايموند بوستغيت، المحلفون الاثنا عشر
* جورج سيمنون، خطوبات المسيو هير
* باتريك كوينتن، ابني القاتل
* تشستر هايمز، كوتون يأتي الى هارلم

الجمعة

سمعنا هذا الصباح ان زوج ساعية البريد قد انتحر. فجأة، بدا من المقرف ان نتسلى بحالات الموت العنيفة في الروايات.

الاحد

في نهاية الفصل السادس، يستشهد هولمز (بالالمانية) بعبارة لغوته (فاوست، ١): ("Wir sind gewohnt dass die Menschen verhöhnen was sie nicht versthen.")

("تعودنا على ان الناس يهزأون بالشيء الذي لا يفهمونه ").
القصة البوليسية تثير إحتمالية السخرية، لكنها في نفس الوقت تمنعها القارئ الذي إهتدى مسبقا الى الإيمان، لا يريد أن يعرف، يريد أن يكون مظللاً كي يتسلى أكثر.

أسئلة هي مبهجة بحد ذاتها : لماذا وكيف حدث هذا؟ من هو المسؤول؟ ما القصد من وراء هذه الوقائع المشوشة؟ سيتولى القارئ وظيفة الدور المحايد، التي تكون فيها العاطفة مجرد زينة وتسلية. هولمز، يعي هنا الأمر، يتهم واتسون بإقحام العاطفة في تفسيره اللغز : ((أنت تحاول ان تضفي عليه لونا من الرومانسية، مما يحدث نفس التأثير عندما تتحدث عن قصة حب أو فرار عاشقين في الفرضية الخامسة لاقليدس)).

مع ذلك، وكما لاحظتْ واحدة من الشخصيات في الرواية، فان إشارة الرقم أربعة " رواية غرامية ! " وقد لخصتها كما يلي : ((إمرأة مظلومة، كنز بنصف مليون، آكل لحم بشر أسود، ووغد برجل خشبية. لا ينقص سوى وجود تنين أو كونت شرير...)).

كي ينقل مغامرات بطله، فان كونان دويل يتكّل على التقاليد الإجتماعية لعصره. بما أنه في القصص البوليسية الكلاسيكية لا شئ يجب أن يبدو غير متوقع عدا ما يُقدم، بعمد، كشيء غير تقليدي، ويجب ان تتوافق المغامرات مع السلوك المتعارف عليه للمجتمع طبقا للطبقة والجنس، الى آخره، والمسؤوليات الضمنية، ومبادئ الشرف، وما شابه ذلك من " سيداتي وسادتي "، أو ما يدعوه هولمز " أناس من هذا النوع ". ان المرء يرتعد من قراءة اللهجة المختالة للبطل تجاه أقرانه من

البشر " الأقل شأنا ". يعلق هولمز وهو يراقب عمالا خارجين من حوض لبناء السفن بعد إنتهاء يوم عملهم ((أوغاد قذرو المظهر، لكني أفترض ان كل واحد منهم يشتمل على كائن صغير شديد التأنق. شئ لا يخطر على بالك حين تنظر اليهم)).

((من المحتمل ان المؤرخ في المستقبل، سوف لا ينكّب على دليل الاعلام والمشاهير وكتب الاحصاءات الحكومية، اذا أراد دراسة اسلوب حياة عصرنا، بل على القصص البوليسية))، هذا ما كتب سي. أتش. بي. كتشن بعد اربعين عاما.

ملاحظة : كمثال على هذا الاتكّال على التقاليد الاجتماعية، الرسالة التي أرسلت الى ماري مورستان (الآنسة التي يحيق بها الخطر والتي ستصبح زوجة واتسون) : ((كوني هذه الليلة في الساعة السابعة مساءً عند العمود الثالث من الجانب الأيسر لقاعة المسرح. اذا كنت غير مطمئنة اجلبي معك صديقين. انت إمرأة مظلومة وستنالين العدالة. لا تخبري الشرطة. اذا فعلت، سيكون كل هذا عبثا. صديقك المجهول)). حتى هنا تفرض الرسالة مصادفة سعيدة بسماحها لـ " إثنين " من الاصدقاء (ليس واحد فقط)، بالتتابع لكل من هولمز وواتسون بمرافقة السيدة، دون الاخلال بمبدأ الشرف. (فيما بعد ستعطي الآنسة ماري كلمة شرف لـ " الصديق المجهول " بأن ((أي من مرافقيها ليس رجل شرطة)).

وكسيدة فان كلمتها، بالطبع، ستكفي).

الاثنين

مـشـاهد مـرهفة عـن الصداقـة بين الرجـال في عـالم الذكـور الخـشن. هولمز يخـاطب واتـسـون : ((إضطجع هنا على هذه الأريكة، وسنرى إن كان بإمكاني ان أساعدك على النوم)).

عندئذ التـقط كـمانه من الـركن، بينمـا تمدد واتسـون. ((الـذي ذكـرى مـبـهـمـة)) يقـول واتـسـون، ((عـن أطرافـه النحـيلة، وجهـه الجـدي، وعـن صـعود وهبوط قـوس كـمانه. بعدئذ شعرت بنفسي مثل العائم فـوق بحر ناعم من الموسـيـقى، حـتى وجدت نـفـسي في دنـيـا الأحـلام، ووجه مـاري مورستان الحلو يحدق بي من أعلى)).

عبـارة ((وجه مـاري مورسـتان الحلو)) تبدو مضـافة، كـفكرة متـأخرة للتأكيد.

الثلاثاء

الأحـد الماضي، عـثـرت في سـوق البـراغـيث في شـينو على الطبـعـة الاولى مـن لبـوريس فـيـان L'ecume des jours خطر لي ان L'écume des jours هي النسـخـة الفرنسـيـة كـعـلاقـة هولمز - واتسـون مطلب هولمز بان لا يكون هناك غموض في القصة، أخذ بشكل حرفي في هذه الرواية حرفيا " ادفع النـار ")*، واذا كـان) "Poussez le feu" الســريـاليـــة. اذ يقـــول أحـدهم: (" زُرع هناك ")**، فـسـوف ينبت جـذورا بـالفـعل. " planté là" أحـد مـا هولمز : ((أمـضـيت Weltschmerz حـتى ان فـيـان يعـيـر نفس

---

* - تعبير في الفرنسية يعني: "أذكى النار" .

** - تعبير آخر يعني ، "تُرك فجأة" .

الكلمات لـ ساعاتي المشرقة أعتمها، لأن الضوء يزعجني)). بسبب عبارات مثل هذه أفهم الآن لماذا قال كورتازار للشاعرة اليخاندرا بيزارنك، بأنه بعد أن إنتهى من قراءة شعر بحزن طاغ في ان يغادر غرفته. L'écume des jour

الاربعاء

أستكشف مكتبتي مثل امرئ عاد الى وطنه بعد غياب عقود من السنين. في كل مرّة أعود من جولة من احد كتبي، علي ان أظهر على الخارطة جغرافيته مرة ثانية، وان انشئ طرقا بين رفوف المكتبة، حيث أتذكر عناوينا لم أفكر بها لأسابيع. مثل رجل يجد وجهته في مكتبة، بامكان هولمز ان يجد طريقه في متاهات لندن بتلاوة أسماء الشوارع التي يراها من نافذة عربة الاجرة : ((واندسورث رود... برايوري رود. لاركهال لين.

ستوكويل بليس. روبرت ستريت... كولدهاربر لين)). ثم في ما بعد، المناطق التي يلاحق عبرها طريدته ((ستريتهام، بريكستون، كامبرويل... كيننغتون لين... ذي اوفال... بوند ستريت ومايلز ستريت... نايتس بليس)). مدينة أُختزلت الى ما تحويه من عناوين.

مكتبات مُتخيلة :

* مكتبة من كتب لم تُكتب أبدا : " الاعمال الصغيرة " لشرلوك هولمز، مثل " تأثير العمل على شكل اليد. مع رسوم لأيادي قاطعي الصخور، البحارة، قاطعي الفلين، منضّدي الأحرف، صائدي الحيتان، وصاقلي الأحجار الكريمة "، دراسة عن إقتفاء آثار الخطوات، وأخرى

شهيرة عن " الفرق بين رماد أنواع مختلفة من التبغ " مرفقة بصور ملونة على ورق صقيل.

* مكتبة من كتب حقيقية مقروءة من قبل شخصيات خيالية : هولمز يقرأ الكلاسيكيات الالمانية، ولكي يدعم الرؤية الرومانسية عن ضآلة الانسان في الكون، فإنه يقترح على واتسون جان بول ريختر. لكن، على نحو أكثر من مفاجئ، بجيبه واتسون بأنه قد قرأه : ((بدأت به بعد أن قرأت كارلايل)) وهنا استعار عبارة هولمز" كان هذا مثل تتبع نهر نحو المصّب ").

الخميس

هولمز نصيـر متـحـمس للكاتب وينوود ريد، المنسي الآن، وهو مستكشف في أفريقيا وكاتب غير ناجح لروايات وثائقية. احدى رواياته إستشهاد رجل،التي نصح هولمز واتسون بقراءتها بوصفها ((واحدة من أكثرالروايات الملفتة للنظر، التي كُتبت على الاطلاق))، خاتمتها الكئيبة كالآتي : ((لكن تنتظرنا فترة من الألم المبرح، وعلينا ان نعانيه كي تتمكن أجيالنا القادمة من النهوض. على أرواحنا أن تضحي، والأمل بالخلود يجب ان يموت)). مثل وينوود ريد، ورغم الإزدواج الظاهر في مخلوقاته ـ هولمز وواتسون، هولمز وموريارتي ـ، يبدو ان كونان دويل آمن في عالم موحد شمولي.

(في واحد من مشاهد قصصه في الخيال العلمي " عندما يصرخ العالم "، يثبت بروفسور تشالنجر بان الكوكب عبارة عن كائن وحيد يعيش بواسطة أبرة هائلة تغرزعميقا في الارض، تدفعه للصراخ).

الاحد

أخبرتنا جارتنا مدام أم.، بان شبح آنسة معينة يسكن منطقة دو لاميري، لكنها، للاسف، لم تره أبدا.

هولمز (بخلاف خالقه) لا يؤمن بالاشباح. ربما إيمان كونان دويل بالظواهر فوق الطبيعية لا يتطفل على عالم هولمز، لأن هذه الظواهر (بإعتقاد كونان دويل) لا تحتاج ان تظهر نفسها لأثبات وجودها. جسم من لحم ودم وحضور شبحي، بطل ومجرم، طيب وشرير، كانوا بالنسبة لكونان دويل جزءاً من نفس الشبكة الغامضة، كي يبرر لهولمز (على الرغم من إستياء واتسون) ان يسطو على خزنة أو يزيف ورقة نقدية، وينتحل شخصية احد ما أو يكذب في سبيل الحصول على المعلومات التي يحتاجها، ومع هذا يبقى في أعين القرآء جديرا بالثقة وبطوليا بشكل تام. هذه التصرفات هي إنتهاك للسلوك أكثر مما للأخلاق، وهولمز مهيأ لكسر القواعد الاجتماعية (والقارئ لا يمانع بذلك).

دو كوينسي : ((فإذا أذنب رجل يوما، في جريمة قتل، فانه، بعد وقت قصير، سيفكر قليلا في السرقة؛ ومن السرقة سيبادر الى السكر وإنتهاك حرمة ايام الآحاد، ومن هذه الى الفظاظة والتقاعس)).

الزيف هو جزء من الجوهر. صورة الإمبراطورية البريطانية التي تُقدم من خلال الاوصاف الجاهزة للمدينة ـ لندن الراقية، لندن احواض السفن، لندن الأجانب الأشرار ـ تضفي سمة الخرافة على ملحمة هولمز. لندن (أو بغداد). مدينة هولمز (تلك لندن التي بحثت عنها، عندما وصلت انجلترا، وبالطبع لم أجدها أبدا) هي خيالية تماما، إنعكاس لواقع غير حقيقي. انها لندن التي طار فوقها بيتربان ذاهبا الى نفرلاند، لندن التي

طافها دكتور جيكل بحثا عن مستر هايد، متاهة القرميد الأحمر في كوابيس تشسترتون، لندن بيردسلي ووايلد المنحطة.

مسكن تاديوس شولتو في ويلدون : ((الستائر والأنسجة الملونة، الكثيفة واللامعة التي تغطي الجدران، معقودة هنا وهناك تكشف عن بعض الرسوم المعلقة التي تمثل زهريات شرقية. السجاد الكهرماني والأسود اللون، كان ناعما وسميكا جدا تغوص القدم فيه، كما لو انها تغوص في حشية من الأشنات، جلدا نمر مرميان بانحراف تعززان من مظهر الترف الشرقي، كما تفعل النارجيلة الضخمة الموضوعة على حصيرة في الركن.

مصباح فضي على شكل حمامة معلق بسلك ذهبي يكاد لا يُرى في وسط الصالة، ما ان يُضاء حتى يملأ الهواء برائحة عطرية رقيقة)).

في ضوء مساء تشريني تبدو حديقتي زائفة بافراط.

الاثنين

تحكم شخصية مستر بودسناب في " صديقنا المشترك" لديكنز عالم الوعي الطبقي لكونان دويل. ما هو غريب فهو شر ويجب ان يُرفض، لأنه غير انجليزي. أضحك عندما أقرأ كيف ان نيبول في " لغز الوصول" أرادنا ان نصدق بان الهنود الغربيين في جنوب لندن، في سنوات الخمسينيات، لم يكونوا عرضة للأذى العنصري. أتذكر لقائي أول مرّة مع مدير مدرسة إبنتي في كنت، في اوائل التسعينيات، عندما حيّاني بطريقة مترفعة : ((اذاً انت هو الأجنبي)).

يمسك هولمز السهم المسموم، الذي قتل أخ تاديوس ويمرره الى

واتسون، سائلا : ((هل هذه شوكة انجليزية؟))، ((لا)) يجيب واتسون (وبامكان القارئ ان يستشف سخطه من هذا الاعتقاد)، ((بالتأكيد لا)).

عُرّف نموذج شخصية واتسون بـ ((الجنتلمان الانجليزي البطولي الحقيقي الذي لا نظير له)) كما كتب السير توماس براون حوالي العام ١٩٥٠ في كريستيان مورالس.

ملاحظة : على ما يعتقد السير جورج سيتويل ((ان أول جنتلمان انجليزي)) كان المدعو روبرت ايروسويك أوف ستافورد، الذي صرّح بمكانته الاجتماعية في المحاكمة، التي أتهم فيها ((باقتحام منزل بالقوة، والتسبب بجروح والتحريض على القتل)).

الثلاثاء

تقييم العالم من وجهة النظرالتفضيلية لمدينة لندن : ((للهندي الحقيقي قدم نحيفة وطويلة)) يقول هولمز، ((إصبعا قدمي منتعل الصندل محمدان، كبيرة ومنفصلة بشكل كبير عن الأصابع الاخرى)). ثم يصف طباع سكان جزر الأندمان (في خليج البنغال)، حسب ((نصوص عن مصادر مسؤولة)) نشرت حديثا في المعجم الجغرافي، ((انهم عنيفون، نكدوا المزاج، وأناس عنيدون، مع هذا فهم مؤهلون بأن يكونوا أصدقاء مخلصين لو كسبت ثقتهم مرّة... انهم بشعون بالطبيعة، لهم رؤوس كبيرة شوهاء، وعيون صغيرة ورهيبة، وسحنة مشوهة. أقدامهم وأيديهم، من ناحية ثانية، صغيرة بشكل لافت. عنيدون ورهيبون جدا، بحيث ان كل مساعي البريطانيين الرسميين في كسب ودّهم باءت بالفشل)).

ماركو دنيفي : ((أحدث آدم، مباشرة بعد طرده من الجنة، ظهورا مدهشا بين الحيوانات.

لقد تعرّفوا فيه، فورا، على مخلوق أكثر قوة من أي المخلوقات في البحر أو في السماء أو في الارض. فتراكضت بعض الحيوانات تنحني أمامه، من أجل التخلص من أعباء البحث عن الطعام بأنفسهم، لكن البعض الآخر، الفخورون بحريتهم وتفردهم، فضّلوا النأي بأنفسهم عنه. هؤلاء الأخيرون دعاهم آدم " البهائم المتوحشة ")).

وجهة نظر : بينما كان واتسون مشغولا بالتفكير بالجريمة الغامضة، وينظر وراءه بإتجاه بيت الآنسة مورستان، ليس ما واساه فقط التفكير بالمرأة التي يحب، بل أيضا ((كان له فعل المهدئ)) كما كتب ((أن ألمح، ولو بنظرة سريعة، بيت إنجليزي وسط هذه الأحداث الغامضة والوحشية التي أنهكت أعصابنا)). الصفات رائعة جدا.

الاربعاء

تدهشني السهولة التي تحّول بها رهاب الأجانب البريطاني، في أواخر القرن التاسع عشر، الى شكل مقرف من معاداة السامية في القرن العشرين. وللسهولة التي أدخلت بها الصورة الكاريكاتورية لليهودي في حبكات الروايات البوليسية في عصرها الذهبي : آغاثا كريستي، جون ديكسون كار، دوروثي ال. سايرز، إي. سي. آر. لوراك... يبدو أنه لا زالت في المخيلة البريطانية، حتى بعد هتلر، صورة كاريكاتورية عن اليهودي، يظهر فيها غالبا في موضع توبيخ مع إطراء سخيف، كما في جرائم القتل الأرستقراطية لأنتوني بيركلي. المحقق،في هذه الرواية،

جنتلمان انجليزي، روجر شرنغهام، ومساعدته آن، وهي أخت القتيلة؛ والقاتل (الذي يُكشف عنه في الصفحة الاخيرة، بالطبع) هو رجل دمث، ثري، يهودي مُنَقّى يدعى بليدل. تقول عنه آن، بعد اللقاء به، ((لم ألتق من قبل بيهودي، أعجبت به جدا))، ((اليهودي الحقيقي النقي الدم)) يرد عليها روجر، ((واحد من أفضل الأشخاص في العالم. انهم اليهود الهجينون، الروس، الالمان، البولونيون، هم الذين أذلّوا هذا العرق بصورة سيئة جدا)).

هذه هي انجلترا، في ١٩٤١، عام بعد انشاء أشويتز.

الجمعة

كسرت الريح الليلة الماضية غصنا كبيرا من أحد الأشجار، وهي شجرة تقريبا مجوفة. لم يصب أحد بأذى. تساءل سي. كيف يمكن لشجرة مجوفة ان تبقى حية، وتورق كل سنة.

أرجع الى فكرة التوازن. الشخص الغريب (مثل المجرم) يدمّر التوازن المتفق عليه. يجب ان يُجدد العالم بمفردات محددة من أسود وأبيض. لا يمكن ان يكون هناك لبس في الرواية البوليسية، على الأقل في الرواية البوليسية " الكلاسيكية ". أسطر من براوننغ،

إهتمامنا منصبّ على الجوانب الخطرة من الأشياء
اللص الشريف، القاتل المرهف الاحاسيس
الملحد المؤمن بالخرافات، امرأة سيئة السمعة
تحب وتنقذ روحها في كتب فرنسية جديدة...

ليس لهؤلاء مكان في ملحمة هولمز.

قال غراهام غرين ان العبارة المستشهدة من براوننغ ممكن ان تتصدر، كعبارة مقتبسة، أي كتاب من كتبه. في السلطة والمجد كتب: ((متى ما تخيلت رجلا أو إمرأة بعناية، فسوف ينتابك شعورا بالشفقة... هذا المخلوق الذي يجسد صورة الله... متى ما رأيت الخطوط عند زاوية العين، شكل الفم، المكان الذي ينبت فيه الشعر، كان من المستحيل عليك ان تكره. ما الكراهية الأ قصور في المخيلة)).

كيريكغارد: ((معظم الناس يظنون حقا ان الوصايا المسيحية (مثل أحبب جارك مثلما تحب نفسك) صيغت عن عمد بشئ من الشدّة ـ مثل تقديم عقارب الساعة ثلاثون دقيقة كي نضمن أن لا نستيقظ في الصباح متأخرين)).

السبت

يهطل مطر غزير، يستحيل معه ان ترى نصف الطريق الى الحديقة. عليّ ان أتخيل ماذا يوجد هناك: الجدار الخلفي مع شجرة التين والكرمة، بستان الكرز الصغير (هل يمكن لبستان ان يحتوي على أربع شجيرات فقط ؟)، الصنوبرة الكبيرة المتدلية الأغصان، أشجار البتولا البيضاء الأربع، حيث يطيب للقنفذ ان يختبئ.

يستشهد كونان دويل بغوته مرّة ثانية في نهاية الكتاب (الأسطر من Xenian التي كتبها غوته مع شيللر في ١٧٩٦):

"Schade dass die Natur nur einen Mensch aus dir schuf, / Denn zum würdigen Mann war und zum Schelmen der Stroff".

(من المؤسف ان الطبيعة خلقت منك رجلا واحدا فحسب، / لأنه كان هناك ما يكفي لصنع كلا الطيب والوغد).

تنويع على ثيمة المزدوج : المخبرالسري كمجرم. عديد من الروايات البوليسية تابعت هذه الفكرة الغريبة (منذ رواية "غموض القوس الكبير" لاسرائيل زانغويل في ١٨٩٢).

هذه الكلمات، التي وردت على لسان واتسون، ملائمة بشكل تام لوصف التوازن في طبيعة هولمز المزدوجة (تلك التي لا تختلف كثيرا عن دوريان غراي لوايلد) : ((كانت حركاته رشيقة جدا، مكتومة وماكرة، مثل تلك الكلاب المدربة التي تتعقب رائحة الآثار. لم أملك الاّ ان أفكر؛ أي مجرم رهيب سيكون لو إستخدم طاقته وذكاءه ضد القانون، بدلا من ان يبذلها في الدفاع عنه)).

الاحد

يتزوج واتسون الآنسة مورستان. يقول لهولمز ((الآنسة مورستان أسبغت عليّ شرفاً بقبولها لي زوج المستقبل)) (على هذا أجاب العازب المزمن هولمز : ((لا يمكنني حقا ان اهنئك))). قصة حب واتسون تجعلني دائما لا أحس بالإرتياح، لأني، كطفل، كنت أخجل عندما أشهد شخصين ناضجين يظهران ميولا عاطفية؛ والآن، لأني أرى العلاقة العاطفية غير قابلة للتصديق بكل ما في الكلمة من معنى. ربما هذا هو السبب في حالة التشوش التي تتعلق بحياة واتسون الزوجية في معيار - كونان دويل (هل تزوج واتسون الآنسة مورستان في السر قبل رواية الأحداث في " إشارة الرقم أربعة"، هل إنها ماتت في " مغامرة البيت

الفارغ "، هل تزوج واتسون من جديد في " مغامرة الجندي الشاحب "، واذا كان قد فعل، من كانت مسز واتسون الثانية ؟).

الاثنين

توقف المطر. أتبع الآن، ومنذ عدة أسابيع، روتينا معينا : العمل على كتاب واحد في الصباح، وعلى آخر بعد الظهر ... أصبح الآن الأمر أسهل، لأن الجو بدأ يميل للبرودة.

صوتان أو مزاجان مختلفان : الأول يحاول ان يكون متماسكا يتبع مجرى القص أو الصراع؛ والثاني (هذه اليوميات) مفكك، اعتباطي. الثاني يتيح لي التفكير دون غاية معينة.

يناقض القارئ منهج الكاتب، مهما كان. كقارئ سأتابع بلا مبالاة القصة المحبوكة بعناية، تاركا نفسي أضيع بين تفاصيل وأفكار عشوائية؛ من ناحية أخرى، سأقرأ عملا تفكيكيا (فاليري أو بيو باروخا) كما لو كنت أربط بين نقاط لتكوين شكل معين. مع ذلك، في كلا الأمرين، سأحاول ان أكتشف (أو أتخيل) رابطا بين البداية والنهاية، كما لو أن كل القراءات كانت في صميم طبيعتها دائرية. ربما جويس عرف بالحدس طبيعة القراءة هذه، حينما قرر ان يحبس الفوضى في يقظة فنيغان . تنتهي إشارة الرقم أربعة مثلما بدأت : مع هولمز وهو يحاول الوصول الى قنينة الكوكايين.

كتبت على باب غرفة مكتبتي تنويعا على مقولة رابليه في رهبان ثيليم: (" إقرأ ما شئت "). LYS CE QUE VOUDRA

الفصل السادس

تشرين الثاني

الاثنين

العودة الى كندا.

انا الآن في كالغاري في زيارة قصيرة، لحضور مؤتمر يقام في " بناف سنتر للفنون ".

بدا لي إن المدينة قد توسّعت في الأعوام القليلة الماضية، مبنى إثر مبنى مماثل، في نمو غير قابل للتوقف، بإقتداء رهيب بنموذج الغرب الأوسط الامريكي، مؤلف من ضخامة مكتظة بلا طبيعة مدينية : لا ساحات، لا مدارس، لا كنائس، لا محلات صغيرة. أي نوع من الحوار أو الاتصال يمكن له ان ينشأ في مجموعات مثل هذه ؟

عندما قرأت " صلات مختارة" ـ قبل خمسة وعشرين سنة على الأقل ـ كانت إثر مناقشة مع هكتور بيانشيوتي حول مسرحية ماريفو " الجدال"، الذي كان قد شاهدها بإخراج لافيلي، والتي فاتتني رؤيتها حينها لأني لم أكن املك ثمن البطاقة. مثل الأعمال الأخرى لماريفو، تستكشف الجدال طبيعة الحب : شخصيتان أرستقراطيتان يبحثان عن عن حل لمسألة من هو المرجع للخيانة، الرجل أم المرأة، ومن أجل التوصل الى إجابة فانهما يضعان أربعة أطفال لينموا في مكان منعزل، ويعنى

كل واحد منهما بأثنين من " البدائيين ". ولا يُسمح لهؤلاء الاطفال أن يلتقوا ببعض الا حين يبلغون سن المراهقة، عندئذ سيراقب الارستقراطيان سلوكهم ويدرسانه من مسافة علمية.

أحبَّ هكتور من المسرحية، أكثر من أي شئ آخر، المشهد الأخيرمنها، عندما تنتهي التجربة، والارستقراطيان يتهيئان للعبور الى الجزيرة التي أُحتجز فيها الاطفال، لكنهما فجأة يتوقفان عند حافة الجسر، وفي هذه اللحظة يُسدل الستار. بحسب هكتور، ان الشخصية الأرستقراطية الحقة مجسدة في هذا التردد : أنْ تراقب لا أنْ تجرب بنفسك. (في وقت أبكر من هذا، كان قد لاحظ نفس هذا التردد في فلم " الوسيط"، عن رواية هارتلي، عندما ترفض الأم الرئيسة ان تذهب وترى بنفسها الخيانة الزوجية التي ترتكبها ابنتها).

قرأت في مكان ما بأن الملك فردريك الثاني حاول ان ينفذ تجربة مشابهة، لكن لا عن طبيعة الحب وانما عن طبيعة اللغة. ولكي يكشف عما كانت عليه لغتنا " الأصلية "، فقد أمر أن تقوم مرضعات بالعناية بعدد من الاطفال حديثي الولادة، ويُمنع عليهن التكلم اليهم؛ بهذه الطريقة تخيل بانه يمكن ان يسمع أول كلمة " طبيعية " تُنطق دون أن تكون مُلقنة.

فشلت التجربة لأنه لم يبق أي من الاطفال على قيد الحياة. من الواضح اننا نحتاج الى لغة مثلما نحتاج الى طعام كي نبقى أحياء.

اذا كانت تجربة ما محكوم عليها بالاخفاق، فإن هذا لا يعني ـ بالطبع ـ انها غير مجدية.

في Werther يلاحظ غوته بفكاهة ((لو كانت الثقة المتبادلة، قبل

هذا، قرّبت بينهما من في جديد، لو كان الحب والتفاهم ساعداهما على فتح قلبيهما لبعض، ربما كان لا يزال هناك أمل بإنقاذ صديقنا)). الأمر ليس على هذا المنوال، كما تبرهن " صلات مختارة"، لأن الفشل المحتوم موجود في طبيعة الشخصيات، وفي هذا الفشل يكمن نجاح الرواية.

الثلاثاء

في" صلات مختارة" شئ من حبكة المسلسلات، تتمركز حول الشخصيات الأربع: الكهلان ادوارد وشارلوت، اللذان تحابا في شبابهما، لكنهما إفترقا، ثم في النهاية تزوجا بعد وفاة والديهما؛ واوتيليو والكابتن، ضيفاهما الدائمين، واللذان وقعا بالحب على التوالي.

((هناك أشياء معينة)) تقول شارلوت في نهاية الكتاب ((ينويها القدر بعناد. ومن العبث أن تدافع الحكمة والفضيلة والواجب وكل شئ مقدس، عن نفسها ضده؛ أشياء تحدث وتبدو ملائمة للقدر وليس لنا، وهكذا يفرض القدر نفسه علينا، مهما كانت خياراتنا)). بعدئذ تدرك شارلوت الحقيقة، التي تبدو مثل إتهام: ((لكن ما هذا الذي أقوله! في الواقع، يحاول القدر ان يحقق امانيّ ومقاصدي، انا التي عن طيش، تصرفت على الضد منه)).

انا مندهش ومفتون بهذا الإدراك. تحاول شارلوت ان تبرهن بان القدر يعرف مقاصدها الخاصة أفضل منها هي نفسها. ما هذا القدر الذي هو أكثر حكمة من أبطال الروايات؟ إنه ليس نفس القدر (في هيئة الموت) في قصة كوكتو " الفارق الكبير"، الذي يكون عاجزا مثله مثل ضحاياه عن معرفة ما يخبئه المستقبل :

قال البستاني الشاب لأميره : ((انقذني ايها الأمير! فقد إلتقيت الموت في الحديقة هذا الصباح فرأيت نظرات تهديد في عينيه. أتمنى، بمعجزة، ان أكون الليلة بعيدا، في أصفهان)).

أعاره الأمير حصانا، من أكثر خيوله سرعة.

وفي الظهيرة، وهو سائر في الحديقة، إلتقى الأمير وجها لوجه مع الموت. ((لماذا))

سأله الأمير ((لماذا رمقت البستاني بنظرة تهديد، هذا الصباح ؟))

((انها لم تكن نظرة تهديد)) أجاب الموت ((كانت نظرة مفاجأة. لقد رأيته هذا الصباح وهو بعيد عن أصفهان، فقررت انه يجب ان يكون في أصفهان هذه الليلة)).

ادوارد وشارلوت هما البستانيان الارستقراطيان في " صلات مختارة"، لا يفزعان أبدا من اللقاءات المفاجئة مع القدر (حتى لو وصلا أحيانا متأخرين، كما فعلت شارلوت). انهما بالكاد يتبعان الحبكة : القدر كقصة.

من أين جاءت هذه الفكرة ؟ ليس من " موطن الخيال "* الإغريقي، كما جعله واضحا بول فيين في كتابه المليء بالحب حول ما دعاه " الخيال التكويني "، هل يؤمن الاغريق بأساطيرهم ؟ تنتمي الفكرة الى الأدب، أو بالأحرى لقراءة الأدب، عندما يقبل القارئ ما يقرأه كخيال، ومع هذا فانه " يرجئ عدم التصديق عن طيب خاطر " إكراما للقصة؛ وهذا ما نعنيه بحتمية الحبكة. كل ما يحدث هو بين الشخصيات والقارئ، والمؤلف يكون مغيبا، أو (في حالة غوته) هو مجرد عريف حفل مهمته أن يقدّم شخصياته، لا أن يبدي رأيا في سلوكها.

* - (imaginaire) بالفرنسية في الأصل .

يقـول الفـتى سـتـيـفن ديدالوس، عـن هذا ، في " صـورة الفنان في شبابه" لجويس : شخصية الفنان، هي في البداية صراخ أو ايقاع أو مزاج ومن ثم حكاية سلسـة وبرّاقـة، وفي النهـاية منقّـاة من الوجـود ، تجـرّد نفسها ، ان جاز التعبير... الفنان،مثل رب المخلوقات، يتوارى، في أو خلف أو وراء أو فوق منجزه اليدوي، لا مرئيا ، منقّى من الوجود ، يقلّم، غير مبال، أظافره.

اليـوم، ونحن نلعب مع ما وراء النص في ملعب ما بعد الحداثة، نتوهم انه بإمكاننا أن نحرف مجرى القصة نحو عدد من طرق نهائية، نحن نشبه ادوارد وشارلوت واوتيلي والكابتن؛ نختار إمكانيات، كان القدر (مثل أب متسلط) قد اختارها لنا مسبقا.

أتذكر ناثان هاوثورن، الذي يدوّن فكرة قصة على عجل في واحد من دفاتر ملاحظاته المذهلة :

شخص بصدد كتابة قصة، وجد انها تتشكل خلافا لمقاصده : ان الشخصيات تتصرف بشكل مغاير لما فكر به : تحدث أشياء غير متوقعة؛ وتحلّ كارثة، يجاهد عبثا في تفاديها. ربما انه تعقبٌ مسبق لقدره الخاص، حيث جعل من نفسه واحدا من الشخصيات.

الأربعاء

المظهر الأوربي لفندق باليسير في كالغاري، يبدو في غير محله في هذا المحيط الغرب الاوسطي، يبدو كأنه خارج من كتاب لهنري جيمس. أجلس في باحة الفندق، على كرسي منجّد بالقطيفة بمسندين وسط نخلات مزروعة في أواني كبيرة، أنتظر سيارة تقلني الى " بانف"، مراقبا الشخصيات وهي تدخل وتخرج من قصة.

لم ينشغل غوته بالبناء المعماري في رواياته. ورغم اني كتبت انه لا يبدي رأيا في سلوك شخصياته، فان هذا التجرّد لا يعني البرود ؛ فالمرء يحس بالهوى المشبوب خلف هذه الواجهة المموهة، شئ يتمزق بين العاطفة والواجب والإحساس المطلق بالعجز. عندما كان ادوارد وشارلوت والكابتن يتناقشون حول الصلات المختارة في الكيمياء ويقارنونها بالعلاقات البشرية، فان المرء يعرف بان الكلمات المنتقاة بعناية، التي تشبه تلك الكلمات المتبادلة بين هوبس ونيوتن في حواراتهم الفلسفية التي كانوا يعتزون بها، تفضح الاضطراب الذي كانوا يخفونه، والعري الذي هو (كما أود ان أقول) خاص بغوته نفسه. ولعي بهذا الرجل العجوز سببه، كما أعتقد، ذلك المزيج الهش من القوة والضعف. ثمة لحظات يدفعني فيها نثره النقي، ذو الهيكل المميز الى البكاء، بسبب الكآبة التي تخيم عليه.

مثل أثيره ديديرو، ينشر غوته دائما أدوات عمله امام أعين القارئ المتفحصة.

هناك ثقة مروعة بالنفس في هذا، مثل ساحر يغري الجمهور برؤية ما بداخل حقيبة حيله.

اذا ما كان لادوارد مأخذا على مؤلف كتاب يقرأه، فأنه ينعت الرجل بأنه ((نرجسي حقيقي : فهو يبصر، بمتعة، صورته الخاصة في كل مكان، ويرى العالم كله منعكسا في صورته الخاصة)). هذه "الصورة المنعكسة " هي ـ بالطبع – شخص غوته، أو بالأحرى شخصياته.

يشرح الكاتب الكولومبي فرناندو باييخو لماذا لا يود ان يخمّن أفكار شخصياته : ((لأني روائي صيغة المتكلم)).

المناظر الطبيعية المادية في رواية غوته تغدو مناظرا طبيعية لعواطف شخصياته ؛ انهم يحاولون ان يدّجنوا الطبيعة بقدر ما يحاولون وضع صلاتهم على خريطة واقعية.

(خارطة حب)، يُنظر الى الطبيعة كنوع من cart de Tendre، خريطة القرن السابع عشر المجازية، التي تحدد آثار الطريق نحو قلب المحبوب. من السهل إدراك ان حديقة شارلوت، على سبيل المثال، هي رمز واضح لتجربتهم في عالم البشر (القبعة التي تلائم اثنين، أو ثلاثة،أو، كما تضيف شارلوت بحماسة ((حتى رابع)) الى آخره)، مع هذا فانها تنسجم مع اللهجة المتكلفة لحوارهم، متكلفة على الأقل لأذني الاجنبية. ثمة شيء من الحكمة الجامعة في إسلوب كلامهم (تنهي شارلوت الفصل بعبارة ((ومع ذلك وفي عدة حالات...

انه ألطف، وأكثر نفعا، كتابة أشياء غير مهمة، من عدم الكتابة مطلقا)))، كم تكون اللهجة مختلفة، في صفحات متقدمة من الكتاب، عندما تكون الطبيعة الحتمية للحاضر موصوفة، وصوت آخر، وبديهة أو تجربة، ليست مجرد محاكاة لحِكمْ ليشتنبرغ أو كتاب الأمثال، صوت يصرخ ((مع ذلك فان الحاضر سوف لن يُحرم من حقوقه الرهيبة. لقد قضوا جزءاً من الليل بأحاديث مسلية، كانت الأكثر صراحة، لأنها للأسف لم تكن نابعة من القلب)).

هذه الكلمات قيلت عن فهم خاص وعميق للحظة مثل هذه، نحن جميعا نعرفها.

سئل لورنس اولفييه مرّة، كيف نجح في إطلاق صرخة الألم الحادة، التي أصبحت الآن شهيرة، في أوديب، ((لقد سمعت عن الطريقة التي

يمسك بها سكان القطب الشمالي، حيوان الفقمة)) أجاب، ((حيث يضعون الملح على الأرض فتأتي الفقمة للحسه، عندها يتجمد لسانها ويلتصق بالجليد. لقد فكرت بهذا عندما صرخت في أوديب)). قدرة فائقة في إمساك لحظة الحقيقة.

((هذه التماثلات)) تقول شارلوت، ((مؤثرة ومسلية، ومَنْ لا يفرح باللعب مع مثل هذه التشابهات ؟)).

الخميس

قرأت هذا الصباح في صحيفة كالغاري بأن الحكومة الإقليمية تعتزم، مرّة ثانية، قطع كل أنواع البرامج الإجتماعية، بما فيها المساعدات التي تقدم الى الناس المعاقين. رجل أعمى، تعاني زوجته من تصلّب الأنسجة المتعدد ولاتستطيع العمل، قد أ نذر بايقاف الإعانات الحكومية عنه، لأنه يعمل في وظيفة بدوام جزئي. النقود التي يتسلمها من إعانة المعوقين تبلغ ٨٠٠ دولارا كنديا في الشهر؛ لا أحد بإمكانه العيش بمثل هذا المبلغ، إذا كان عليه دفع أجرة السكن و شراء الطعام. الاحصاءات حول فقر الاطفال في ألبرتا مذهلة، خصوصا في واحدة من أغنى المقاطعات في واحد من أغنى البلدان في العالم. في عام ١٩٩٦، على سبيل المثال، كان عدد الاطفال الذين يعيشون تحت خط الفقر ١٤٨٠٠٠.

ماذا فعلت، أنا نفسي، حول أي من هذه الأمور ؟

أشعر بنفسي مثل متلر، الشخصية الخامسة في صلات مختارة، الغريب الذي، من جهة، لا يريد ((أن يبدد وقته في البقاء في المنزل،

حيث لا شيء يستوجب المساعدة ولا نزاع يستوجب الحل))، ومن جهة اخرى، يرفض، بعجرفة، مساعدة أصدقائه المقربين. انه يبدو لي، حتى بالرغم من فشله، جديرا بإسم متلر (الاسم يعني " الوسيط "). ((هؤلاء الذين يؤمنون بالخرافات حول معاني الأسماء)) كما يقال، ((يؤكدون بان إسم متلر يضطرّه ان يضطلع بالمهام الأكثر غرابة)). لو ان الأمر على هذا النحو، كان إسمي ربما سيعكس عددا لا يحصى من Mangel (نقائص بالألمانية) لو كان Mangelhaftigkeit (نقص) لكان ذلك قدري.

(" نقص "). الإتيمولوجيا* الانجليزية تبدو ألطف، فانها تربط اسمي مع " وسط " أو" شخص وسط عدة أشخاص "، بمعنى آخر، واحد من " القرّاء العاديين " لدكتور جونسون.

السبت

العودة الى بيتي في فرنسا. كل مرّة أعود فيها، أدهش، بعد رؤيتي لكل تلك المروج السماوية التي لا حدود لها، أن أرى ضيق السماوات في مدن اوربا.

يبدو ان غوته دائما يفكر؛ في أي مكان من كتاباته، بأنه ليس هناك أبدا مجرّد قصّ، بل هناك دائما فكرة واعية ومتساوقة، تنفذ الى كل مجال مثل رائحة البصل المشوي.

أستمتع بكلية الوجود هذه : لا تستطيع شخصية أن تقوم بأقل حركة دون أن يكون لها إنعكاس، بعد ان تلتقطها العين الكلية الرؤية لهذا الإله الصغير. غوته الكلي المعرفة؛ يذكرني هذا باللافتة المكتوبة

* - دراسة تعنى بأصل الكلمات وتاريخها (المورد) .

بخط اليد والمعلقة على باب غرفة نوم واحد من زملائي في المدرسة، عندما كنا في الثامنة أو التاسعة من العمر، في بوينس آيرس :

تذكر ان الله يراقبك

تذكر انه يراقب ؛ ثم ،

تذكر انك ستموت ،

وتذكر ، انك لا تعرف متى

كلا المراقِب والمراقَب حاضران في المشهد القصير (والتأمل الفكري)، الذي فيه يقرأ ادوارد بصوت عال، ويتضايق من شارلوت لأنها تقرأ معه من فوق كتفه. ((اذا كنت أقرأ لشخص، أليس الأمر نفسه كما لو اني أشرح له شيئا ما شفاهيا ؟ الكلمات المكتوبة أو المطبوعة تحل محل خواطري ومداركي الخاصة، هل تعتقد بأني سأتجشم كل هذا العناء للتحدث بشكل مفهوم لو كان هناك نافذة في جبهتي أو صدري، يمكن للشخص، الذي أتمنى أن يشاركني أفكاري ومشاعري واحدة بعد الاخرى، أن يعرف من خلالها مقدما ما أشير اليه ؟ عندما يقرأ أحد ما من فوق كتفي، أشعر دائما كما لو أني تجزأت الى اثنين)).

هنا يتكلم قارئ حقيقي، واع بإصول القراءة وحريص على على فضائه القرائي، الذي يجب أن يكون واحد من ثلاثة : إما مكان خصوصي بشكل تام، هادئ ويسوده الصمت؛ وإما مشترك، وصامت أيضا، مثل قراءة دانتي في " باولو وفرانتشيسكا " التي تلتقي فيها عيونهما ومن ثم شفاههما عبر الصفحة؛ وإما مشترك تتم فيه القراءة بصوت عال، عندما تكون ملكية الصفحة للقارئ حصراً، ولا تكون

للمستمع أبدا. الإزدواجية التي يشعر بها ادوارد ـ " التجزؤ الى اثنين " ـ هي لصيغتين متزامنتين للقراءة تناقض احداهما الاخرى.

تكتب اوتيلي في يومياتها ((كل كلمة ملفوظة تحدث عكسها)).

تثار هنا كذلك، مسألة كيف تُؤدَى الرواية. فعل القص يجب ان يكون ضمن الوقت المخصص لروايته، والقارئ- الشريك (في هذه الحالة المستمع- الشريك) يجب أن لا يقفز الى خاتمة النص، لأن هذا سيقصّر، إنْ جاز التعبير، من عمر القصة (هذه الخاتمة هي الصفحة الاخيرة المحرّمة من كتاب السحر في الحكاية الخرافية...).

منتصف الليل

في التركية تعني كلمة Muhabbet كلا المعنيين " محادثة" و"حب"، فانت تقول للاثنين to do muhabbet تعجبني فكرة حديث يكون نافذة في قلب المرء او عقله.

الاحد

طالعت ترجمتين لـ " صلات مختارة" في الانجليزية : واحدة لديفيد كارادين، صادرة عن أوكسفورد يونيفرستي برس ؛ والاخرى لجوديث رايان، عن برنستون. ولا أي منهما se laissent lire تُرضي بشكل كامل، لكن كلاهما، كما يقول الفرنسيون.

يعتقد غوته في واحدة من رسائله العديدة الى فيلهلم همبولت، بان اللغة القومية تعكس شخصية الشعب، وان الكتّاب الانجليز يشتركون مع الالمان بنفس طرق التفكير ونفس الآراء حول ما هو نفيس. وهذا

سيفسر لماذا يُعد شكسبير جزءً من التراث الالماني؛ ولا يفسر لماذا لم يصبح غوته Gouty (باستخدام النعت أبدا جزءاً من التراث الانجليزي. بشكل وبآخر لم يكن لـ القليل الإحترام الذي أطلقه عليه جويس) مسكنا في شريعة القراءة الانجليزية في تجسّداته المتتالية. وعلى الرغم من أن أول سيرة ذاتية كاملة لغوته، في أي لغة، كتبت بقلم الكاتب المتعدد المواهب جورج هنري ليوس في ١٨٥٥، وبالرغم من تأثيره على كتّاب مثل شريك ليوس، جورج أليوت (أتذكر نهاية طاحونة على النهر التي تشبه نهاية صلات مختارة)، فانه لم يحظ الا بقرّاء قليلين من الانجليز.

عندما نشأت في بوينس آيرس في اواخر الخمسينيات وبداية الستينيات، كان كثير من اصدقائي من عوائل ألمانية يهودية. كان غوته وشيللر من المصادر التقليدية للثقافة الالمانية القديمة والشمولية. وقد جلبهما المهاجرون معهم في حقائبهم الكرتونية وصررهم المعقودة.

في ألمانيا، فقد شيللر (وغوته) منذ عهد بعيد لهجته المحلية الرهيبة؛ في الدياسبورا، اكتسب غوته "وسيللر" نبرة وفكاهة سكان شتيتل*. ففي ما اندلع نقاش بين آباء اصدقائي الالمان فان الشخص الذي يخسر في الجدال سيصرخ "Oaza nar' sagt Goethe" "آه، أي غبي، يقول غوته" فيرد عليه الآخر بعبارة "Nebisch' sagt Schiller"

مغفل "يقول شيللر"، وتنتهي المعركة بضحكات مصالحة.

ربما يعود وجود هذه الثغرة في عالم المتحدثين بالانجليزية الى أن غوته كان يجب ان يُستوعَب حضاريا : لا يلامس المرء بإصبع قدمه بحر كتاباته، بكتاب بعد آخر، بل يغوص عميقا في تأثيره الهائل، في مداه الأوقيانوسي، في تلاطم أمواجه، في آفاقه البعيدة المدى .

* - اسم يطلق على أية قرية أو مدينة يهودية صغيرة في شرق أوربا (اكسفورد) .

((سأغوِّتكم كثيرا))، هذا ما قاله لنا مدرسنا في اليوم الأول من الدراسة في بيستالوزي شول (المدرسة الألمانية في بوينس آيرس، التي درست فيها سنة واحدة)، وجعلنا نحفظ عن ظهر قلب Ginkgo Biloba و Es war ein König in Thule و Erlkönig

رأى نيتشه، الذي هو شحيح في الإطراء، ان غوته، ككاتب متفرد، فوق القوميات والآداب القومية. ((غوته)) كتب في بشرانساني،" اكثر من أنساني"، ((ليس فقط انسانا طيبا وعظيما، بل هو حضارة في حد ذاته)). اذا كان الأمر على هذا النحو، فان صلات مختارة، التي كتبها في السنين الاخيرة من حياته، تُعد نوعاً من كتيب وجيز في آداب المعاشرة في حضارة غوته.

ملاحظة : أراد غوته ان يهدي ابنه أوغست لعبة على شكل مقصلة في عيد ميلاده الثاني عشر. أم أوغست، كريستيان، إنتابها الغضب.

مساءً

الصيغ الرياضية – المزيفة لإيجاز السلوك البشري التي وضعها غوته على لسان ادوارد "انتبه يا صديقي لـD، ماذا سيفعل B عندما يؤخذ منه C؟ سيرجع الى رفيقة A، ألغاه وأوميغاه". تتردد في الاختبارات التي تنشرها الآن مجلات الموضة. هل أنت عاشق جيد ؟ هل أنت مواطن صالح ؟ هل أنت شخص سعيد ؟ ضع علامة على الجواب الصحيح وستجد الصيغة المناسبة لك.

هذه هي أشكال السلوى التي تتيح لنا التهيؤ، كما أفترض، بأن حياتنا ليست ملتبسة.

الاثنين

شارلوت، المهندسة المعمارية التي تشرف على بناء مكتبتنا، تخطط لبناء حوض سباحة عام جديد في القرية المجاورة. يجب ان يكون عمليا، بالطبع، وكبيرا بما يكفي لإستيعاب الحشود المتوقعة كل صيف، لكنه سيكون، ايضا، رمزا لطموحات العمدة، شيء ((كبيروعصري، بالاضافة الى أنه أنيقاً ونظيفاً)). عقبت قائلا ان كل المعماريين رمزيين.

((لسوء الحظ)) أجابت.

بلغت في الرواية اللحظة التي يكون فيها ادوارد والكابتن منشغلين بالتمدن، يناقشان فكرة بناء قرية، لا تتبع الإسلوب السويسري في العمارة، لكن فقط الإسلوب السويسري في " الأناقة والنظافة ". في هذه الأثناء تقدم منهما متسول يسأل صدقة. صرفه ادوارد بغضب لأنه قاطعهما. انسحب الرجل ((بخطوات قصيرة)) مدافعا عن ((حق المتسولين))، ((الذين يمكن ان يُرفضوا ولا يُمنحون صدقة، لكنهم لا يجب أن يُهانوا، لأنهم، مثلهم مثل الآخرين، محميون من الله ومن الملك)).

الحل الذي إقترحه الكابتن لمشكلة التسول ـ تنظيم منح الصدقات بإيداع مبلغ من المال عند زوج من الكهول، يمنحان المتسول الصدقة عند الخروج (لا الدخول) من القرية ـ يخطرهذا في بالي ثانية عندما أفكر في المدن التي عشت فيها : كالغاري، تورنتو، بوينس آيرس، باريس، لندن. هذا الحل هو إسلوب، مثل الصيغة الرياضية التي تُستنبط لإزاحة العواطف جانبا، طريقة بعدم التسليم بإنسانية هؤلاء الذين يعانون من الفاقة.

يجب أن أتذكر : ان الذي يتكلم هو الكابتن، وليس غوته.

مرّة وأنا جالس أقرأ في مترو باريس، كان هناك شحاذ يتلو ابتهاله المعهود بـ " مدام ايه مسيو، أعتذر لإزعاجكم، الخ، الخ "، وهو يتنقل بين العربات، فجأة رمى الجرائد التي ينام عليها والتي تؤكد تسوله، وصاح بنا ((انظروا اليّ ! كل ما أريده منكم أن تنظروا اليّ ! أنا كائن بشري أيضا. إكراما لله ! انظروا اليّ ايها السفلة، تحت معاطفكم الثقيلة كلكم مثلي !)).

يعتقد ادوارد وشارلوت واوتيلي والكابتن ان تصوراتهم حول الحب تضعهم خارج الدائرة العادية للمجتمع، كما هو الأمر تماما معنا نحن، القرّاء، حيث نكون ملزمين بقناعاتنا الخاصة، ونشعر اننا خارج واقع الرواية.

في كتاب لينز Der Waldruder الفردة الاخرى لكتاب Werther تبنى الشخصية على أساس كتابات غوته، "ل هذا يتباين بشكل مروع مع اسلوبنا في الحب".

الثلاثاء

حملت إلينا ساعية البريد الأخبار اليومية للاشاعات : أحدهم يرحل، وآخر يتزوج، البيت الذي يقع في ركن القرية سيؤجر لمرضة من المستشفى المحلي.

غوته : ((يبدو ان كل شئ يأخذ سبيله المعهود. حتى في أكثر الظروف فظاعة، عندما يكون كل شئ مهددا، يواصل الناس العيش كما لو أنه لم يحدث شيئا ذا أهمية)). هذا الخضوع يثير الدهشة دائما.

لاحظ أودن، في قصيدته عن لوحة سقوط ايكاروس في البحر للرسام بروخل، ان " سادة الفن القدماء " لم يكونوا أبدا على خطأ حول المعاناة. ((كيف يحدث هذا / بينما أحد آخر يأكل أو يفتح نافذة أو يتمشى بكسل فحسب)). أتذكر كيف كانت الحياة تجري في الارجنتين، بهذا الشكل أيضا، أثناء الحكم الدكتاتوري العسكري، كيف يواصل الناس حياتهم اليومية، بينما جارهم مختطف أو تحت التعذيب، أو تم وضعه في طائرة ورُمي مقيدا في النهر ـ يواصلون القيام بالتسوّق، بزياراتهم الاجتماعية، تذمرهم من ارتفاع الاسعار وحال المناخ ـ واذا ما حدث وسمعوا أخبارا، من وقت الى آخر، عن إختفاء غامض، أو إعتقال تم في وقت متأخر من الليل، فهم، نصف مصدقين، يتعذرون قائلين بانه ربما كان هذا الجار مسافرا لقضاء عطلة، أو ربما هو متورط بنشاطات إجرامية، أو ربما انتقل الى مسكن جديد، وكل شئ فيما يبدو عاديا، لا شيء يقاطع روتينهم اليومي، وحتى لو، كما يقول أودن، ((حدث وأن رأوا شيئا / شيئا مذهلا، فتى يسقط من السماء / فان عليهم الوصول الى مكان ما والمضي قدما بهدوء)).

يقول غوته ما يلي عن حب ادوارد لاوتيلي : ((خضع، بسرّية، وأسلم نفسه لمشاعر الهوى)). من نواحي معينة، هذا هو المرادف العاطفي لتلك السلبية السياسية : إستغراق متنكر كهوى.

الجمعة

بامكاني أن اؤلف يوميات مكتوبة، بشكل خاص، من قطع من يوميات أخرى.

سيعكس هذا عادتي في بالتفكير بالاقتباسات.

السبت

من يوميات اوتيلي :

* ((حياة بلا حب، بلا حضور مادي للشخص الذي تحبه، هي لا شئ سوى، مهزلة مبتذلة)). ثم تكتب لاحقا: " كياسة القلب" comédie à tiroir مفهوم رائع، وحقيقي جدا، ويمكن التعرف عليه في الحال. يدعو شاتوبريان هذا، بالعاطفة التي لا يُعد فيها الحب نشوة، ولم يصبح بعد "صداقة عميقة ".

* ((لا أحد يهيم تحت أشجار النخيل بلا عقاب، والطريقة التي يتصرف بها المرء ستتحول، بلا ريب، الى مكان تقيم فيه النمور والفيلة بيت لها)).

أو بالعكس، بالطبع. هذا المقطع المقتبس كثيرا، هو بالنسبة لي، أنا الهائم، فيه كثير من السخرية، بما أنني كنت تحت أشجار النخيل (عندما كنت أعمل في دار للنشر في تاهيتي في سنوات السبعينيات)، عندما قررت أن أكون صادقا مع نفسي وأن أقبل أن يكون عملي في الحياة هو قارئ - كاتب.

كل مقام مؤقت " تحت أشجار النخيل " هو منفى. أوفيد يتفجع على نفسه لأنه في بلد غريب ؛ كورتازار يبتهج برحيله عن الارجنتين الى باريس.

وفي كلا الحالين فإن المخيلة تُغذى بالجدّة وبالتباين.

* ((يتوهم المرء دائما انه بصير. أنا أعتقد اننا نحلم لمجرد ان نمنع أنفسنا عن الكف عن الرؤية)). هذا الوصف الدقيق للوعي البشري، ليقظته الرهيبة شديدة الإنتباه، يمنح لعموم الرواية رثاءها : الشخصيات

الأربع، والمؤلف، وللتوسع القارئ، واعون باستمرار لأفعالهم، ويراقبون أنفسهم كيف يندفعون قدما نحو نهايتهم، دون القدرة على خداع أنفسهم أو غض ابصارهم.

الاثنين

يبدو لي ان الكتب المكوّمة بجانب سريري تقرأ نفسها لي بصوت عال أثناء نومي. قبل ان أطفئ الضوء أتصفح واحد منها، أقرأ مقطعا أو مقطعين، أضعه جانبا ثم أتناول واحد آخر.

بعد عدة أيام يكون لدي إنطباع بأني أعرفها كلها.

من الكتب التي بجانب سريري الليلة :

* واين جونستون، مستعمرة الأحلام المنسية
* أنريكه بيلا- ماتاس، Bartleby y compania
* أيليري كوين، الجثث الخفية
* ايان ماك-ايوان، حب دائم
* ستيفان جورج، Der siebente Ring
* دبليو. جي. شيبالد، Luftkrieg und Literatur
* رين موراكامي، أزرق شفاف تقريبا
* دوروثي ال. سايرز وجيل باتون، عروش مهيمنة
* جاك لوغوف، ولادة المطهر
* ماكس روكيت، هؤلاء رعاة النجوم

كل واحد من هذه الكتب أثرَ بشكل مزاجي في قراءتي للكتاب الذي يليه. هل القراءات كلها ترابطية ؟

رجعت مرّة ثانية الى الصفحات النهائية في صلات مختارة. آخر مرّة قرأتها فيها كانت في كالغاري، أتذكر ان الثلج تساقط بشكل غزير وبإصرار على الشارع والأشجار في الخارج، حاجبا كل مساحة ملونة ومغطيا كل نقص. كان هناك، بالطبع، غوته أيضا. في واحدة من مجموعة حكَمه كتب : ((الثلج نظافة وهمية)). فعلا.

عندما كنت أعيش في كالغاري، كتبت الصحف عن رجل من السكان المحليين وُجد متجمدا حتى الموت على دكّة في وسط المدينة ؛ سببَ الكحول انخفاض درجة الحرارة في دمه وهو راقد هناك، لم يسقط الثلج بسرعة كافية كي يغطيه ويخفيه عن أنظار الناس. كل واحد منا يفترض أن يفعل ما يفعله، يقوم بدوره. وأي دور سيكون هذا ؟

الخميس

فوجئ سي.، المتعوّد على أحكام المناخ الكندي، بإمكانية زراعة زهور في حديقتنا في مثل هذا الوقت المتأخر من تشرين الثاني. لقد زرع لتوّه شتلات من زهور ماريا كالاس، وهي هدية من جارنا. تبدو قطعة الأرض الصغيرة التي تعلوها قطعة من الكرتون، مكتوب عليها بخط يد جارنا أسم الزهور، مثل قبر صغير للمغنية. من قصيدة لستيفان جورج : (" تعلمْ الآن الحزن / والوقار من الازهار"). ((Nun lerne Trauer / und Ernst von Rosen.))

هل هذا ما تتهكم منه، وبمفارقة تاريخية، صلات مختارة ؟ هل يمكن قراءة هذا البيت كتمجيد ساخر لفن البستنة، الفن الذي إزدهر في القرن الثامن عشر، وانتهى الى علم بيئة مُدَمر ـ يمكن للمرء حتى من

تسميته مفهوم شوفيني للطبيعة ـ وتبلور، بعد قرن ونصف تقريبا، في إهتمام هتلر الى " نموذج الطبيعة " ؟ ((يجب أن نترك مساحات للمراعي))

كما يشرح هتلر لمارتن بورمان على مائدة العشاء، في أيلول ١٩٤١، ((لقد انشأت الطبيعة مناطق متنوعة من الأراضي بمثل هذه الطريقة كي تضمن نوعا من الإكتفاء الذاتي لكل منها)). الأرض، بالنسبة للاعبي لعبة الصلات المختارة، هي إطار لطموحاتهم الخاصة ؛ كل واحد منهم مثل آدم صغير، مؤتمن على جنة عدن، وبإمكانهم الحكم على كل منطقة صغيرة من الأرض وفقا لذلك، ومع هذا يكونون هم أنفسهم عميانا عن حكم خالقهم. انهم مشغولون بزراعة ازهارهم، وبإعادة تصميم حدائقهم وتشذيب أشجارهم، لكنهم يهملون حياتهم الخاصة.

السبت

لا تقع خاتمة " صلات مختارة"، بالنسبة لي، في الصفحة الأخيرة من الكتاب، بل في سرير موت جوزيف روث، في باريس، ٢٢ آيار ١٩٣٩. يسمع روث، وهو مشوّش ومنهك قصصا هامسة حول الجرائم التي تحدث في معسكر الإعتقال بوشنوالد، فتتوارد الى ذهنه صورة : هناك، في المكان الذي كان يُدعى يوما أترسبورغ، شجرة سنديان غوته، حيث كان الأستاذ يلتقي، تحت ظلّها الرحب، محبوبته فراو فون ستاين. الآن، يخيم نفس ذاك الظل على مغسل ومطبخ المبنى الحديث لمعسكر الإعتقال، لا زالت السنديانة واقفة محمية بما يُدعى " قانون حماية البيئة

" للرايخ الثـالث. وبأنفاسه الاخيرة، ينبس روث بهذه الكلمات المفعمة بالغضب والسخرية :

كل يوم، يمشي نزلاء معسكر الاعتقال يجانب وحول شجرة السنديان، أو بمعنى آخر، يُجبرون على فعل ذلك. نعم، كانت تُنشر معلومات مضللة حول بونشوالد، يمكنك القول قصص مهولة. يبدو لي ان الوقت قد حان لوضع الأمور في وجهتها الصحيحة. حتى الآن لم يُعَلق أي من نزلاء معسكر الاعتقال على شجرة السنديان، التي جلس تحتها غوته وفراو فون ستاين، والتي لا زالت قائمة، بفضل " قانون حماية البيئة ". بالتأكيد لا ؛ فهم عُلّقوا على أشجار سنديان أخرى، حيث لا تفتقر الغابة الى أعداد منها (an denen es in diesem Wald nicht mangelt)

(انتبهت فجأة الى أن إسمي ـ أنا القارئ المستقبلي وسط عدد لا يحصى من القرّاء ـ قد ضُمّن، بفضل مصادفة إيتمولوجية محظوظة، في آخر كلمة كتبها جوزيف روث).

بهذه الرؤيا ، بهذه الدعابة، بهذه الملاحظة المحطمة للقلب، مات جوزيف روث.

الفصل السابع

كانون الأول

الاحد

البيت الذي إشتريناه قبل سنتين، بيت رائع، ساحر. ينتصب على تلة صغيرة كان عليها، يوما، معبد ديونيسوس، وأُستبدل فيما بعد بكنيسة مكرسة لسانت مارتن. يعود تاريخ هذه الكنيسة، التي نتقاسم معها الجدار، الى القرن الثالث عشر، لهذا نعتقد ان البيت بُني أيضا في ذلك الوقت، ثم تم توسيعه، بعد أربعة أو خمسة قرون. تهدّمت الحظيرة المتاخمة للبيت في القرن التاسع عشر؛ في الربيع السابق قمنا ببناء جدرانها وهي تضم الآن المكتبة.

كلا البنائين يشكلان معا ساحة مفتوحة، كل ركن منها متوّج ببرج حمام. في الخلف تقع الحديقة، وأشجار بستان صغير، على الموقع الذي كان يوما مقبرة. اذاً ثمار الخوخ والكرز والتين والبندق، التي نترقبها كل صيف تغذت من عظام قديمة. بعد مشاهدتنا البيت، أول مرّة، في خريف ٢٠٠٠، حلم إمتلاكه ظل يراودني بإستمرار، ربما لأنه لم يكن لي، في السنوات العشر الماضية، بيتا هوملكي. لقد استأجرنا منازلا هنا وهناك وكنا نقنع أنفسنا انها ملكنا، لكن الآن هذا المنزل، وياللروعة، هو بيتنا.

قبل سنتين في مثل هذا الشهر، كنت جالسا في فندق غران اوتيل

في بواتيـيه، انتـظر مالك البيت للاتفاق على موعد التوقيع، وأقـرأ ريح الصـفصـاف. تناولت هذا الكتاب من جديد، للاحتـفـال بأعـيـاد الميـلاد الثـانيـة في البـيت. لا أتذكـر المرّة الأولى التي قـرأته فيـهـا، ومـاذا كـان إنطبـاعي عنه، لكنه كـان دائمـا أثيـرا لدي، دون أن أعـرف لماذا. بقراءته الآن، أدركت ان إختـيـاري كـان موفـقـا تماما. اذ ان ريح الصـفصـاف تدور كلهـا عن البيت. في غـمـرة اليأس (هل سيـتـاح لنا أن نعـثـر على مكاننا الحقيـقي)، أو الحنين الجـارف (هل تتـذكـر المنظر من خلال نافـذة المطبخ في البيت الصغير في تورنتو؟ هل تتذكر الموقد؟

الحلي المعـمـارية الدقـيـقـة في السـقـف؟) عـثـرت صـدفـة عـلى هذا المقطع: ((سنذهب لنجد بيـتك، يا صـاحبي العـجـوز)) (الكلام هنا لرات "الفأر")، ((الأفـضل أن ترافقنا، فـمـثل هذا البـحث يأخذ وقـتـا طويلا، ونحن بحاجة لأنفك)).

أنف، بالطبع، هو دائما ما نحن بحاجة اليه.

الاثنين

ثمـة مـا يشـبـه الـثـلج في الهـواء؛ لكن ليس تمـامـا، بل مـا يـكفي فـقـط لتذكيرنا بـ " ديسمبر كندا ". نفـتـقـد الثلج. رات : ((الثلج يجـعـل من الأشيـاء تبدو مختلفة جدا)).

نجلس في المطبخ، تحت العـوارض الخـشـبـيـة المدهونة. أسـتـبـدلنا العـارضـة الرئـيـسـيـة قـبل أكـثـر من عـام، بعـد وقـت قـصـيـر مـن إنتـقـالنا الى البيت. كانت عمليـة لا تُنسى. كانت العوارض نخرة، وهي مرفوعة على أعـمدة خشـبـيـة أشبـه مـا تكون بالمشنقة، وهـي ناعـمـة جدا، حيـث يمكنك

غرس سكين فيه كما لو كنت تغرسها في زبدة. كنا بحاجة الى عارضة جديدة، وقد عثر النجار على واحدة في القرية المجاورة. طولها خمسة أمتار وعمرها قرنين تقريبا؛ تطلب الأمر خمسة رجال لرفعها.

هناك صور ظلت عالقة في ذهني (مثل نقش) عن أناس ينقلون هيكلا عظميا لحوت من بورتسموث الى لندن.

الاربعاء

بحسب الان بَنِت، ان ريح الصفصاف هي رواية سنوات مول (الخُلد) التقويمية.

يشعر مول بالرضا طالما لم يكن مغامرا. القناعة تقتضي نقصا معينا في الفضول.

أتذكر أني، بعد مغادرتي بوينس آيرس عام ١٩٦٨، صرت مقتنعا باني سوف لن أقيم أبدا أكثر من سنتين متواصلة في نفس المكان. لذا قضيت فترات من سنتين في كل من برشلونة، باريسن، لندن، ميلانو، تاهيتي... ثم استقرّيت في كندا، وبعدها تغير كل شيء.

يغمرني الآن، فجأة، شعورا باليقين بان هناك أمكنة سوف لا أعيش فيها، أشياء سوف لا أفعلها، أدوار سوف لا ألعبها : موكب كوني فخم أُقصيتُ خارجه.

فرح لا يوصف.

بعد الظهر

يعجبني السيد بادجر (الغُرَير) جدا. فهولا يرى ضيرا في الاستخفاف بالسلوك.

((لا يعبأ اذا وضع أحدهم مرفقاه على المائدة أثناء تناول الطعام، أو اذا كان الكل يتكلم في وقت واحد. ولأنه لا يرتاد "المجتمع"، كانت لديه فكرة بأن هذه المظاهر تنتمي الى أمور لم تكن مهمة حقا)).

ملاحظة : من الجائز أن يكون مفيدا وضع قائمة بـ "الأمور التي لا تهم حقا". قائمة مثل هذه ستخفف بشكل كبير من نصيبي اليومي من القلق.

من جهة أخرى، لا يعجبني تود (ضفدع الطين). انه يشبه ذلك النوع من زميل الدراسة، الذي كان دائما يظهر، تحت أسماء وهيئات مختلفة، في جميع صفوفي. إنه مزعج لأنه متبجح، ومسكين لأنه جبان، وهو نفاج كبير أيضا. تتذكر مافيس كيف كانت خائفة عندما تهجّم تود على الإمرأة النوتية في القارب أثناء هروبه الشائن. ((أنتِ نوتية تافهة واطئة بدينة !... يجب أن تعرفي انني تود، الرجل المعروف جدا، المحترم، المدهش تود ! ربما الآن أعاني من متاعب، لكني سوف لا أسمح لنوتية أن تسخر مني !)).

الجمعة

نهار بارد جدا، لكنه مشمس. لعدة ساعات من هذا الصباح، إكتست كل ورقة وكل غصين بطبقة رائعة من الصقيع. بدا مظهر الحديقة غريبا.

عندما ضلّ رات ومول في العاصفة الثلجية في وايلد وود، طرقا، في النهاية، باب السيد بادجر، سمعوا ((صوت وقع خطوات ثقيلة تقترب من الباب في الداخل))، التي بدت لمول ((مثل شخص يمشي على سجاد منتعلا خفان باليان، واسعان على قدميه)).

الصوت المتثاقل يذكرني بلحظة مروّعة في قصة كبلنغ منزل الأمنيات، عندما كان المخلوق اللامرئي، القادر على منح الأمنيات، يتحرك خلف الباب الموصود مثل ((إمرأة ضخمة بخفين)). الصوت المريح في ريح الصفصاف تحوّل الى صوت كابوسي في منزل الأمنيات.

الاثنين

أخبر ريتشارد اوترام سي. بأن زوجته باربارا ماتت الليلة الماضية. رسومها، مع أشعار ريتشارد معلقة في الطابق العلوي من بيتنا. سي. لديه لوحة لها تمثل منظرا طبيعيا متقدا ـ بألوانها البرتقالية والصفراء والبنفسجية ـ معلقة في مكتبه تضيء الغرفة.

يبدو أمرا مستحيلا باننا سوف لن نراها أو نتحدث اليها ثانية.

أتميز غيظا حين أرى الأشياء تبتعد، حين أرى كل هذه التغيرات القاسية. وكلما تقدمت في العمر، كلما صارت التغيرات أسرع: أصدقاء فُقدوا، مناظر طبيعية تغدو ركاما. أريد لأصدقائي ان يكونوا هنا دائما، أريد للمكان الذي أُحب ان يبقى كما هو.

أريد أن يكون هناك أمور ثابتة معينة في العالم، أستطيع دائما الإعتماد عليها. أريد لهذا الفقدان من الأصوات والوجوه والأسماء أن يتوقف. أريد أن أكون قادرا على الحركة هنا وهناك معصوب العينين. لا أريد أن أكون بحاجة الى التعلم، مرّة بعد مرّة، كيف أتلمّس طريقي في مكان. أريد أن يكون بمقدوري فتح حديث دون تمهيد أو مقدمات.

ثمة مقطع طويل في ريح الصفصاف، في نهاية الفصل الذي يجد فيه مول بيته القديم. أود أن أقتبسه بالكامل :

كان مول مرهقا، لكنه سعيد أيضا لأنه سيأوي أخيرا الى فراشه دون تأخير، وما أن وضع رأسه على الوسادة، حتى انتابه شعورا كبيرا بالغبطة والرضا. لكن قبل أن يغمض عينيه تركهما تجوسان فضاء غرفته القديمة، التي كان يضيئها بالكاد وهج النار، الذي يلعب أو يستريح على الأشياء الحميمة والأليفة التي كانت، بلا وعي، ولوقت طويل جزء منه، والآن تستعيده ببسمة مسامحة... لقد رأى بوضوح كم كانت تبدو كلها عادية وبسيطة ـ وصغيرة حتى ـ ؛ لكن، وبوضوح أيضا، رأى ما كانت تعنيه بالنسبة اليه، ورأى الأهمية الخاصة لملاذ مثل هذا في وجود المرء.

انه لا يريد البتة التخلي عن حياته الحالية ومدياتها الواسعة، ويدير ظهره للشمس والهواء وكل ما تقدمه له هذه، ويتسلل خلسة الى بيته ويبقى هناك؛ كان العالم الفوقي قويا جدا، انه لا يزال يدعوه، حتى من مكانه في الأسفل، وقد عرف انه يجب أن يعود الى المسرح الأكبر. مع هذا كان شيئا رائعا أن يفكر انه يمتلك هذا المكان للرجوع اليه، هذا المكان الذي هو بكامله ملكا له وحده، هذه الأشياء التي كانت سعيدة جدا بمرآه ثانية، والتي يستطيع الاعتماد دائما على وجودها هناك للترحيب به بنفس البساطة.

منتصف الليل

أخترعت كلمة نوستالجيا في ٢٢ حزيران ١٦٨٨ بوساطة يوهانس هوفر، طالب طب الزاسي، اذ قام بجمع كلمة "nostos" (عودة) وكلمة "algos" (ألم) في اطروحته الطبية "Dissertatio medica de nostalgia" لوصف المرض الذي يعاني منه الجنود السويسريين بسبب ابتعادهم عن جبالهم.

الجمعة

كينيث غراهام أستاذ في وصف الراحة : ((خزين بادجر الشتوي، والذي يمكن رؤيته حقا، في كل مكان، يملأ نصف الحجرة. كوم من تفاح، ولفت، وبطاطا، وسلال مليئة بالبندق، وجرار عسل. لكن السريرين الأبيضين الصغيرين، على المساحة المتبقية من الأرض، يبدوان ناعمين وجذابين، والملاءات التي عليهما، رغم خشونتهما، نظيفة وتعبق برائحة الخزامي)). تجعلني قراءة وصف مثل هذا، لا سيما أيام مراهقتي، أهيم في الخيال لساعات عن مكان يكون لي وحدي، وكيف سيكون عليه.

قبل كتابة ريح الصفصاف بثلاثة عشرة عاما، حلمَ غراهام، بانه في ((ما يشبه الغرفة، أليفة وأثيرة جدا... منزوية والعالم حولها منسي، لكنها مغمورة بمشاعر السكينة والسلام والتملك... كل شيء فيها كان متواضعا - أه، متواضع جدا ! لكن كل شيء كان ملكي، والأكثر من هذا، كان كل شئ في الحجرة ملائما تماما)).

غالبا ما تملكني هذا الشعور بأن ((كل شيء في الحجرة)) كان ((ملائما تماما)).

فيما بعد

بامكاني التخمين عمّا سيكون عليه الأمر، للعيش في منزل ما، ما أن تطأ قدماي عتبته. اذ يكون التقمص (أو عدمه) فورياً. في رواية البيكاريسك* من القرن السادس عشر El Lazarillo Tormes لاحظ البطل أن ((هناك بيوت غير سعيدة ومريضة الجذور، تعاستها

* – نوع من القصة، اسباني الأصل، يصوّر حياة المتشردين (المورد) Picaresque .

تُعدي ساكنيها)). عكس الأمر صحيح، للأمكنة التي تكون سعيدة.
بدأنا هذا المساء بتغليف هدايا عيد الميلاد.

الأحد

يقسّم غراهام، بحكمة، المغامرين الى هؤلاء الذين يعجبهم أن تكون مغامراتهم منظّمة، وأولئك الذين يفضلون الإثارة التي تمنحها الفوضى. ((أدرك مول (الخُلد) بوضوح انه حيوان يعيش في حقل محروث وسياج من شجيرات، مرتبط بخط حراثة مخدد، ومراع مألوفة، وقطعة بستان مشذبة، وممر ضيّق للتسكع في المساء. بالنسبة للآخرين الحياة الخشنة والشدائد، والصراع مع الطبيعة القاسية هي الحياة الحقيقية. لكنه يجب ان يكون حكيما، و يلازم الأمكنة الأنيسة التي ينتمي اليها، والتي تقدم، بطريقتها، ما يكفي من مغامرات تدوم حياة بأكملها)).

أعتقد أني أشبه مول في هذا.

شرح " بيت home": في عدد اليوم من جريدة نيويورك تايمز، صدر الاعلان الذي جنّدت فيه إدارة بوش ((الكتّاب الامريكيين البارزين)) لشرح الولايات المتحدة للعالم الاسلامي.

وبالرغم من ((المخاوف الإجماعية من تحريض الحكومة للشعب الامريكي دعائيا))، فإن كتّاب مثل ريتشارد فورد، جوليا ألفاريز، روبرت بنسكي، سْفن بركيرتس، روبرت أولن بتلر، بهارتي موكيرجي وافقوا على الإسهام في إحتفالية الكتّاب هذه. انها حقيقة، في كل العصور قام الكتّاب بتأجير أصواتهم للدعاية السياسية (كانت إلياذة فرجيل مسوغا ملائما لأوغستوس للمطالبة بالسلطة الإلهية)، مع ذلك

لا زالت تدهشني السذاجة التي تدفع كتّابا أذكياء، مثل بنسكي، بتسخير أعمالهم لخدمة أهداف حكومتهم. ربما اقوال مثل ((كوني أمريكيا، وحتى كاتبا، خدمني بشكل جيد حقا)) (ريتشارد فورد)، سيكون لها إسهاما ضئيلا في التخفيف من الإشمئزاز الذي سبّبه الساسة الامريكيون في أغلب البلدان حول العالم.

تشسترتون في المواطنة : ((" وطني مصيبا أم مخطئا "... متل قولك " أمي صاحية أم سكرانة ")).

الاثنين

تريستيا، الأشعار التي كتبها أوفيد، بعد أن نفاه أوغستوس الى أقاصي تومس الرهيبة، كان أغلبها على شكل رسائل الى أصدقاء وأعداء، نادبا فيها غيابه عن روما، ووحدته في مكان قفر، لا أشجار فيه. " ريح الصفصاف" هي معكوس تريستيا أوفيد.

لم أشعر قط اني منفي، بخلاف كتّاب عديدون إلتقيتهم. أتذكر مجموعة من الكوبيين في باريس، كانوا متحلّقين حول الروائي سيفيرو ساردي. كانوا دائما واعين بانهم لم يكونوا في مكان، كانوا قد أُجبروا على مغادرته. كان ساردي يدرك جيدا أن المنفى جعله يحّن الى وطن لم يعد موجودا، أو ربما لم يكن موجودا أبدا، على الأقل كما هو في الذاكرة؛ بلد مُصاغ من طبقات عديدة من الذاكرة، مُزيّن، منقّح، معاد تشكيله. هو يؤمن بانه حتى المكان الجديد الذي نعيش فيه يغدو متحولا من خلال أراءنا المسبقة، ونزواتنا، وتجاربنا المحدودة، من خلال واقع اننا نمشي كل يوم في طريق واحد لا غير، من بيتنا الى المخبز، أو اننا نختار

مقهى واحدا، حديقة عامة واحدة، بقال واحد، من أمكنة متنوعة تؤلف مدينة معينة.

بهذا المفهوم، كل مكان هو مكان خيالي.

يستخدم ساردي الوصف الذي أعطاه كولومبس عن كوبا (التي اعتقد الادميرال انها الهند)، ليصف زيارة قام بها هو نفسه الى الهند. نوستالجيا الى كوبا.

بالنسبة للمنفي، الوقت في الوطن الأم قد توقف. كل عادة، كل قول مأثور، وكل طقس بقيت محفوظة بإحترام. في هذا الوطن الذي يشبه الأميرة النائمة، لا زال أصدقاء الطفولة، الذين لم يتغيروا بالطبع، يندبون رحيلنا، لا زالت لوحة الاعلانات تعرض نفس العلامة التجارية. يقارن أوفيد موته في المنفى بموت التم الذي يغني أغنيته الأخيرة وسط صمت مطوِق. ((موتي سيشبه هذا)) يقول، ((لكن أنا نفسي سأؤدي طقسي الأخير)).

قال يوما كورتازار، الذي رحل عن بوينس آيرس الى باريس في عام ١٩٥١، بان المنفى كان أفضل وسيلة لضمان الوفاء للوطن. أوفيد: ((طالما أنا في تومس، سأكتب تشكّيات)).

الثلاثاء

أتت شارلوت للبحث عن قطتها. قررت القطة أن تجعل من بيتنا مسكنا لها. كل مرّة تأخذ فيها شارلوت قطتها، تعود هذه بعد خمس دقائق. تمشي في الحديقة، ذيلها مرفوع، تتثاءب بترف ثم تلتف بدائرة كاملة داخل وعاء نبات فارغ، أو تقرر أن تقيل في حوض الأزهار الحجري وتمّد جسمها بشكل مستطيل غريب.

أسلاف مول (الخُلد) وتود (الضفدع) ورات (الفأر) : اكتشف الآثاريون في المكسيك نقوشا أولية، من نتاج الإنسان، عمرها أكثر من ۲٥٠٠ سنة، تصوّر حيوانات ناطقة.

عودة الى موضوع المنفى : ((بالنسبة لي، الأدب هو على الدوام تبجح، فهو يتغنى بالشباب عندما يذهب هذا الى غير رجعة، ويتغنى بوطن، عندما، في شيزوفرينيا الزمن، تجد نفسك في بلد يقع على الجانب الآخر من المحيط، بلد ـ مهما كان مضيافا وودودا ـ لايضم قلبك، لأنك نزلت على هذه الشواطئ متأخرا جدا)). جوزيف سكفورسكي في تورنتو، كاتبا عن محبوبته تشيكوسلوفاكيا.

الاربعاء

لاحظت انني أسرع في قراءة مغامرات تود. في الفصل المعنون " عودة يوليسيس "، واقعة إسترداد قصر تود من حيوانات إبن عرس، فيها عظمة ملحمية، لكن تود يتصرف كطفل مفسد بالدلال، وثمة شئ ما حوله أشبه بأخيل المتجهم أكثر منه بملك إيثاكا الماكر. من جهة أخرى، بإمكاني قراءة فصل " عازف المزمار على بوابات داون " مئة مرّة. ((كم هو جميل وغريب وجديد ! لأنه توقف في الحال، تمنيت لو أني لم أسمعه أبدا. لأنه أوقظ فيّ توق شديد مؤلم، ولا شيء يبدو جديراً بإنفاق الوقت سوى سماع ذلك لصوت مرّة أخرى، والاستمرار بالإستماع اليه الى الأبد)).

صفحات مثل هذه، تباغتنا بسرعة ودون ترجمة في المعنى، بعدها نعود الى دنيا الإقناع والفهم.

الأحد

تحضيرات عيد الميلاد.

الجمعة

أعطاني صديق نسخة طبق الأصل من " خريطة لوايلد وود ومحيطها " التي رسمها شبرد في الصفحات النهائية من كتاب غراهام.

كوكهام دين، على نهر تيمز، هو المكان الذي تدور فيه رواية " ريح الصفصاف".

هنا عاش غراهام عندما كتب روايته، مع زوجته وولدهما، الاستر، الذي يطلق عليه تحببا أسم ماوس. من الواضح أن ريح الصفصاف رُوُيت أولاً للطفل الاستر ذي الأربعة أعوام، بعد ((نوبة بكاء شديدة في ليلة عيد ميلاده))، حادثة بعد حادثة حتى منتصف الليل. بعد سنوات، قتل الاستر في اوكسفورد، في حادث غامض. فأصبح الكتاب فجأة مرثاة له.

وسط البقايا الإحتفالية من أوراق تغليف الهدايا ووليمة عيد الميلاد، رأيت في جريدة لوموند مقالا طويلا عن حقوق النشر للمناظر الطبيعية. بعد بيع حقوق اللوحات الفنية المقلّدة، التي تعود ملكيتها للمتاحف، الى الشركات المتعددة الجنسية، بدأت الحكومات المحلية، ومنظمات حماية الأماكن الطبيعية، وملاك الأراضي الخاصة بالمطالبة بحقوق في " مناظر طبيعية " معينة. معالم مثل برج ايفيل يمكن أن يُصور مجانا أثناء النهار، لكن حق نسخ رمز النور لمدينة باريس في الليل يعود الى شركة خاصة. من الأمثلة الأخرى على الملكية البصرية

الخاصة : المنظر المأخوذ من منحدر كاسيس الصخري، قرب مرسيليا؛ منظر القوارب على شاطئ كوليور، في جنوب فرنسا؛ مصّب نهر تريو، في بريتاني. هل يتعين على كينيث غراهام المستقبلي أن يدفع لبعض الشركات الكبيرة لإستخدام مذكراته عن كوكهام دين على نهر تيمز؟

في نشرة محفوظة عندي، مدوّن عليها " قصاصة غريبة " : في ١٨ كانون الثاني ١٩٤٩، أودع رجل امريكي يدعى جيمس تي. مانغان عقدا في السجل العقاري لكوك كاونتي، وتحت سلطة وكيل الولاية، طالب فيه بحيازة الفضاء بأكمله. وبعد إعطاء إقليمه الشاسع إسم سيليستيا، أعلم السيد مانغان كل أقطار الأرض بحقه، محذرا إياهم من محاولة القيام بأي رحلة الى القمر، وتقدم بطلب عضوية الى الأمم المتحدة.

الثلاثاء

جو ممطر عاصف. غدا بداية العام ,٢٠٠٣ سنمضي ليلة رأس السنة في مطعم صغير يدعى لوشامب دو فوار قرب لنكلواتر. في ٣١ كانون الأول الماضي، فتحوا ستائر نوافذ المطعم في منتصف الليل، وأشعلوا لنا في الخارج ألعاب نارية. ربما هذه السنة سيفعلوا نفس الشيء.

لا بد ان الثلج يسقط الآن في تورنتو. في مثل هذه الأيام نتذكر زياراتنا لباربارا هوارد وريتشارد اوترام، والحديقة البيضاء خارج نافذتهم، وصوت باربارا الشجي العميق ويداها الجميلتان القويتان. الآن وأنا أعيش في فرنسا، أعرف أن بإمكان المرء الشعور تماما بأنه في وطنه، في مكان لا يشعر ازاءه بالارتباط العميق. (سيتفق مول معي في هذا).

الفصل الثامن

٢٠٠٣
كانون الثاني

الثلاثاء

التخلص من آثار العيد بعد عيد الميلاد. كانت عائلتي (وهم من اليهود، وما من سبب يدعوهم للإحتفال بأعياد الميلاد) تتبع التقليد الذي يقضي بالإحتفاظ بزينة العيد اثني عشر ليلة بعد الإنتهاء منه، وعكس ذلك سيجلب النحس. أزلنا الزينة، وحمل سي. شجرة العيد مع وعائها الى الحديقة، حيث تنتظر حتى الربيع لزراعتها من جديد. الإحساس السار ببداية، لم يأت من فراغ، مثل إعادة القراءة.

إكتست الأشجار والأجمات بطبقة من الصقيع تشبه يرقات الفراشة. أحب أيام العيد هذه، الباردة والعاصفة. حتى سن العشرين كان عيد الميلاد عندنا إيذانا ببدء الصيف : النهارات الطويلة في حديقة البيت الريفي المؤجر في بوينس آيرس، أو على الشاطئ في اوروغواي، تحت أشجار الصنوبر، قارئا أو راكبا عجلتي إسبوعا بعد إسبوع، حتى البداية المرعبة للمدرسة في آذار. أتذكر الشعور بالغبطة الذي يغمرني عندما أصل الى نهاية كتابي ومن ثم أحلام اليقظة عن شخصياته (في حال لو أحببتهم)، الذي يمتد الى أيام عدّة، متخيلا ما صارت عليه حياتهم في

ما بعد أو متخيلا نهايات أخرى. الآن، يبدو أمرا مستحيلا أن أنعم بمثل هذه الفترة الطويلة من الراحة.

قرأت الاسبوع الماضي أيام كنغ فيشر لسوزان كوين، ولاحظت اننا نتقاسم نفس أصياف الطفولة البطيئة الخطى. هذه الجملة على سبيل المثال ((يذهب آل موريس، مرّة في الإسبوع، الى المدينة، في زورقهم الطويل،لتبديل كتبهم في المكتبة العامة)).

الاربعاء

تسلمت، على نحو غير متوقع، رسالة من نيويورك من البرفيسور أسايس ليرنر. كان واحدا من أساتذتي في الأدب الإسباني في المدرسة الإعدادية، ومن المؤكد انه كان من أفضلهم وأكثرهم رسوخا في الذاكرة. كان قد قرأ لي مقالة في الأدب، فقرر، بعد هذا الوقت الطويل، أن يجدد الصلة. كنت في الخامسة عشرة عندما بدأت أول دروسي معه. على، كتاب الحب الجميل، لا سيلستينا، إل لازاريللو، لكننا لم نأخذ دروسا مدار السنة درسنا في دون كيخوته، لأن ليرنر شاء أن يرشدنا، من خلال كل كتاب، الى كل تفصيل بإنتباه محب، مهتما بالعمق أكثر من الكم. مع هذا إكتشفت انه يعلّم دون كيخوته لصف آخر، فكنت أتسلل الى هذا الصف لسماع دروسه. في الصيف التالي إصطحبت معي مجلديّ سرفانتس، وقضيت ثلاثة شهور معهما.

أنْ أستمع الى قراءة الأدب في الصف، وأن أقرأ بنفسي كتابا تحت الشجرة، كانتا تجربتان مختلفتان تماما. أتذكر - على سبيل المثال - تعليق ليرنر الدقيق عندما قرأ لنا المقطع الذي يتحدث عن مكتبة دون

كـيـخـوته، التي قـرر القس والحـلاق أن يغلقـاها بـجـدار منعـا لمزيد من الجنون. عندمـا قـرأتـه وحـدي، كـنت أغـالب البكاء وأنـا أرى الفـارس العجوز ينهض من فراشه ليلا للبحث عن كتبه، فيعجز عن العثور على الغرفة التي يحتفظ فيها بالكتب. كان هذا بالنسبة لي كابوسا حقيقيا : أن أستيقظ ذات ليلة ثم أكتشف ان المكان الذي يضم كتبي قد إختفى، يجعلني هذا أشعر بأني لم أعد الشخص الذي إعتقدت انني كنته. هذا الإنسلاخ، خسارة النفس هذه، يخضع لهما غريغور سامسا، دون كيخوته على العكس، فلكي يبقى دون كيخوته، يقبل بالكذبة التي تقول بأن ساحرا شريرا خطف مكتبته. من خلال تصديقه لهذا الوهم، فانه يبقى وفيا لذاته المفترضة.

عندمـا عدت الى بوينس آيرس عام ١٩٧٣، لم تعد كتبي القديمة موجودة هناك.

الجمعة

يريد دون كيخوته أن يكون رجلا عادلا من تلقاء نفسه، لا من أجل طاعة الشرائع البشرية والإلهية. ((ياإلهي ! امنحني القوة والشجاعة / كي أنظر الى قلبي وجسدي دون شعور من قرف !)). إبتهال بودلير يُوجز أخلاق دون كيخوته.

الحاخام الحسيدي الحكيم ديفيد أوف ليلوف، الذي توفي في عام ١٨١٣ : ((نسيج الأفعال العادلة تجعل العالم كلاً واحدا، تجعله ذهبياً)). دون كيخوته : ((سانشو، ياصديقي، لتعرف اني ولدت، بإرادة السماء، في عصر الحديد هذا، كي أولد من جديد في عصر

الذهب، أو الذهبي كما يُدعى في الغالب)). وفقا لليهود الحسيديين، ان بقاء العالم مبرر بوجود ستة وثلاثين رجلا عادلا، يُدعى الواحد منهم " لامد ويفنيك " وإكراما لهؤلاء لم يمحق الله العنصر البشري. يريد دون كيخوته أن يتصرف مثل رجل عادل في عالم ميزته الأساسية الظلم.

في صحيفة اليوم، مزيد من الإشارات على ان الحرب على العراق مُتعذر إجتنابها.

تساءل صديق عراقي : ((أي خيار محتمل لنا بين وحشية صدام، وتطرّف القيادات الدينية، والنهم الإقتصادي للولايات المتحدة ؟ خياراتنا بين قطع الرأس أو الرجم بالحجارة أو أن نؤكل أحياء)).

السبت

عندما أقرأ دون كيخوته، يذهلني العالم الذي أعاد سرفانتس خلقه، ولا أعير إنتباها كبيرا لنمو القصة. الطبيعة التي يسافر خلالها مغامران، حيث معاركهما اليومية، آلامهما ووسخهما وجوعهما وصداقتهما، تبدو كلها واقعية بشكل كبير، تجعلني أنسى اني أتابع قصة، واستمتع ببساطة برفقتهما. أحيانا ينتابني نفس الإحساس عندما أقرأ كونراد أو توماس مان أوقصص شرلوك هولمز.

ليونيل تريلنغ : ((كل الروايات النثرية هي تنويع على موضوعة دون كيخوته)).

هذا صحيح، فقط اذا كان ما يعنيه بـ " موضوعة "، هو واقع وحقيقة الرواية النثرية.

أخبرني إبني روبرت، مرّة ثانية، كم انه يعاني من صعوبة في التمسك

بما يؤمن به : رفضه أن يؤمن بهذا ، أو يؤيد ذاك. انه فقط في العشرين من عمره، ويرى نفسه محاطا بعروض مضللة يأبى أن يقبلها. أعتقد انه يشعر بنفسه مثل لاعب الشطرنج الذي يرغب أن يرى الى أين تؤدي حركاته في النهاية، لكنه غير قادر سوى على التنبؤ بالنتائج المباشرة.

ان دون كيخوته يعرف ان أفعاله ستكون لها نتائج، حتى لو كانت غير ملموسة بالنسبة اليه. مأزق ماكبث هو في رغبته بأفعال ليست لها نتائج - الإستحالة الحقيقية الوحيدة.

أتذكر ان صديقا حكى لي عن إمرأة وجدت نفسها ، ذات يوم، مضطرّة الى الجلوس في المقهى الى جانب الرجل الذي عذب ابنها. هذه هي نتائج الرفض الأرجنتيني للتصرف بعدالة. هل سيتغير هذا يوما ؟ ليس قبل أن ترفع الحصانة الممنوحة للعسكريين القتلة، لأن هذا العفو الشائن الممنوح لهم سوف يبطل بشكل نهائي كل محاولة لإحياء النظام الإجتماعي. لا يمكن لمجتمع أن يكون متماسكا دون تطبيق مبادئ العدالة ؛ انها يجب أن تكون جزءاً من تعريف المجتمع نفسه، ويجب أن يؤمن مواطنوه بها ، سواء كانوا يؤيدونها أو لا. ويجب التقيد بالنتائج.

وفقا لخوان خوزيه ساير، دون كيخوته بطل ملحمي، لأنه لا يبالي إن نجحت مهمته في مقارعة الظلم أم فشلت. ((هذه هي النقطة الأساسية التي يجب أخذها بعين الاعتبار))

يقول ساير ؛ ((هذا هو الوعي المشوش أو الواضح للفشل الحتمي لكل مغامرة بشرية، أنه أمر يناقض بشكل مبدأي معايير الملحمة)). مقارنة هذا القول بملاحظة ستيفنسون : ((مهمتنا في الحياة ليست هي النجاح، بل مواصلة الفشل بكل مرح ممكن)).

هذا الإيمان بحتمية العدالة يبقى، بشكل غامض، قائما حتى عندما يكف البطل نفسه عن الدعوة اليها ؛ سيصبح الإيمان عندئذ معد، وسيعدي الآخرين بحماسة للعدالة. في نهاية الجزء الأول من دون كيخوته، عندما يجلب سانشو سيده الجريح الى البيت، لم يكن هناك ما يوحي بانها النهاية، بل بالأحرى، كان وعدا ببدايات جديدة. عندما تسأل زوجة سانشو إن كان قد جلب رداءً لها وأحذية لأطفاله، يجيبها سانشو بأنه يأمل بمكافآت أخرى، مكافآت ربما سينالها في الأيام القادمة، بعد القيام بمزيد من المغامرات. ربما يبدو هذا مجرد طمع، لكن بعدئذ، وبينما دون كيخوته راقدا في السرير مصابا بنوبة جنون، وابنة أخته ومدبرة المنزل يلعنان الروايات الآثمة التي قادت سيدهما الى الجنون، يجسد سانشو المثل الفرسي للفارس، عندما يقول لزوجته ((ليس هناك ما هو أفضل في العالم لرجل محترم، من أن يكون حامل درع فارس جوّال يبحث عن المغامرات)).

رصد رائع لشيلينغ في كتابه فلسفة الفن في ١٨٠٩ : ((الفكرة الرئيسية في دون كيخوته هي صراع المثالي ضد الواقعي. هذه الفكرة هي التي تهيمن على عموم الرواية، في أكثر تنويعاتها تفاوتا. في البداية، يبدو الأمر كما لو أن الفارس ومثاليته مهزومان، لكن هذا هو الظاهر فقط، لأنه ما يبدو جليا خلال مجمل الرواية هو الإنتصار المطلق لهذه المثالية)).

دون كيخوته مثل لامد ويفنيك.

الاثنين

عليّ التوقف عن كتابة هذه اليوميات، لأني، ومن أجل لقمة العيش، يجب أن أكتب مقالاً الى إحدى وسائل الإعلام.

فرجينيا وولف عن إستحالة كتابة قصة من خمس وعشرين ألف كلمة، تتم بتكليف : ((أعتقد انني برهنت على ان الأمر كي يصبح حقيقة يجب أن يكون كالتالي : الإذلال، هذا يعني الرفض العنيد للعقل بأن يذعن & الفشل & إعادة الكتابة & يأس عام. وحتى لألفي كلمة فإن الأمر يكون تعذيبا، ليس أخلاقيا بقدر ما هو تعذيب جسدي وفكري)).

إذلال المهنة : إتصلت في الهاتف، وللمرّة السادسة، برئيسة تحرير مجلة عن أتعابي، المتأخرة منذ ثلاثة شهور. بعد المزيد من الأعذار، سألتني ((هل أنت حقا بحاجة شديدة لهذه المئة باوند ؟)).

دوروثي باركر : ((أكثر كلمتين مرحب بها في اللغة الانجليزية هما (المرفق شيك))) "Cheque Enclosed"

مساءً

مطر ثلجي. أوقد سي. نارا، ونحن نستمع الى توم جوبم يؤدي مقطوعة " فينيسيوس "، هدية، من البرازيل، من ناشرة كتبي لويز شوارتز.

عن الكرم : سانت مارتان، أسقف تور، القديس الذي كُرّست له كنيسة قريتنا، مشهور بحادثة شق عباءته نصفين مانحا النصف الى متسول. لاحظ دون كيخوته بان الأمر لابد قد حدث في الشتاء ((والا فان القديس، وهو محسن كبير، كان سيمنحه كل العباءة)). ((لا، من

المؤكد ان الأمر ليس على هذه النحو)) ردّ سانشو ((عوضا عن ذلك، لا بد انه إلتزم بالمثل السائر القديم "الأخذ والعطاء متوقفان على الحكمة")).

الجمعة

شئ ما يتحرك تحت أرضية البيت طوال الليل. يبدو أكبر من فأر وأصغرمن قطة.

جلست أصيخ السمع ثم نزلت الى الطابق الأسفل، أراقب في الظلام آخر بصيص من النار التي تخبو. بقيت واقفا هكذا خمس عشرة دقيقة ثم رجعت الى الفراش. عندما كنت في العشرينيات من عمري كانت لدي القدرة على الجلوس (على طاولة مقهى مثلا) لساعات من غير إنقطاع، لا أفعل شيئا، أن أقرأ مثلا أو أتكلم، ولا حتى أن أركز على أي شئ. الآن أجده أمرا شاقا جدا، أن أجلس ولاأفعل شيئا.

بيرتا فون ستاين، في " قبل المساء " :

يوم،
لا أتمنى أن أجد فيه أي شئ
يجب أن ألمّه
وأحفظه بأمان

ليس ثمة وقت ضائع في دون كيخوته . وأنا أقرأ " إريك و إنيد" رواية من القرن الثاني عشر لكريتيان دوتروي، عثرت مصادفة على كلمة récréantise التي تجمع بين "استرخاء" (récréation) و "وسواس" (hantise) والتي يعرفها معلقاً.

الحواشي بأنها نوع من الكسل، الضعف، الإهمال، اللامبالاة، والتي يرى انها تعد رذيلة في روايات الفروسية.

السبت

المزيد عن النتائج :

مفاجآت ليست مُعدّة لنا. كتب تشونغ ـ تسو (الذي تخيل في القرن الرابع قبل الميلاد، رجل حالم، يحلم انه فراشة، وعندما يستيقظ لم يعد يعرف ان كان هو الرجل الذي حلم انه فراشة أو أنه فراشة تحلم الآن انها رجل)، هذه القصة : كان ابن أحد العوائل الفقيرة يعتاش من صيد اللؤلؤ. ذات يوم غطس في البحر ثم طفا حاملا لؤلؤة تعادل قيمتها ألف قطعة ذهبية. أبوه، بدلا من أن يثني عليه، أمره أن يمسك بحجر ويحطم اللؤلؤة. قال لإبنه أن لؤلؤة تعادل قيمتها ألف قطعة ذهبية لا بد أن تكون نادرة جدا، ولا يمكن العثور عليها الا في هوّة عمقها تسع قامات وتحت أنف التنين الأسود. هذا يعني أن الإبن ما كان له أن ينال اللؤلؤة لولم يكن التنين نائما. ((آه ياولدي !)) ختم كلامه ((تخيلْ، ماذا كان سيحدث لو أن التنين إستيقظ !)).

الأحد

هذا الصباح، قال لي ناشر كتبي الفرنسي أوبير نيسن (وكان واحدا من مقاتلي المقاومة)، في رد فعل على الإجتماعات الكثيرة التي يقيمها لوبن في فرنسا، ((يجب علينا إشهار بنادقنا القديمة من جديد)).

البؤس في عصرنا : وفقا لجريدة لوموند، ثلاثة وعشرون بالمئة من

الاطفال في مدينة لندن يعيشون تحت خط الفقر. ما العمل اذاً ؟ الحجة الشائعة : تقديم مساعدة الى متسوّل واحد لا يبدل من الوضع، لا يستأصل السبب، لا يغير أي شئ. لكن عند دون كيخوته، لا مجال للشك في ان القيام بفعل مباشر هو الجواب. أثناء رحلته الأولى كفارس سمع صرخات ألم، فرأى صبيا، عاريا حتى الخصر، مقيدا الى شجرة وسيده يجلده. أمر دون كيخوته الرجل أن يتوقف : ((أيها السيد الهمجي، ليس من اللائق أن تهاجم شخصا لا يمكنه الدفاع عن نفسه ؛ هيا إمتطي جوادك، وسدد رمحك، فسأريك أي رعديد انت)). حاول سيد الصبي أن يشرح له بأنه يعاقبه بسبب إهماله، لا لأنه (كما يدّعي) يطالب بأجره. أمره دون كيخوته، وهو متردد، أن يحلّ وثاق الصبي ويدفع له أجره، أجاب الرجل انه كي يفعل ما يأمره به، على الصبي أن يرافقه الى البيت، لأنه لا يحمل مالا في جيبه. أمّا الصبي، وقد تنبأ بأنه سيُضرب من جديد اذا تُرك وحده مع سيده، فقد توّسل الى دون كيخوته بأن لا يصدقه. ((سوف لا يعصي أمري))

أجابه دون كيخوته ((يكفي أن أعطيه أوامري، وهو بالتأكيد سيحترمها)). لأن العدالة، العدالة الفروسية، هي بالنسبة لدون كيخوته قانون شامل لا يقبل التغيير، وهو يؤمن بأن الاخلال به سيؤدي الى كارثة شاملة. لكن، وكما يشك القارئ، أعاد السيد وثاق الصبي، حالما غادر دون كيخوته، وبدأ بجلده حتى تركه قريبا من الموت.

بعد سبعة وعشرين فصلا، عندما إلتقى دون كيخونه الصبي من جديد، أراد أن يثبت لمرافقيه أهمية الفرسان الرحّالة، بإخبارهم قصة الصبي وكيف أنقذه، لكن الصبي ردّ عليه بان حصيلة هذه المغامرة كانت

معاكسة تماما لنوايا الفارس، وتوّسل الى دون كيخوته، لو شاهده مرّة ثانية في مشكلة، أن يتركه وشأنه ولا يحاول إنقاذه. أعطى سانشو الصبي خبزا وجبنا زوّادة الطريق، وقال ((خذ يا أخي، نحن كلنا نشاطرك جزءً من محنتك))، سأله الصبي، بعقل، بأي جزء يشاطره سانشو. ((بهذا الجزء من الخبز والجبن الذي أعطيتك اياه)). هذا هو الجواب. لكنه وجه واحد من الحقيقة. نحن كلنا نشاطر الصبي محنته، كما حدس سانشو، ليس بالألم الجسدي، بالطبع، ولا بالمعدة الفارغة والجلد الذي تلقى السوط، وانما بإدراك ان الظلم يزدهر واننا (كما هو واضح) محكوم علينا بالعجز عن قهره.

اندريه جيد حول مقتل غاندي : ((يبدو كما لو أن الله قد هُزم)).

ينتهي الفصل، والصبي وهو يلعن إنقاذه ويلعن كل الفرسان الرحّالة، ودون كيخوته وهوحزين وخجل ورفاقه يكتمون ضحكاتهم.

لا أحتمل أن أتابع مشاهد العنف في التلفزيون أو في الأفلام، لكن بامكاني قراءتها موصوفة روائيا. دون كيخوته واحد من أكثر الكتب التي عرفتها عنفا.

الاثنين

تقدم دون كيخوته نفسها مثل طقم من " الصندوق الصيني "× المحيّر. بعد ثلاثة فصول فقط، يخبرنا سرفانتس انه لا يستطيع ان يذهب الى أبعد من هذا الحد، وقد أدرك الآن بانه لم يعد يعرف كيف ستسير مغامرة فارسه. بالصدفة عُرضت عليه رزمة أوراق مربوطة لشرائها، ولأنه قارئ نهم، يقرأ ((حتى مِزقْ الأوراق الملقاة في الطريق))، فإنه يتصفح

هذه الرزمة فيرى إنها مكتوبة بالعربية. وبدافع من الفضول لما تحويه هذه الصفحات، فإنه يذهب للبحث عمن يترجمها له (من السهل إيجاد مترجمين عرب وعبرانيين في فترة أقل من عشرين عاما بعد طردهم من إسبانيا، كما يخبرنا سرفانتس).

إكتشف ان المخطوطة ليست الا تسجيلا لوقائع مغامرات دون كيخوته، مكتوبة بقلم المؤرخ العربي سيدي حامد بن جيلي - والذي إتضح انه، الى جانب سرفانتس، بين المؤلفين الذي يضمهم الجزء الخاص بالفرسان في مكتبتنا وتحت إسم سرفانتس أيضا .

منذ تلك اللحظة، نابض حق التـأليف أصبح دوّارا : الرواية التي قرأنا، يُزعم أنها مترجمة من العربية، ولم يعد سرفانتس هو " الأب "، لكنه مجرد " عرّاب ". في ما بعد، في الجزء الثاني من دون كيخوته، كانت الشخصيات قد قرأت الجزء الأول فصححت ونقّحت من أخطائها الواقعية، حتى لو أقسم مؤلفها الأندلسي، كما يقول لنا سرفانتس، بأن كل الأحداث هي حقيقية، ((حتى المسيحي الكاثوليكي يمكن له أن يقسم)) (هذا يعني، كما يشرح المترجم لسرفانتس، بأنه لا يقسم الا بقول الحقيقة). عند هذه النقطة يتساءل القارئ : منْ إخترع منْ ؟

معظم الكتّاب لهم وجود تاريخي ؛ ليس الأمر كذلك مع سرفانتس، فهو، في ذاكرتي، شخصية من " دون كيخوته" أكثر منه رجل حقيقي. غوته، جين أوستن، ديكنز، نابوكوف من الممكن تمييزهم على انهم كتّاب من لحم ودم، امّا سرفانتس فيبدو لي انه أُبتدع من خلال كتابه.

في آيار من العام الماضي، زرت مع خابيير سركاس بيت سرفانتس في بلد الوليد. مرأى البيت مؤثر. هنا عاش سرفانتس عندما نُشر الجزء

الأول من " دون كيخوته" في مدريد عام ١٦٠٥. الحديقة، حجرة الدرس، غرفة النوم، الغرفة التي كانت نساء العائلة العديدات يجتمعن فيها ، متحلّقات حول موقد الفحم الأندلسي، المطبخ، الذي كان سرفانتس بلا شك نادرا ما يدخله - كل هذا (ونحن نسلّم بذلك) يبرز عالم دون كيخوته أكثر مما يبرز عالم مبدعه. على الرغم من وجود متحف كهذا ، وعلى الرغم من الصيت، والمعالم، والدراسات الأدبية، والمعاهد التي سميت بإسمه، وحماسة الأخلاف وسخاء الأوصياء، يبقى سرفانتس غير حقيقي.

كان بروست يشعر بانه محكوم عليه أن يصبح الـ " أنا " الروائية التي خلقها. في دون كيخوته، كما لو ان الـ " أنا " الروائية كان محكوم عليها أن تصبح سرفانتس.

قورن سانشو ودون كيخوته بدكتور جيكل ومستر هايد : لاحظ نيكولاس رانكين، في كتابه الرائع في أدب الرحلات " صدر رجل ميت"، بانه ((ربما لم تكن صدفة أن يكون بين حرفي H لمستر هايد وJ جيكل في الابجدية حرف I "أنا")).

وجدت لوحة يُدّعى انها بورتريه لسيدي حامد بن جيلي. وضعت إطارا لها وعلقتها في الجدار المقابل لمكتبي.

في ما بعد

مواضيع أخرى، عولجت بضعف من قبل سرفانتس في العديد من أعماله، تمّ إحياؤها بطريقة غامضة في دون كيخوته. قارنْ بين التعداد المضجر للشعراء الجيدين والرديئين في كتابه رحلة الى بارناسوس (نوع

من كوميديا نثرية، يبدو أنه كان هدف المؤلف فيها أن ينال إستحسان أبولو لبيانه الشعري الشخصي) وبين جرد حارقو الكتب في دون كيخوته.

كتبٌ في كتاب : عندما كان القس والحلاق ينقّبان في مجموعة دون كيخوته من أجل تطهيرها من الكتب " الشريرة "، وقعا بالمصادفة على لاغالتيا بقلم المدعو ميغيل دي سرفانتس. ((كان هذا الشخص سرفانتس صديقا حميما لي لعدة سنوات)) قال القس، ((وأنا أعرف انه حاذق في المصائب أكثر مما في الأغاني. في كتابه بعض الإكتشافات الجيدة ؛ يقترح أشياءً، لكنه لم ينه شيئا)). فيما يخص لاغالتيا تعني " لم ينه شيئا "أن سرفانتس لم يكتب أبدا الجزء الثاني. والأمر نفسه يُقال عن دون كيخوته، لكن لسبب أقوى : دون كيخوته " لم ينه شيئا "، لأن موت البطل المادي لم يكن هو نهاية الجدال الأخلاقي.

فلوبير : ((أجل، البلاهة تكمن في الرغبة في الختام)).

ملاحظة : لم يكن فلوبير يحب أن تُكتب دون كيخوته كما كُتبت، دون أي جهد واضح في كبح جماح السرد أو إخضاع النثر. في رسالة الى صديق، يصرّ فلوبير على ان ((المقاطع الضعيفة في كتاب يجب ان تكون مكتوبة أفضل من المقاطع الأخرى)).

الثلاثاء

يقول دون كيخوته لكاردينيو بانه يملك ((أكثر من ثلاثمئة كتاب)) في بيته. تحتل كتب سرفانتس (والكتب التي كُتبت عنه) ثلاثة رفوف في مكتبتي. لاحظت ان الكتاب الذي أصرّ خابيير سركاس على إعارته

لي لا زال بحوزتي، وعليّ أن أعيده اليه. لا أحس بالإرتياح عندما تكون كتب الآخرين في بيتي، لأني أرغب بالإحتفاظ بها، وأن لا أعيدها فورا. الكتب المعارة تشبه بعض الشيء الزوار الثقلاء. أن أقرأهما وأنا أعرف انها ليست لي، يمنحني شعورا بشيء مبتسر، بمتعة ناقصة، الأمر صحيح أيضا بالنسبة لكتب المكتبة العامة.

ماذا كان سيحدث لو ان القس والحلاق طهّرا مكتبتي من كتب المذكرات واليوميات كما فعلا مع دون كيخوته وكتبه من روايات الفرسان ؟

((" إعترافات" سانت أوغستين : سمعت ما يقال، بأن هذا هو أول كتاب مذكرات وأن كل الكتب الأخرى منشأها منه ؛ لهذا فأن منشئ مثل هذه الملّة السيئة يجب أن يرمى في النار)).

((لا ياسيدي، لقد سمعت أنا ايضا ما يقال، بأنه أفضل كل الكتب التي كتبت من هذا القبيل، وأنه فريد من نوعه ويجب أن يُحفظ)).

((رسائل مدام سيفنييه : رائع ومفعم بالحياة، لذلك يُحفظ. إعترافات روسو : جيّاش العاطفة: يرمى بعيداً، غوته Dichtung und Wahrheit غوته: نصفه جذاب، ونصفه الآخر جريء، يمزق من الوسط، ويحفظ النصف الافضل)).

((يوميات بيوي كاسارس : انها يجب أن تُقتلع بلا رحمة. شيئان يقرعان ناقوس الموت لمثل هذه الكتب : إعترافات برغبات جنسية وتفسير الأحلام. الأولى تبدو تفاخرا داعراً، والثانية مملة بشكل مؤلم. مذنب في الأولى : سيرة حياة تشيلليني، مذكرات كازانوفا، حياتي وحبي فرانك هاريس. ومذنب في الثانية : عالمي الخاص غراهام غرين. تُرمى كلها بعيدا)).

((دعنا نمر سريعا عند هذا القسم، لا نستطيع التوقف عند كل عنوان. يوميات أميل : طويل جدا. أصوات بروكوش : متعجرف ومضلل. إبن الخادم سترندبرغ : إشفاق على النفس، وغرور. أعترف بأنني قد عشت نيرودا : تمجيد للنفس. كلها مدانة)).

((إنتظر لحظة، ماذا لدينا هنا ؟ اليوميات الأفضل بين الجميع : يوميات كافكا. ضعها الى جانب سانت أوغستين ؛ يجب أن يُبجلا بنفس الطريقة. والآن عدد آخر من الإستثناءات المحترمة : يوميات كاترين مانسفيلد، فرجينيا وولف، جوليان غرين. كل هذه، ياصديقي، حميمية وذكية وملهمة ؛ يجب أن تصونها بعناية. مهنة العيش تشيزار بافيزه : ضعها الى جانب الثلاثة السابقة. وهذه ؟ كتابا مذكرات لكنديين : قلب وحشي من صخر شارون بوتالا ، قصر بالتيمور واين جونستون، كلاهما جيد تماما ، كل على طريقته الخاصة. إحتفظ بهذه الكتب الستة كلها في رف واحد. واحد آخر : كتابات في السيرة الذاتية هرمان بروش، مخيلة فريدة، ذاكرة ذكية، من الغريب أن لا يكون معروفا في ألمانيا)).

((وهذا الشئ هنا ، يوميات القراءة، ليس أقل من الآخرين، الى النار، ما رأيك ؟)).

((تمهل ! أن مؤلفه صديق لي، وحتى لو كان الكتاب فيه قليل من الجمال وأقل منه الذكاء، الا ان فضيلته انه حماسي وقصير، وفضيلته هذه خففت من مساوئه الأولى، إحتفظ به الآن وسنرى ما نفعل به فيما بعد)).

((فيما بعد ! لست متأكدا الى أي حد يمكنني أن أتواصل مع كل هذا التخبط. كل صيغ المتكلم هذه تصبح بعد برهة مفردة أقل. ياإلهي،

ما أكثر هذه القصص عن الحياة الحقيقية ! حتى أنك تظن بانه كان لدينا يوميا ما يكفي من إعترافات، تتدفق من تلقاء نفسها، بحيث لا نستطيع أن نترك القلم لحظة واحدة ! لشد ما نطرب على نغمة صوتنا الخاص)).

أودن، مقتبسا مثلا ايسلنديا : ((كل إمرئ تعجبه رائحة ضرطته)).

الأربعاء

يبدو أن البلاهة في المحيط الأكاديمي بلا حدود. قررت كلية آمهرست في مساتشوستس تقديم دروس في اللغة الإسبانجليزية - هذا يعني اللغة المحكية المختلطة التي يتحدث بها مهاجروا أمريكا اللاتينية، الذين لم يتعلموا بعد الإنجليزية. ومن ضمن الدروس المقررة دون كيخوته . أنقل هنا نص الجملة الأولى :

"In a placete de la Mancha of which nombre no quiero remembearme, vivía, not so long ago, uno de esos gentelman who alwaya tienen una lanza in the rack, una buckler antjgua, a skinny caballo y un grayhound para el chase.

A cazuela with mas bef than murton, carne choppeada para ladinner, un omlet palos sapados, lentil palos viernes, xalgun pigeon como delicacy especial pas los domingos, consumian tres cuarers de sy income".

في نايجيريا، قام الإسلاميون، أمس، بأعمال تخريب بعد سماعهم بأن مسابقات ملكة جمال العالم ستقام في بلدهم. أحرقوا الكنائس والمحلات التي يملكها كاثوليك، وجرحوا وقتلوا أكثر من خمسمئة شخص، بالطعن بالسكاكين أو تعليق إطارات سيارة مشتعلة في أعناقهم. كانوا يتراكضون في شوارع كادونا هاتفين : " الله اكبر " و " يسقط الجمال ".

الخميس

لو كان لي ان أختار مقطعي المفضل في الرواية، أعتقد بأنه سيكون حادثة كلافيلينو، التي تمّ فيها خداع دون كيخوته وسانشو، حيث أقنعا، بعد وضع عصابة على أعينهم، بركوب حصان خشبي، وقيل لهما بانه سيطير بهما الى الساحر بالمبرونو. سأل سانشو، اذا كانوا فعلا يطيرون في الهواء، كيف حدث اذاً انهم لا زالوا يسمعون بشكل واضح أصوات هؤلاء الذين على الأرض ؟ إنتقص دون كيخوته من قيمة السؤال واعتبر الأمر، ببساطة، ميزة أخرى من مزايا مهمتهم السحرية. إقترح سانشو عندئذ أن يختلسوا، على الأقل، النظر من خلال العصابة كي يروا أين هم. حينئذ يُظهر دون كيخوته كيف ان وهمه المفترض ملتبسا : انه يمنع سانشو أن يزيل العصابة.

لا يجب أن يكون الإيمان مطروحا أمام الأدلّة العقلية. الأيمان لا يصارع العقل؛ انه، ببساطة، يُقحم نفسه بخلق مكان من الفراغ لنفسه. في هذا الفراغ، يمكن لله أن يُدخل الإعتقاد الخفي.

الجمعة

المغادرة الى كندا لتقديم محاضرة في جامعة نيوفاوندلاند.

السبت

زيارتي الأولى لسانت جونز في نيوفاوندلاند. أحسست، على الفور، بأني في مكان غريب، عالم كالجزيرة، مع قوانينه الخاصة، ولغته الخاصة، وخياله الخاص. أضفت سانت جونز الى الأمكنة التي أعتقد بأني يمكن أن أعيش فيها بسعادة.

هبّت هذا المساء عاصفة ثلجية عنيفة على المدينة. من غرفتي في الفندق التي تحتل ركنيها نافذتان كبيرتان، يمكنني أن أرى ندف الثلج وينكسر بلا توقف على زجاج النافذة، كما لو ان المبنى كله يعوم في أمواج بيضاء.

أربع من تجاربي المشهودة مع الطقس حدثت في كندا : هذه العاصفة الثلجية؛ الأضواء الشمالية في مينتوبا؛ إعصار في ساسكاتشوان؛ عاصفة جاءت من المحيط الهادي، شاهدتها من بيت المكتبي، الواقع على جرف نهر كامبل في بريتش كولومبيا.

المناخ موضوع كندي. بالكاد يجري الكلام عن ظروف جوية في دون كيخوته.

الأربعاء

العودة الى فرنسا. مطر وضباب. تسلّقت القطة صاعدة الى برج الحمام، ثم جلست في صندوق محشو بالمناشف تراقب البريكات التي تشكلت في الحديقة:

يريدنا دانتي ان نؤمن بجمال بياتريس، هذا الجمال الخارق الذي يجعل مكانها في الفردوس. يحاول كاتولوس وبتراركا أن يقنعانا بالمفاتن العديدة لمحبوبتيهما. لا يحاول دون كيخوته الخوض في مثل هذه المواضيع. عندما طلب منه التجّار، الذين إلتقاهم في رحلته الأولى، أن يريهم رسم دولسينيا قبل أن يقسموا على جمالها الفريد، أجابهم ((اذا أريتكم رسمها، أي فضيلة ستكون بإعترافكم بهذه الحقيقة الناصعة ؟ أهمية ما أطلب منكم تكمن في أن تصدقوا، وتعترفوا، وتؤكدوا تحت القسم، وتدافعوا عن جمالها قبل أن تروه)).

الشخصيات الأدبية العظيمة، هم ربما هؤلاء القلّة الذين يفوقون دائما قدرات إدراكنا.

لير، الذي لا يمكن إحتماله، جالبا مئة من رفاقه الاقربين الى بيت إبنته، دانتي، خائب الأمل في الحب، تستحوذ على مشاعره فتاة شابة إلتقاها مجرد لقاء عابر، دون كيخوته الميّال للمتاعب، الواهم، مضروبا ومرجوما بالحجارة لأنه يصرّ على أوهامه - لماذا يدفعوننا الى البكاء، لماذا يلاحقوننا، لماذا يلمّحون بانه رغم كل شيء فان الحياة في النهاية لها معنى ؟ انهم لا يقدمون حججا ؛ يطلبون أن نصدق، ونعترف، ونؤكد وجودهم ((تحت القسم)).

الفصل التاسع

شباط

السبت

تملك نيوفاوندلاند، تماما مثل الأمكنة الأخرى " التي تقع في حافة العالم " - فينيستر، لاندز أند، تيراً دل فيوغو - ميزة وقوفها خارج الزمن الإعتيادي. لدى سانت جونز شيئا من " القلعة " في رواية دينو بوتزاتي سهوب التتر (التي أعدتُ قراءتها في طريق العودة في الطائرة) : مكان يبدو من المحال مغادرته، لكن أيضا من المحال بلوغه، مكان راسٍ في روتينه الخاص، حيث لا شيء من الخارج يمكن أن يمسه. ربما لهذا السبب تجذبني سانت جونز.

المدن المفضلة :

* فينيسيا
* هوبارت
* مدريد
* أدينبرغ
* بولونيا
* إستانبول
* بواتييه

* سيليستات
* اوسلو
* بوغوتا
* تيرادنتس
* الجزائر
* سانت جونز

مثل كثير من كتبي المفضلة، رواية بوتزاتي هو الكتاب الذي قرأته في سنوات مراهقتي : قصة دروغو، شاب يُعين في " القلعة "، في أطراف ما يُدعى بـ " سهوب التتر "، يستحوذ عليه هاجس أن يبرهن نفسه جنديا في معركة مع تتر لا يظهرون أبدا. القلعة هي ملاذ صعب : نظام معقد من كلمات السر، ينظم دخولها وخروجها.

أتذكر الشعور بالرعب الذي ينتابني (والذي لا زلت أحس به)، في أن أكون حبيسا في كابوس دروغو من الأسرار اليومية - أسرار مؤتمنة لدى ضابط آمر واحد فقط، يمكن أن يفقد ذاكرته أو يضل طريقه. شبكة من القواعد السخيفة وتهديد من عدو غير مرئي، كانت تعكس عندي، حينها، كل الإحباطات والعجز في عمر المراهقة، والآن تعكس كل الإحباطات والعجز لعمر تجاوز الخمسين.

قلعة بوتزاتي موجودة داخل دوائر طقوسها الخاصة المتحدة المركز ؛ انه مكان سحري مستبعَد خارج الزمن. انه ليس الزمن الذي يتوقف، بل هو، وهذا ما يرعب أكثر، ذلك الزمن الذي يتواصل بإيقاعه الخاص، عازلا القلعة عن بقية الكون. في مكان كهذا، كل شئ في داخلك يصرخ بك أن تبتعد ؛ وكل شئ خارجك يبقيك حبيسا.

هناك مقطع لا ينسى في الفصل السادس، يصف دروغو أثناء نومه، وهو يحلم برحلة الى القلعة تبدو انها لا تنتهي أبدا، وبشكل لايمكنه ان يتخيله. ((هل لا زلنا بعيدين ؟ لا، عليك عبور ذلك النهر في الأسفل هناك، ثم تتسلّق التلال الخضر... بعد عشرة أميال - حسب ما يقال - ومباشرة بعد ذلك النهر، ستكون هناك. عدا ذلك فإنك لن تصل أبدا)).

اتساءل إنْ كانت مثل هذه الفكرة قد طرأت على بال اليخاندرا بيزارنك (وهي قطعا قد قرأت الرواية)، عندما كتبت تلك القصيدة التي غالبا ما يطيب لي تذكرها : ((وهناك دائما بستان الليلك على الضفة الأخرى من النهر. واذا ما سألت الروح. أبعيد هو؟ ستجيب : على الضفة الأخرى للنهر، ليست هذه الضفة بل تلك)).

الأحد

يحتاج دروغو أن يؤمن ان التتر موجودون، وهم يشكّلون تهديدا، كي يبحث عن فرصة لمحاربتهم. انه يحتاج أن يؤمن بوجود "عدو".

في صحيفة الإسبوع الماضي : بالضد من قرار الأمم المتحدة، أعلن ثمانية قادة أوربيون تأييدهم الرسمي لبوش - بما فيهم فاكلاف هافل، الذي أكنّ له إعجابا شديدا. ربما بعد زوال الخطر الشيوعي، فإنه الآن يحتاج أن يؤمن بوجود "عدو" آخر.

بوتزاتي وكافكا (١) : ربما ليس من المستحيل بلوغ العدالة فقط. ربما نحن قد جعلنا الأمر مستحيلا لرجل عادل أن يجاهد في البحث عن العدالة.

يدرك دروغو ان الزمن سوف لن يتوقف، وان الزمن في القلعة مصاغ من لحظات متعاقبة من الحاضر، وبأنه، في كل لحظة من هذه اللحظات، رجل مختلف. في واحدة منها يتمنى لو انه لم يأت الى هنا أبدا، في الثانية يقبل وضعه، بل وفي الثالثة يأمل حتى أن يكون مقاتلا في ساحة المعركة. في الرابعة يدرك أنه ولا أي من هذه اللحظات الحاضرة ستستمر لتكون "الآن" . أنه يصف محاولة أمه ((إحتجاز زمن طفولته))

بقيامها بإغلاق غرفته، بعد رحيله، ويضيف ((وكانت تعتقد، عن خطأ، ان بإمكانها أن تُبقي لحظة معينة من السعادة، إختفت الى الأبد، سليمة لم تُمس، بأنها يمكن أن توقف تبدد الزمن، وبأنها اذا ما فتحت الأبواب والشبابيك من جديد، عندما يعود إبنها، فأن الأشياء ستبقى كما كانت)).

أول إحساس لي بتبدد الزمن : في عمر السادسة أو السابعة، وأنا عائد الى منزلنا بعد العطلة، اذ وجدت بأن كل شيء لم يعد، بالضبط، كما كان.

في طريق عودتي بالطائرة من سانت جونز أعددت هذه القائمة :

حول ثيمة الزمن المعلّق :

* بيوي كاسارس، " اليمين الكاذبة للثلج "
* جيمس هلتون، الأفق المفقود
* كوبو آبي، إمرأة في الرمال
* بيرّو، " الجمال النائم "

* واشنتون ايرفنغ، " رب فان فنكل "

* الفونسو ال سابيو، خرافة الطائر الغرّيد الذي جعل المئة عام تبدو وكأنها لحظات قليلة، في لاس باتيداس

حول الأمكنة التي لا يمكن مغادرتها :

* ليو بلوي، " أسير لونغجيمو "
* بونويل، الملاك المبيد
* سارتر، الأبواب المغلقة
* هانز كريستيان اندرسون، " ملكة الثلج "
* تينيسون، " آكل اللوتس "

حول الأمكنة التي لا يمكن بلوغها :

* لورد دونساني، " كاراكاسون "
* سير توماس بولفنش، قلبي في هايلاندز
* سِفر التكوين، " يوكالي "
* كافكا، القلعة

لاحظ بوتزاتي، منذ إمتهانه الكتابة، بأن الناس يسمعون صدى كافكا في اعماله.

بسبب هذا، قال، إنه لم يشعر ((بعقدة نقص)) وإنما ((بعقدة إزعاج)). على أثرها فقد كل رغبة في قراءة أعمال كافكا.

الأثنين

لقد إكتشفت لتوّي أن كلب لورد بايرون، بوتسوين (الذي نظم من أجله كلمة مثيرة للمشاعر نقشت على قبره)، ولد في نيوفاوندلاند.

الثلاثاء

كلمات السر التي تستخدم للدخول وللخروج من القلعة، تعتمد على الوقت، لأنها تتغير يوميا، والجندي الذي ينساها سيتعرض للخطر أو يُترك خارجا الى الأبد. كلمات مشفرة عليها أن تضبط وجود كل جندي. لغة الجيش المشفرة، اللغة المعتادة للحرب، تحاول أن تضع العالم في محيط إستبدادي ومحدد. بدونها سيغدو القتال مستحيلا.

طريقة بوتزاتي في كلمات السر توافق العبارات المزدوجة لبوش : الخير والشر، هم ونحن، أسود وأبيض، خطأ وصواب. في " أغنية رولان " في القرن الثاني عشر : "Païens ont tort et Chrétiens ont droit "*

أرنست براهام في ساعات كي لونغ الذهبية : ((من الصعب التوقع، أن شخصا قضى حياته تحت المظلة الرسمية، يملك تحت أمرته تحديد الخيط الرفيع بين الظلمة والنور)).

الأحد

تبدو الحرب وشيكة الوقوع، ومستحيلة أيضا. النظرة التي تقدمها الصحف الأوربية عن النزاع مجرد نظرة إستعارية : القوة الأمريكية في شكل وحش متصلّب يهاجم وحوش أخرى. وبما اننا لا نؤمن بالتنين، فإن

* – بالفرنسية : "الكفرة مخطئون والمسيحيون مصيبون" .

هذه الإستعارة محض هراء. تقترح إفتتاحية الجريدة . "World Economy requires the War Machinery"* اللندنية ديلي تلغراف إن نحن في مملكة الحروف الإستهلالية الكبيرة المشددة.

إتصل بي رون رايت هذا الصباح، من بورت هوب. حسب تعبيره إن خطط بوش المتنمرّة إشارة الى " نهاية الديمقراطية ". أتفق معه في هذا، لكني أتسائل اذا ما سنكون يوما شهودا على أحداث جسام (مثل " سقوط الإمبراطورية الرومانية"، " فتح أمريكا "، " الهولوكوست ")، أو نكون دائما محصورين في زاوية ضيقة من الصورة، التي نستطيع، في أحسن الأحوال، ان نحدس فقط ما يحدث فيها. ربما يجب أن نعوّد أنفسنا على الإكتفاء بالتفاصيل فقط.

فولتير : ((اللعنة على التفاصيل، الأجيال القادمة لن ترى كل هذه الأشياء)).

الأهداف المشبوهة لكلا الطرفين في هذا النزاع تجعل من الصعب الإلمام بصورة واضحة عنه. يحتاج الواحد منا الى قدرة بوتزاتي بالحفاظ على التماسك وسط هذا التغير المستمر لوجهات النظر. بالنسبة لبوتزاتي، حتى وجهة نظر القارئ يجب تناولها في القصة، بما أن القرّاء، هم، أيضا، مسؤولون عن الأحداث. ((أنظر كم يبدوان صغيرين)) يخاطبنا بوتزاتي مشيرا الى دروغو وحصانه، ((كم هما صغيران بجانب الجبال، التي ما تفتئ تغدو أكبر ومسالكها تصبح أكثر وعورة)).

لا شئ بطولي في التلويح بالحرب؛ نحن نعرف بأن الدوافع التي تقود القوات الإنجلو- أمريكية هي دوافع إقتصادية أكثر منها إنسانية.

* - "الاقتصاد العالي يتطلب آلية الحرب" .

من جانب آخر، في قصة بوتزاتي، ينشأ الشعور المأساوي بالسخف، الذي ينهك القارئ بصفة خاصة من العبث التام للعمل البطولي. لا أسباب إنسانية أو إقتصادية يمكن أن تكون هي الدافع. الحدود ليست هي المشكلة، في سهوب التتر لم ير أحد، يوما، أي تتري، لم يُمنح الأبطال، أبدا، فرصة في أن يكونوا بطوليين.

دروغو : ((اذاً، القلعة لم يكن لها أبدا أي نفع مهما كان ؟)).

الكابتن : ((على الإطلاق)).

روى لي أحدهم هذه المزحة : إلتقى موشيه صديقه ياكوب، في الطريق الى قريتهما : ((أنا مغادر الى أمريكا)) قال ياكوب، ((قريبا سأكون بعيدا)). موشيه : ((بعيدا عن ماذا ؟)).

الاثنين

نهار مشمس رائع، ومنعش البرودة. أتى جاري حاملا هدية من بيض طازج، وبقي حوالي ربع ساعة تحدثنا فيها عن أخبار النزاع في العراق. كم سيكون أمرا غريبا لفلاح عراقي، عندما يعرف بأن مصيره مدار حديث في قرية فرنسية صغيرة في الجانب الآخر من العالم.

يسأل دروغو نفسه، وهو ينظر الى الجندي الذي يسلمه القواعد والقوانين الخاصة بكلمات السر، ماذا بقي منه بعد اثنين وعشرين عاما في القلعة : ((هل ما زال يتذكر بأن هناك، في مكان ما، ملايين من البشر مثله لا يرتدون البزة العسكرية ؟ ناس يتجولون بحرية في المدينة، ويمكنهم في الليل الذهاب الى فراشهم أو الى الحانة أو الى المسرح، أو يفعلوا ما يحلو لهم ؟)).

((العين التي أرى الله بها هي نفس العين التي يراني الله بها))
كتب ميستر إيكهارت.

الأربعاء

من كتاب الصلوات المحرّف : ((يكشف الله ما نعجز عن فهمه في سطوع تام، أمّا ما يمكننا فهمه، فيخفيه وراء ألغاز)).

غالبا ما تراودني هذه الفكرة : ان الإنطباع (المزيف) بكوننا قادرين على أن نرى أمامنا كل خريطة الأحداث، والوضع بمجمله، يجعلنا نصدق بأن الخيارات الأخرى مفتوحة أمامنا. أقول لنفسي ((أنا جالس هنا، في حجرتي، لكني يمكن في مكان آخر، أن أقوم بشئ جد مختلف)). كما لوأنك تقول ((يمكنني أن أحيا حياة أخرى، يمكنني أن أكون شخصا آخر)).

بوتزاتي وكافكا (٢) : دروغو مسكون برغبته المستحيلة بالهرب. ((لماذا لم يغادر في الحال... لماذا إستسلم ؟)).أسئلة دروغو تضاعف من تأكيد حتمية وضعه. انه يتخيل الهرب، فقط لأنه مستحيل. كافكا في يومياته : ((اذا تمنيت بشدة أن أصبح رياضيا، هل سيكون ربما الأمر نفسه لو تمنيت أن أذهب الى الجنة وأن يُتاح لي أن أكون يائسا هناك كما أنا يائس هنا ؟)).

حياة وأوقات لباي تشو- يي، من القرن التاسع : ((وهو سائر نحو المشنقة، إلتفت لي تزو الى إبنه قائلا هذه الكلمات : " آه، ليتنا كنا في شانغهاي، نصيد الأرانب البرية بكلابنا البيضاء ")).

في ما بعد

لاحظت ان الفيلسوف جون راولز، الذي توفي العام الماضي، قد تمّ إحياء ذكراه من قبل ناشره بهذا الإسشهاد :

وجهة النظر الخالدة، هي ليست نظرة من مكان معين يقع وراء العالم، وليست وجهة نظر كائن متعال، انها بالأحرى شكل معين لأفكار ومشاعر يمكن لأشخاص عقلانيين أن يتبنوها، في هذا العالم. وانهم اذ يفعلون ذلك، بصرف النظر عن الجيل الذي ينتمون اليه، فإنهم يأوون في نظام واحد كل وجهات النظر الفردية، ويبلغون جميعا مبادئ منظمة، يمكن أن يتفق عليها الجميع، كما لو كانوا يعيشون في عصرهم، كل من وجهة نظره الخاصة. اذا إستطاع المرء بلوغ نقاء القلب فإن بصيرته ستتفتح، وسيتصرف بسماحة وتحكم في النفس إنطلاقا من وجهة النظر هذه.

الشاعر الفلسطيني محمود درويش : ((أنا وحدي جيل بأكمله)).

الخميس

أرسل لي صديقاي غوتوالد ولوسي كتابا مصورا رائعا عن " رقصة الموت " في مارنيكيرتش في لوبيك، التي زرناها معا قبل عام مضى. في مشهد يناقض كل خلفية للمدن، والموانئ، والريف، يُقاد كل فرد من المجتمع في رقصة، على شكل صف جماعي مروّع، متشابكي الأذرع مع هياكل عظمية مكسوّة بالأكفان. يبدو الجو متعارضا مع فظاعة الموت ؛ إنه في الواقع يجعل من الموت أمرا مألوفا في حياتنا، إنه تذكير بما نحمله في داخلنا. هذا التذكير، حاضر بإستمرار في عمل بوتزاتي.

بوتزاتي في دفتر ملاحظاته : ((كل الكتّاب والفنانين، مهما عاشوا من عمر طويل، يقولون شيئا واحدا متشابها)).

في " موت إيفان إيليتش "، يصف تولستوي تقدم إيفان نحو الموت، مثلما لو أنك في قطار، وفجأة يتولد لديك إنطباع بأنك تسافر في الإتجاه المعاكس، ثم يتبين أنك مخطئ.

الإحساس الذي تملكني بإستمرار في سهوب التتر، هو انني لم أقرأ وصفا للموت بقدر ما هو وصف لنوم طويل، يشبه أحيانا اليقظة.

الموت وشقيقه النوم : النسخة الأولى من هذا الوصف وجدتها في ملحمة جلجامش، ٢٠٠٠ قبل الميلاد : ((كم يتشابه النائمون والموتى، كأنهم موت مرسوم)).

توحي سهوب التتر بأن الموت أليف. أشك بذلك، فعلى الرغم من مئات مشاهد الموت على شاشات التلفزيون، كل إسبوع، فإن الموت لم يغدو لنا أليفا تماما. نحن نخفي موتنا في المشافي ودور العجزة، ونوهم أنفسنا بأننا ننتقل فقط من أن نكون هنا الى أن لا نكون هنا، بلا تحوّل، كما لو أن الشاشة تصبح فجأة بيضاء تماما. لا يخطر لنا أن هناك ممر.

أعتقد ان الجماجم، التي كان العلماء في القرون الوسطى يضعونها على طاولاتهم بوصفها memento mori (تذكار بالموت)، كانت نافعة للتسليم بحالة سننتهي اليها، واننا نحملها كـ مسبقا في داخلنا. لا أعرف لماذا نتحدث عن التحوّل عندما نشير الى الموت ؛ نحن لا نتغير، نحن بالكاد نعرض الجثة التي فينا.

هنري ميشو : ((كيان الإنسان الجوهري، ذرّة ليس إلاّ. وهي الذرّة التي يبددها الموت)).

كُتب في صحيفة اليوم عن جرّاح ألماني تحوّل الى فنان، أقام معرضا لجثث بشر وحيوانات في أوضاع مختلفة. من الواضح ان عدد من الناس كانوا قد تبرّعوا بأجسامهم اليه ليستخدمها بعد وفاتهم. الآن، أعلن هذا الجرّاح انه سيقوم بتشريح هذه الجثث أمام الناس.

إبتذال مثل هذا العرض مثير للإستغراب، وهذا الابتذال الذي يبيح له إستخدام الموتى، يجعل من عمل هذا الرجل مقززا.

حكى لي توماس ايلوي مارتينيز عن زيارة الممثلة نورما الياندرو، ذات يوم، لمزرعة مواشي كبيرة، في مكان ما في باتوغونيا. عرض اصحاب المزرعة الأثرياء، الفخورون جدا بملكيتهم، على الممثلة مقتنياتهم الثمينة من لوحات قيّمة وأعمال خزف، وكتب. قال مضيفوها، وقد شجعهم حماسها المجامل، بأنهم سيروها قطعتهم المفضلة، فقاموا بوضع نسخة صغيرة من ديوان شعر لغوته بين يديها. أبدت الياندرو إعجابها بالملمس الناعم للكتاب، وجلدته المزينة الرقيقة. ((أجل، لا بد أن يكون كذلك)) قالوا ((إنه مغلف بجلد بشري)).

مات شخص كنت أحبه. آخر مرّة كنت معه، جعله الموت، بما يشبه السحر، يبدو وكأنه إستيقظ من جديد في الماضي، شابا، كما هو حين كان دون تجربة في الحياة، وسعيدا لأنه كان يعرف بأن كل شئ لا زال متاحا له.

الأحد

نهار بارد، منعش، مشمس.

صديقة تكتب في رواية منذ ثماني سنوات، خائفة من إنجازها.

تدبّج المسوّدة إثر الأخرى، وتنقّح مرّة تلو الأخرى، مؤجلة، أكثر من مرّة، موعد تسليم روايتها الى الناشر، لأنها تعرف، بالطبع، بأنه حالما يُطبع الكتاب فإن كل أمل، في أن يكون مشابها للرواية التي في ذهنها، مقضي عليه، وانها ستكون أمام مخلوق مستقل عن إرادتها ورغبتها.

بوتزاتي وكافكا (٣) : سمع دروغو أخبارا عن كتيبة من جند التتر، ربما انها، في آخر الأمر، تتقدم في طريقها نحو القلعة. ولأنه أحسّ بالضعف على القتال، قال دروغو لنفسه ربما تكون الأخبار غير صحيحة. ((لقد تمنى أن لا يرى أي شئ على الإطلاق، وأن يكون الطريق الى القلعة مهجورا، وما من إشارة لحياة. هذا ما كان يأمله دروغو، هو الذي ضيّع كل حياته بإنتظار العدو)).

الأربعاء

أنهيت أمس سهوب التتر . كانت الصفحات الأخيرة مدهشة، تردد صداها في رأسي وأنا أسير في الحديقة والقطة تتبعني. عندما مات دروغو (بعد أن أصبح عجوزا، مع رغبة لم تنجز لمقاتلة التتر)، كان بوتزاتي موجودا ليواسيه. عند موت دون كيخوته لم يجد سرفانتس كلمات يودع بها صاحبه، ومخلوقه أو خالقه، لم يكن بوسعه سوى أن يتمتم : ((روحه غادرت، أعني، إنه مات)). في موت دروغو، يقول بوتزاتي لمخلوقه، بأنه لا زال ثمة معركة أخرى وأفضل بإنتظاره، ليست أمام التتر، ليست أمام ((ناس، عذبهم مثله توقهم وآلامهم، ناس لهم أجساد تُجرح ووجوه يُنظر اليها))، لكن ((أمام كائن هو شيطان وكلّي القدرة معا)). واضاف بوتزاتي الى كلامه هذا القول : ((كن شجاعا يا

دروغو، إنها تذكرتك الأخيرة للذهاب الى الموت كجندي، ودع حياتك الخاطئة تنتهي، على الأقل، على خير وجه. خذ، في النهاية، ثأرك من القدر. لا أحد سوف يتغنى بمجدك، لا أحد سوف يدعوك بطلا أو شيء من هذا القبيل، لكن لهذا السبب بالضبط يستحق الأمر الجهد. اعبر الى الضفة الأخرى بخطوة راسخة، منتصبا كما لو كنت في موكب إستعراض، واذا إستطعت، مبتسما حتى. في النهاية، ان ضميرك ليس مثقلا، ويقينا ان الله سيمنحك المغفرة)).

في ساعاتي الأخيرة من الحياة هذه هي السطور التي أتمنى أن أتذكرها.

الفصل العاشر

آذار

الاثنين

قرأت ان أرفي جوبير إشترى كتاب ريلكه رسائل الى شاعر شاب كي يقرأ نفس الكتاب في نفس الوقت الذي يقرأه فيه عاشقه، الذي كان مسافرا بعيدا.

المصادفات (حتى تلك المثارة عن عمد)، فرصة لقاء صديق لم أره منذ زمن طويل، مذاق المشمش، العثور على كتاب كنت أبحث عنه، ضوء الغسق في هذا الوقت من السنة، صوت الريح في مدخنة المنزل، الهدوء التام والظلام قبل الإستغراق في النوم : كل هذه، هي لحظات غير متوقعة من السعادة. لكن ثمة لحظات أخرى سعيدة تنشأ من لا شئ : لا أحداث، لا أفكارخاصة، لا إحساس بالرضا. مشاعر جاهلة تماما بأسبابها، صامتة، مفاجئة وغامرة.

أول من دلّني على قراءة كتاب الوسادة لساي شانغون، كانت سيلفينا اوكامبو.

((ستحبه)) قالت لي، ((لأنك مولع بإعداد القوائم)).

النسخة التي عندي الآن من كتاب ساي شانغون (فقدت النسخة التي أعطتني اياها سيلفينا) تتضمن مقدمة بقلم المترجم الإنجليزي إيفان

موريس، يشرح فيها ان كتاب الوسادة، في يابان القرون الوسطى، كان، ببساطة، عبارة عن دفتر ملاحظات، يُحفظ بعيدا عن أعين الآخرين، في درج وسادة من الخشب. يتضمن ملاحظات شخصية، وإغتياب في أمور الآخرين، وإنطباعات عن أحداث يومية، وأهم من كل شئ قوائم. تناولته الآن وأنا أفكر بأنه كتاب من الملائم جدا قراءته في وقت متفكك.

وفقا لنوفاليس، أن الفردوس، بعد خطيئة آدم، إنتشر متفككا الى شظايا عديدة وصغيرة فوق كل الأرض. لهذا من العسير العثور عليه.

أدركت أني افكر بتفكك. عندما أفكر بسلفينا، ما احفظه عنها في ذاكرتي هو بورتريه مركّب، مؤلف من صور ونتف أحاديث، بدرجات متفاوتة الحدّة مستلّة من محيطها، أو متحولَة من خلال إعادة روايتها أو نسيانها. أتذكر صوتها الأجش والمرتعش على الهاتف، خط يدها الكبير العنكبوتي، النظارة المعتمة التي تحجب عينيها لأنها تعتقد أن وجهها غير جذاب، الشقة المملوءة بالكتب التي كانت تشارك بيوي كاسارس العيش فيها. أتذكرها وهي جالسة في المقعد وأحد ساقيها محني تحتها، تبتكر ألعابا لضيوفها، تقرأ بصوت عال قصصها وأشعارها. أتذكر انها قالت عن كتاب ساي شانغون ((كم هو رائع أن لا تبالي ببداية أو بنهاية)).

كانت ساي شانغون وصيفة لزوجة إمبراطوراليابان، في السنوات الأخيرة من القرن العاشر. قال عنها معاصرها موراساكي شيكيبو - مؤلف أول رواية نفسية في العالم، وهي رواية قصة جنجي - : ((إنها إمرأة موهوبة بلا شك. لكن اذا أطلق المرء العنان لمشاعره، حتى في ظل أكثر الظروف غير ملائمة، وحاول أن يختبر كل ما يحدث، سيعتبره الناس إنسانا طائشا. كيف اذاً ستؤول الأمور لإمرأة مثل هذه ؟)).

جين أوستن في واحدة من رسائلها : ((أفضل أن لا يكون الناس ودودين جدا معي، إذ ان هذا سيوفر عليّ عناء أن أعجب بهم بشكل كبير)).

الثلاثاء

مثل لقطات كلوز- آب في فلم تسجيلي، تمنح الصور الوصفية القصيرة في كتب المذكرات شعورا بالحاجة الملّحة للكتابة. شاتوبريان بارع في هذه الصور البلاغية.

تعطي ساي شانغون مثالا عن " الناس الذين يبدون انهم معجبون بأنفسهم " : ((رجل إستلم منصب الحاكم في واحدة من المقاطعات المهمة، خلال فترة التعيينات الرسمية. " منصب رائع !" قال الناس مهنئينه بحرارة، أجابهم بإعتداد، " ماذا تقولون؟ لقد دُمرتْ ")).

لاحظت ان المرأة التي يبدو انها تراقب الرجل عن كثب، تجعله لا يشعر بالإرتياح.

يكتب شيللر الى غوته عن خادمته مدام دو ستايل : ((انها تريد تفسير، وفهم، وقياس كل شئ، انها لا تقبل شئ مبهم، متعذر فهمه، لا يسبر غوره، وبالنسبة لها لا شيء في الوجود لا يمكن إنارته بمصباحها)). ثم يختتم ((ليس لها أدنى شعور بذاك الذي ندعوه نحن الشعر)).

يظهر أن جزءاً كبيرا من الحياة الإجتماعية لساي شانغون يدور حول تدبير المكائد والتآمر والنميمة ومداهنة الإمبراطورة. لم تشبه كتاباتها أبدا الأعمدة التي تُنشر في صحف التابلويد أو مقالات ناشرو الفضائح.

أخلافها هم جون أوبري وجين أوستن وآيفي كومبتون برنيت وباربارة بيم. ((اذا كنتُ قريبة من أحد ما، فإني أدرك أنه يكون أمرا مؤلما أن أتكلم عنه بالسوء، وعندما تسنح فرصة للنميمة فإني ألزم الصمت. لكن في حالات أخرى أقول كل ما يدور في ذهني فأجعل الآخرين يغرقون في الضحك)).

الخميس

تمطر رذاذا ناعما. تجلس القطة على عتبة باب مكتبي، تراقب الحديقة المغرقة بالماء. قرأت لها بصوت عال هذا المقطع من كتاب الوسادة : ((عندما ترحل بعيدا وتواجه الشمس التي تشرق بأشعة قرمزية في الشرق، فكر حينئذ بأصدقائك الذين تركتهم وراءك، وهم في المدينة يغمرهم المطر اللانهائي)).

انه يوم ميلادي، بلغت فجأة الخامسة الخمسين. يحكي فكتور هيغو كيف إلتقى البابا بيوس التاسع بإبن أخ هيغو جول، وسأله عن عمر عمه: ((خمسة وخمسون)) أجاب إبن أخيه، ((واحسرتاه)) هتف البابا، ((أصبح عجوزا على الرجوع الى الكنيسة)).

لسنوات عدّة، أجلس دائما على طاولتي في يوم ١٣ آذار لأكتب شيئا (حتى لو كانت جملة واحدة). ينتابني شعورا بأني اذا ما سطّرت بضع كلمات، فإن هذا الفعل، بطريقة ما، سيلوّن، اذا جاز القول، كل أيام السنة القادمة، وسوف لا أشعر بالفراغ.

بعدئذ يأخذ الروتين اليومي مجراه : تجهيز وجبة الغداء، القيلولة، قراءة الجريدة.

أتخيّل " مكتبة عاطفية " تضم تلك الكتب التي أتمنى كثيرا أن تكون بحوزتي، لمجرد قيمتها التاريخية :

* نسخة أليس ليدل من أليس في بلاد العجائب
* " البوالو " التي قرأها جيد أثناء إبحاره الى الكونغو
* " سيسيرو " لسانت أوغستين
* نسخة من أوراق العشب، التي أعطاها والت ويتمن لعاشقه بيتر دويل
* " تشابمان هومر " لكيتس
* نسخة والاس ستيفنس، من ديوان أشعار لكيتس، المعلق عليها بحواشي
* " ارسطو " لآفيرويس
* نسخة المسخ التي أهداها كافكا الى أبيه
* نسخة فصل في الجحيم لرامبو التي أُعطيت الى معلمه جورج ايزمبار
* نسخة ميشيما من فصل في الجحيم
* نسخة أخماتوفا من دانتي معلق عليها بحواشي بخط يدها
* نسخة جون غيليغود من العاصفة
* آماديس التي كان يملكها سرفانتس
* نسخة فرويد من الرجال يفضلون الشقراوات

في ما بعد

رفض بوش وبلير الإستماع الى مطالب رئيس مفتشي الأسلحة هانز بليكس بمنحه مزيدا من الوقت. يبدو الأمر أكثر وضوحا بان الإنجلو-أمريكان لم يعودوا بحاجة لأي عذر لشن الحرب.

ساي شانغون : ((هناك أوقات تجعلني ساخطة جدا على الحياة،

لأني أشعر بأني عدت لا أحتمل العيش فيها لحظات أخرى، وتحدوني رغبة في الإختفاء الى الأبد. لكن اذا حدث وأن حصلت على بضع أوراق بيضاء، ورق ميكينوكو، أو ورق أبيض مزخرف، أقرر عندئذ بأنه يمكنني تحمّل الأشياء كما هي مزيدا من الوقت)).

السبت

كانت الحياة في القرن العاشر الياباني رتيبة بشكل معذب للنساء في البلاط الإمبراطوري. فهنّ خاضعات لطقوس موسوسة من السلوك اللائق، وبالكاد يستطعن أن يفعلن أكثر قليلا من نظرة من وقت لآخر، لمعرفة ما يدور في عالم الرجال. كنّ محاصرات في مكان محدد، يُتوقع منهن أن يتحركن ويأكلن ويتكلمن بإسلوب معين مفروض عليهن. وبينما كانت اللغة المقبولة في البلاط هي الصينية، تعلمت النساء اللغة اليابانية فقط، فقد كان يُظن إنهن غير مؤهلات لتعليم أدبي جدّي.

في محيط كهذا، أساءل نفسي فيما لو أن مثل هذه السطور الآتية، التي تصف النشاطات الذكورية، يجب أن تُقرأ بسخرية: ((إنه لأمر مبهج أن يتلو رجل قصائدا عن الفجر، وهو على ظهر حصانه)).

أي نبرة يمكن أن نضفيها على نص كُتب قبل عشرة قرون، في لغة لا نستطيع قراءتها، على يد إمرأة لا يمكننا أن نتخيل الظروف التي عاشت فيها.

أستغرب، أحيانا، أن تقع الكلمات بالضبط في سياقها الصحيح، عندما أتابع أثناء الكتابة فكرة معينة، كما لو أن الأشكال والأصوات عند حل هذه الفكرة، تعود الى ترتيب مسبق يبدو صحيحا تماما. كما لو

أن الكلمات كانت متكتلة منذ البداية في شكل لا أستطيع، عن بعد، تبينه إلاّ بشكل مبهم، وحين إقتربت منها، كشفت عن شكلها الكامل، الواضح والممكن فهمه. عند حدث مثل هذا، تبدوالكتابة كما لو أنها تتضمن رؤية شيء ما بوضوح، كان هناك منذ البداية.

كتب ايفان موريس، ان التكرار في القرن التاسع الياباني أُستخدم كبلاغة إسلوبية مدروسة : ما يبدو أخرقا على مسامع الإنجليزي أو الإسباني، يصبح في أذن الياباني " نوعا من اللازمة الشعرية ". تحذير الى المترجمين الأدبيين، في محاولتهم إعادة بناء النص كلمة فكلمة في لغة أخرى، بأن لا ينسوا بأنه ليست وسيلة الكتابة هي التي تختلف فقط، وإنما حساسية المستمع أيضا.

في كتاب الوسادة، إختيار كلمة واحدة صحيحة يمنح إصالة لملاحظة عادية ومختلفة : ((ضوء القمر يجعلني أفكر بالناس البعيدين عني)).

من ناحية أخرى، الكلمة الخطأ تجعل من ملاحظة أصيلة تبدو عادية: ((لم أصادف أحدا أبدا له أذن حادة مثل أذن وزير الخزانة ماساميتوس. أظن إنه قادر على سماع صوت هدب جفن بعوضة يسقط على الأرض)).

أهمية " الكلمة الصحيحة " : أثناء رحلته الى البرتغال، سأل بورخس صحفيا، كان يجري مقابلة معه، إنْ كان الملك مانول الثاني (الذي كان بورخس قد كتب قصيدة عنه) في السادسة عشر من عمره حين فُقد في صحراء شمال أفريقيا. ((لا)) أجاب الصحفي، ((كان الملك في الرابعة والعشرين من العمر عندما إختفى)). ((أوه)) قال بورخس، "وعليه يجب ان تكون الصفة في القصيدة ليست mágico disierto (صحراء سحرية) بل mástico disierto صحراء غامضة).

لكن حتى الكلمة الصحيحة ليس بمستطاعها أن تقوّم مخلوقا كسيحا، كما يشير دون كيخوته وهو يتذكر فنانا رسم، مرّة، ديكا بشكل ردئ جدا، الى الحد الذي ((إحتاج فيه أن يكتب بحروف كبيرة على جانب اللوحة، هذا ديك)).

ساي شانغون لم تكن تحتاج أن توضح أي شيء.

الأحد

تسلمت رسالة من لويس شوارز في البرازيل، يخبرني فيها بأنه يفكر بتحرير سلسلة عن الأبطال الأدبيين، ويسألني عن الأبطال الذين يمكنني أن أختارهم. قائمتي ليس طويلة كما إعتقدت :

* أليس
* سانشو
* لورد جيم
* أمير بوهيميا فلوريزل
* واكفيلد
* مستر بوند
* بيتر شليمل
* بينوكيو

تعد ساي قائمة بما تعتبره " مواضيع شعرية ". القائمة نفسها تُقرأ كقصيدة شعر :

العاصمة. نبات الآروروت. أعشاب المستنقعات الشوكية. الأمهار. البَرَد. عشب الخيزران. أوراق البنفسج المدوّرة. الأشنات. شوفان الماء. زاورق النهر المسطحة.

بط الماندرين. قصب شيغايا المتناثر. المروج الخضراء. الكرمة الخضراء. شجرة الكمثرى. شجرة العنّاب.

ثمة إعتباطية سحرية معينة في وضع القوائم، كما لو أن المعنى قد نشأ من التداعي فقط.

قائمة ساي شانغون حول " أشياء تمنح شعورا بالوساخة " :

وكر الجرذ.

المخاط الأبيض، والأطفال الذين ينشقون مرارا وهم يمشون.

الوعاء الذي يستخدم للزيت.

الشخص الذي لم يستحم لفترة طويلة، حتى لو كان الجو حارا.

كل الملابس الباهتة... لا سيما تلك التي بألوان لامعة.

والد سينيكا سأل البوسيوس سيلوس (القرن الأول) أن يعطيه أمثلة عن مواضيع وسخة (sordidissima)

أجاب ((حيوان الكركدن. مرحاض. إسفنج. حيوانات مدللة. . ناس داعرون. أكل. موت. حدائق.)).

كتب صدام حسين رواية تحت إسم مستعار، لكن كل شخص في العراق كان يعرف من هو المؤلف الحقيقي. أخبرني صحفي عراقي منفي في برلين منذ عام ١٩٩٩، بأنه بعد تعرّض بيته للمداهمة من قبل أتباع صدام، قتلوا أباه وأخاه ثم أوسعوه ضربا حتى كاد يفقد الوعي، واحد من

هؤلاء الرجال إقترب منه ووضع بجانبه رواية صدام، قائلا له بأنه يمكنه الآن أن يحاول قراءة ((شيئا جيدا على سبيل التغيير)).

الاثنين

شظايا الأخبار عن الحرب الوشيكة تتناوب بكثرة. صور تلفزيونية بلا معنى، تعرض مشاهد رتيبة في الصحراء، وتجمعات غير واضحة من الجنود. وأنا أتنقل بين القنوات، إستحوذ عليّ شعور مقزز من التفكك، من الشظايا، التي لا ينجم إفتقارها الى المعنى من واقع انها شظايا أو قطع، بل من واقع انها تنتمي الى كل مفكك. بعد الحربين العالميتين، ربما كانت الأصوات الهائلة الشاجبة والشارحة والمحذرة من المستقبل، تبدو مبهمة، طالما كان الإطار الذي تدور فيه قد تم تجاهله. اليوم، ليست هذه القطع الا مجرد صدى لحالة عامة من التفكك. لم يتم القيام بأي مسعى لإخفاء الحماقة، وما من أعذار قُدمت لتبرير الأفعال السخيفة. (جورج بوش الأب : ((أنا لن أعتذر عن الولايات المتحدة))). الإعتراضات التي أثيرت ضد الحرب، الحجج المبنية على القانون الدولي، الطلبات المتكررة بالتفسيرات، التقارير الرسمية للجان، الوقائع والأرقام المنشورة في الصحف، كلها أصبحت مجردة من معانيها، في الخطب المجنونة لهؤلاء الذين يملكون القوة.

أقترح تاليف كتاب الوسادة لقادة العالم، ليوزع مجانا على تجمعات القمة. أسهم بإستشهادين :

من النشيد الرابع في لوسيداس لكامويس : ((آه، ما أشدها من حماقة، هذه الرغبة المجنونة بالسلطة، هذا الظمأ للغرور الذي ندعوه

مجدا، هذه المتعة الزائفة المعروفة بالشرف والتي تزدهر بأحترام شعبي ! اذا إستسلمت الروح المبتذلة لإغرائها، أي ثمن تبتز، وبأي حق، بشكل أخطار وعواصف وعذابات وموت حتى ! انها تدمر كل سلام للجسد والروح، وتقود الناس الى نبذ وخيانة أحبتهم، تلتهم، بشكل لامرئي، لكن لا ينكر أيضا، دولا، وممالك، وإمبراطوريات. يدعونها متألقة ومهيبة، بينما تستأهل بدلا من ذلك أن تدعى خزيا وعارا ؛ يسمونها الشرف والمجد المطلق، مجرد أسماء يخدع الناس العاديون أنفسهم بها لجهلهم)).

من في تمجيد الحماقة لايراسموس: ((أنا، كما ترون، وعاء حقيقي لكل الأشياء (الحماقة)... لا اتزيّن، لاأزيف هيئتي لأظهر Stultitia الحسنة، أنا ما يدعوها اللاتين مشاعرٌ، قلبي لا يحويها. أنا كما أنا، اذ ان حتى أولئك الذين يظهرون، بأكثر ما يمكنهم من حماسة، قناع وإسم "الحكمة"، لا يستطيعون إن يخفوني ؛ انهم يتجولون مثل قرود بملابس مبهرجة ومثل حمير بجلد أسد)).

الثلاثاء

ساي شانغون نفاجة، تبجّل العائلة الإمبراطورية، تحتقر الطبقات الدنيا من الناس، لا تبالي بحياة أولئك الذين هم خارج البلاط. مع هذا فإن شظاياها، خارج إطارها التاريخي، تكتسب معنى بالنسبة لنا، قرّاءها المستقبليين. نحن نتجاهل التقاليد التي تحكم حياتها اليومية، تسلسل أفكارها، إظهار عواطفها، مع هذا فاننا نشعر أن أحكامها صحيحة. مثال :

((عندما يتوقف امرؤ عن حب أحد ما، فإنه يشعر انه أصبح شخص آخر، حتى لو ظل هو الشخص نفسه)).

في قصة إسه، مجموعة من النثر والشعر كُتبت في زمن ساي شانغون :

هل ذاك هو القمر ؟
أليس هو الربيع نفسه
ربيع أيامنا الخوالي ؟
جسمي هو نفسه
لماذا اذاً يبدو كل شئ مختلفا ؟

ورد في صحيفة ان الشركة العالمية NCR تموّل أبحاثا، في جامعة ساوث كاليفورنيا، لإختراع آلة يمكنها ان تقرأ وتفسر التعابير العاطفية التي تظهر على وجه الإنسان.

الخميس

على الرغم من القرار المعارض للأمم المتحدة، بدأ الأمريكيون بقصف بغداد.

يُعرض هذا الهجوم، وبشكل متواصل، على التلفزيون من خلال شاشة سوداء تظهر إنفجارات عرضية من الضوء تشير الى ضربات الصواريخ.

كتب كافكا الى صديقه اوسكار بولاك في يوم الأحد ٢٤ آب ١٩٠٢ : ((أنا جالس الآن على مكتبي الجميل. أنت لا تعرفه، وكيف

لك أن تعرفه ؟ مكتب برجوازي جيد ومرتب جدا، ملائم للتعليم. يوجد فيه، حيث تكون عادة موضع ركبتا الكاتب، حافتان خشبيتان كريهتان. والآن إنتبه لما سأقوله. عندما يجلس المرء بهدوء وبإحتراس، ويكتب شيئا لطيفا وبرجوازيا، فإنه سيكون بأحسن حال، لكن ياويله لو أثير هذا المرء وإنتفض بجسده ولو قليلا، عندها ستنغرز هاتان الحافتان في ركبتيه، ويا له من ألم. يمكنني أن أريك الكدمات الزرقاء على جسمي. ماذا يعني هذا اذاً ؟ " لا تكتب شيئا مثيرا ولا تسمح لجسدك أن ينتفض")).

الجمعة

كم هو غريب أن تتعارض الكتب، التي اختار قراءتها في لحظة معينة، مع مزاج هذه اللحظة. ليست تعارضات شديدة، الأرجح إنه تغير الجو.

أقرأ الآن قصة بوليسية كلاسيكية، يكون لجريمة القتل فيها سبب منطقي. في تسطح تقول مرغريت أتوود، على لسان الراوية، عن القصص البوليسية : ((راحة باردة لكنها راحة، فالموت منطقي، هناك دائما دافع. ربما لهذا السبب هي تقرأ هذه القصص، من أجل طبيعتها اللاهوتية)).

أنا منهمك أيضا بمجموعة مقالات ممتازة لستيفنسون مذكرات وصور شخصية وفيها يشير ستيفنسون لماذا : ((الحياة شديدة البشاعة، لا متناهية، غير منطقية، فظة ولاذعة ؛ العمل الفني، بالمقارنة معها، رائع، محدود، متميز، منطقي، فيّاض وضعيف)). أعتقد ان هذا يعرّف كتاب الشظايا لساي سانغون.

ساي شانغون حول القراءة : ((أشياء سارّة : العثور على عدد كبير من القصص لم يقرأها المرء من قبل. أو نوال الجزء الثاني من قصة، إستمتع المرء بقراءة الجزء الأول منها. لكن غالبا ما يكون الأمر مخيبا للآمال)).

مرغريت يورسنار : ((المكان الأول لولادتنا، هو ذلك المكان الذي نلقي فيه لأول مرّة نظرة ذكية على أنفسنا. موطني الأول كان كتبي)).

الأحد

نهار بارد، مشمس، ناصع الزرقة.

حفل زواج في كنيسة قريتنا. تكون الكنيسة خالية معظم أيام السنة : رعية كنيسة القرية ليسوا كثيرين بما يكفي لتبرير إقامة قدّاس إسبوعي، اذاً سانت مارتن لا يستخدم الا في مناسبات الزواج والدفن. خلال أشهر الصيف، ظلت إمراة من سكان القرية تفتح أبواب الكنيسة صباح كل يوم وتغلقها في السابعة مساء، مفترضة أن يدفع الفضول واحد من زوار القرية الضالين بأستكشاف الكنيسة. انها تهتم أبضا بحالة الأجراس، رغم انها الآن تعمل بنظام قرع آلي. على أي حال، وقبل إغلاق الابواب، فانها تستمتع بقرع الأجراس بيديها. تقبض على الحبل بيديها وتتأرجح ؛ كل ثقل جسمها يهتز صعودا ونزولا، وصوت الأجراس العميق والأجوف يتردد صداه في الفراغ الموغل في القدم.

تروي ساي شانغون كيف ان معلم إسه، عندما زارها يوما، وجد كتاب وسادتها موضوعا على الشرفة ؛ أخذ الكتاب بالرغم من إعتراضها، ولم يعيده اليها الا بعد وقت طويل. في هذه الأثناء صار

الكتاب ينتقل من يد الى يد في البلاط. هل راود الشك رجال الحاشية الملكية المحيطين بساي شانغون، بأن هذه المرأة ذات النظرات الحادة كانت تمنحهم شكل صغير جدا من الخلود.

نظرت، هذا الصباح، الى الكتب الراقدة في رفوف مكتبتي، وفكرت بأنها ليست لها دراية بوجودي. انها تُبعث الى الحياة لأني أقوم بفتحها وتقليب صفحاتها، مع هذه فهي لا تعرف بأني قارئها.

الفصل الحادي عشر

نيسان

الجمعة

سألتني إبنتي راشيل، ونحن على مائدة العشاء، عن أكثر ما أتذكره من أبي. فكرت طويلا قبل أن أجيب، لأني أعتقد أن أكثر ما أتذكره عنه كانت هيئته (كان رجلا ضخم البنية، بشاربين كثين، فاحم الشعر)، أعرف ان إبنتي لم تكن تسأل عن هذا. أولادي بالكاد يعرفونه، لأنه توفي قبل عشرين سنة تقريبا، ولم أعرف ماذا أخبرها عنه.

من الغرابة انني أحلم به بإنتظام : أحلام قصيرة وعرضية، لا أستطيع فيها أن أميّز بين الحلم والآخر.

مثالان :

في مكان ما يشبه صحراء " الغرب المتوحش " في افلام الوسترن، ثمة تل من الصخور. كانت هذه الصخور الضخمة البيضاء والمدوّرة تتدحرج عبر السهل بهزيم وصوت أصّم. أدركت اني سأكون في طريقها لكني لا أستطيع الحراك. إرتطمت الصخور بي، وبدلا من أن أتألم، أصبحت أنا نفسي صخرة. وعندما كنت أتدحرج معها، لاحظت ان الصخرة الكبيرة التي كانت بجانبي هو أبي.

نجلس أنا وأبي في مطعم، نتناول عشاءنا. يبتسم لي، مداعبا

وجهي بقفا إصبعيه (كما كان يفعل سابقا)، وكنت أفكر، " عن ماذا سوف نتحدث ؟ ما الشيء الذي يمكن أن أقوله، ويثير إهتمامه ؟ ". فجأة وضع النادل أمامنا صحنا فضيا مغطى. رفع الغطاء فكان على الصحن بقايا متفحمة لحورية بحر صغيرة، كان يمكن رؤية جمجمتها واضحة المعالم من خلف الجلد المحروق. أصبت بالرعب. أبي يبتسم، ولم ينتبه الى رعبي.

أظن انه كان سيحب بيتنا هنا في فرنسا. كان سيستمتع بالتمشي في الحديقة، لا سيما في هذه الوقت، في نيسان، حيث يمكنه التمتع بمرأى الأزهار التي شذبها سي. العام الماضي.

((هل كان سيأتي لزيارتك لو انه لا زال حيا ؟)) سألتني راشيل.

مرغريت أتوود في " تسطح" : ((لكن لا شئ يموت، كل شئ حي، كل شئ ينتظر أن يصبح حيا)).

السبت

"تسطح" هي أول رواية كندية أقرأها، مع إدراكي الكامل إنها كندية. لقد قرأت ثلاثية دبتفورد لروبرتسون ديفيز، ورواية خيال علمي لا تُنسى لجيمس دو ميل، عنوانها مخطوطة غريبة عُثر عليها في كوبر كايلندر، بالإضافة الى ملحمة " وايتوكاس " لمازو دو لاروش، التي كانت في مكتبة أبي في ترجمة إسبانية ركيكة - كل هذه قرأتها دون أن أعرف انها كانت لمؤلفين من كندا. ربما هذا دليل واقعي على ان مفهوم المواطنة متوقف على المصادفة، ويجب أن نعرفه قبل أن نميزه بحد ذاته. مفهوم المواطنة ليس بديهيا مثل السيرة الذاتية أو رواية القصص.

تسطح هي قصة إمرأة تبحث عن أبيها المفقود في شمال كيبيك، تستسلم أثناء بحثها هذا تدريجيا الى عالم الطبيعة. مرافقوا الراوية الذين يتخبطون في الأحراج بغير هدف: عضو جمعية الحفاظ على الحياة البرية الذي يريد أن يشتري ملكية والدها، الفرانكفونيون التي إلتقتهم أثناء بحثها - كل هؤلاء يبدون وكأنهم يريدون أن يمتلكوا الطبيعة البرية التي تحيطهم، دون أن يدركوا ان الملكية تفقد معناها في الطبيعة الكندية.

قالت لي، مرّة، أتوود أن عبارة روبرت فروست ((الأرض هي لنا قبل أن نكون نحن لها))، ليس لها معنى في كندا.

كتب المتصوّف العظيم جلال الدين الرومي، في القرن الثالث عشر بان ((التمجيد، هو أن تمجّد الإستسلام للفراغ)).

الأحد

نتمشى في الحديقة، بينما نحن نتداول أمر الجدار الذي يحتاج الى ترميم، وأي نباتات علينا زرعها من جانب الكنيسة. منذ البداية كان لدينا إحساس باننا لا نملك هذا البيت، بل بالأحرى، إستعرناه كي نهتم به، كما لو أنه أمر لا يعقل أن تمتلك بيتا عمره قرون، وأشجار فواكه نمت من عظام موتى قدماء. في الصفحة الأخيرة من تسطح، تقول الراوية بأنه لا بد أن والدها قد أدرك أخيرا انه كان متطفلا على البرية : ((الكوخ والأسيجة والنيران والطرق، كانت إنتهاكا ؛ الآن سياجه الخاص يُقصيه، كما يُقصي المنطق الحب)).

في الراديو هذا الصباح : جيش بوش على أبواب بغداد. قرأت

الجيش تتقدم نحو المدينة تحت راية " التحرير "، تحرير العراق من دكتاتورأثيم، من أجل تكريس السيطرة الأمريكية على المنطقة. في ظروف مثل هذه ليس هناك إختلاف أخلاقي بين شخصيات مثل صدام وبوش : كلاهما آغاممنون، ساعيا حتى النهاية الى مصالحه الخاصة، واثقا من أنه الوسيلة المختارة من قبل الآلهة، الذين، تباعا، سيكافئونه شخصيا. آغاممنون هو الأب الذي أراد أن يضحي بإبنته، إفيجينيا، مقابل ريح مؤاتية تتيح لإسطوله الوصول الى طروادة. طبقا لأوفيد ((لقد ضحى الملك بحبه الأبوي من أجل الصالح العام)).

عزاء هزيل لإفيجينيا.

في عام ١٩٠٥، إتهم الشاعر النيكاراغوي روبين داريو، في قصيدة وجهها الى روزفلت، الولايات المتحدة بأنها تؤمن بأن ((أينما تضع رصاصتك / تضع المستقبل))

((لا)) يختتم داريو بفظاظة.

على شاشة التلفزيون، يُجري صحفي فرنسي لقاءً مع جندي إنكليزي شاب، بعد قليل من قتله شخصا لأول مرّة : ((هل هذه أول مرّة لك في قتال عسكري ؟))، ((نعم)).

((هل كنت خائفا ؟))، ((ليس لدينا الوقت لنكون خائفين. نحن نفعل ما دُرِّبنا عليه.

لا نفكر بالأمر)). ما عدا انه منذ الآن لا شئ سيكون هو نفسه كما في السابق بالنسبة اليه، طوال ما تبقى من حياته.

وفقا لكانت، العقل والجنون مملكتان متجاورتان، حدودهما متقاربة جدا، حيث من المستحيل أن تستكشف الواحدة منهما دون أن تضلّ في الأخرى.

هذا هو نفس الأمر في تسطح . في منتصف الكتاب، تدرك الراوية ان تفسيرها لإختفاء أبيها يجب أن يكون خاطئا ؛ بانه لم يصبح موسوسا جدا ببحثه في الرسوم الصخرية، بل فقد عقله في البرية. على العكس. ((أملك الآن دليلا، لا يقبل الجدل، على صحة عقله، ومن ثم موته. فرح، حزن ؛ لا بد اني شعرت بأحدهما أو بالآخر.

فراغ، خيبة أمل : المجانين يمكنهم العودة، من أي مكان ذهبوا اليه ليجدوا الملاذ.

لكن الموتى لا يستطيعون أن يعودوا، إنه أمر محظور)).

يؤمن شعب الأبناكي، في شمال أمريكا، بأن مجمع خاص من الآلهة، الأوناغاميسوك، هي التي وجّهت صنع الرسوم الصخرية. يفسر الأبناكي الإختفاء التدريجي لهذه الرسوم بالقول إن الآلهة غضبوا بسبب قلة الإهتمام الممنح لهم منذ وصول البيض.

والد الراوية (كما تروي أتوود) هو رجل مُفسَد بتبلد الحس، ولا يثير إهتمامه المعنى الذي تنطوي عليه الرسوم الصخرية، أكثر ما يثيره المادة التي صُنعت بها : إنه من النوع الذي يفسّر لأطفاله بأن الله خرافة))، وخرافة، تعني شيئا لا وجود له. اذا أخبرت أطفالك إن الله ليس له وجود، سيدفعهم الظن بأنك الله، لكن ماذا يحدث عندما يكتشفون في النهاية إنك بشر، سيتقدم بك العمر وتموت ؟ الإنبعاث : انظر الى النباتات - يغنون اليوم في " مدرسة الأحد " المسيح قد قام، ويحتفلون بتفتتح أولى زهور النرجس البري ؛ لكن البشر ليسوا بصلاً، فهم إن رقدوا مرّة تحت الأرض، فإنهم يبقون تحتها الى الأبد.

يضع بعض اليهود كوم من الحصا على أضرحة موتاهم، إحياء

لذكرى المدافن اليهودية في الصحراء بعد نزوحهم من مصر. فقد كانوا يستخدمون الأحجار لتمييز القبور في الرمال المتحركة. ((إنها أيضا وسيلة لمنع الموتى من التسلق خارجين من قبورهم)) كما قال لي مازحا، مرّة، الحاخام. وضعت آخر مرّة زرت فيها قبر والدي، كوم من الحصى على البلاطة، لمجرد أن أشير الى مروري. أحتفظ الآن ببعض من هذه الحصى في صندوق خشبي في مكتبتي.

الاثنين

تُرجم عنوان "تسطح" في الاسبانية الى Saliendo a la superficie (صعود الى السطح وانبثاق) الاثنان تعوزهما الرقة والموسيقى، باحثاً عن عنوان لترجمة اسبانية خطر لي فجأة (Alborada) بزوغ يوم جديد. ما الذي يتسطح في تسطح؟

الثلاثاء

أشار سي. الى سنونو يطير فوق الحديقة، ثم ينزلق بخفة نحو حوض السباحة.

((انها البومة التي روضتها ألهات الحسن الثلاثة، إنه الخفاش الذي يهوى نور الصباح، إنه إنعكاس دولفين في الهواء، إنه التأقلم الحذر للسلمون المرقط))، ترى كم من القرّاء حزروا إن هذه الأسطر لجون رسكن.

وصلت في بريد اليوم رسالة من بيتر اوليفا في كالغاري. أفكر بالطبيعة الكندية اللامتناهية، وألاحظ ان الفرق بينها وبين الطبيعة التي

تحيطني الآن، في فرنسا، هو في الجوهر مسألة بُعْد. هنا أحسّ بأنه يمكنني ببساطة أن أمدّ يدي فألمس الكنيسة، أو الأيكة، أو قمة التل. في كندا (كما في الأرجنتين) الأفق يرتد دائما الى الوراء، شيء يدعوه دريو لاروشيل دوخة أفقية.

أتوود : ((نحن نتحرك عبر تلال منبسطة عليها أبقار مرقشة، ومغطاة بأوراق الشجر وهياكل أشجار دردار ميتة، ثم نمّر بين أشجار أبرية الأوراق وقطع وردية ورمادية من الغرانيت مفجرة بالديناميت، وكوخ سوّاح متداعي، ولافتة كتب عليها ((بوابة الى الشمال))، إدّعت، على الأقل، أربع مدن انها تمثل هذه البوابة. المستقبل هو في الشمال، كان هذا، يوما، شعارا سياسيا ؛ عندما سمعه أبي قال بأن لا شيء هناك في الشمال غير الماضي، وحتى من هذا ليس هناك الكثير)).

في المخيلة الأوربية، الشمال الكندي فارغ : في هذا الفراغ إختفى وحش فرانكشتاين، في نهاية رواية ماري شيللي.

في ما بعد

تحلّق نحلة كبيرة، أو طائر صغير فوق الزهور التي زرعها سي. في أواني عند المدخل. أعتقد انه الطائر الطنّان الصغير جدا، لكن لا يمكنني ان أجزم، إنه يتحرك بسرعة فائقة. عليّ أن أعرف ما هو قبل أن أتمكن من رؤيته بوضوح.

في واحدة من الصفحات الأخيرة من تسطح :

سمكة تقفز من البحيرة

خيال سمكة تقفز

في بداية الكتاب، عندما تدخل الراوية الى شمال كيبيك، (((في مسقط رأسي، في إقليم أجنبي)))، ينتابها إحساس باللاواقعية : لا شئ يشبه ما كان عليه يوما. ربما هذه هي تجربتنا الحقيقية الوحيدة من ماضينا : في أي وقت نعود الى زيارته، فإنه (أو ذاكرتنا) يتغير. نحن نملك، مثل عديد من السير الذاتية، لحظات من الذكريات.

في مقدمة محاضرتها في كامبردج العام الماضي، كتبت أتوود ((نحن كلنا معلّقون في الزمن، لا مثل الذبابة المتجمدة في قطعة من كهرمان - ليس في شئ صلب وشفاف - لكن مثل فأر في صحن من الدبس)).

الأربعاء

لا أحد يضيع في الأماكن الطبيعية الأوربية، عدا في القصص الخرافية. ربما في العصور الوسطى كان الناس يتيهون، ربما لا زال هناك بعض من هذه الأماكن في جبال البيرينيه أو الكاربات. لكن في أوربا التي أعرف، هناك دائما طرق وبيوت تظهر في الأفق. أتذكر جلوسي عند بحيرة جنيف وأنا أفكر بزيف الجمال فيها مقارنة بالبحيرات التي أعرفها في كندا. في كندا، تقول راوية أتوود ((البحيرة خطرة، الجو متقلّب، الريح تهب سريعة؛ ناس يغرقون كل سنة، قوارب تحمل أكثر من حمولتها، صياد سمك مخمور يبحر بسرعة هائلة نحو " ديدهيد "، جذوع قديمة من الشجر مشبعة بالماء، وجزء منها منخور، تطفو تحت سطح الماء... بسبب كل هذه الإلتفافات من السهل أن تضيع طريقك اذا كنت قد نسيت الإشارات)). وأيضا ((الموجات الصغيرة تخاطب الشاطئ، بألسنة مائية متعددة)).

يختتم غويندولين ماك-أوين قصيدته بهذه الأبيات :

مستكشف ، تقول لنفسك هذا ليس ما أبحث عنه
رغم ما يبدو هنا من حسن وخضرة ؛
كنت تبغي ان تسير في الرحابة
قصدت جمالا خاملا ، حلما موجعا .
لكن الصنوبر المظلم لعقلك غطس في الأعماق
وأنت غارق ، غارق في النوم
في عالم أولي ؛
ثمة شيء ما في الأسفل وتريد أن تعرف ما هو .

الخميس

سماء رمادية. فكرت أن أبقى جالسا في المطبخ بعد الإفطار لأقرأ، لكني تذكرت بأن هذا هو اليوم الأخير لكتابة مقالة نقدية. لا أستطيع التغلب على الإقتناع بأنه لا يمكنني الإسترخاء الا بعد إنجاز وظائفي المدرسية. أنْ أقضي الصباح دون أن أفعل شيئا، غير الجلوس بتراخ مع كتاب لست ملزما بقراءته، تبدو فكرة فاجرة بعض الشئ. كان الإحساس ذاته ينتابني وأنا طفل، قائلا لنفسي، على سبيل المثال، لا أستطيع أن ألعب مع لعبي الاّ اذا رتبت غرفتي أولا.

أعتقد ان راوية أتوود تشعر أيضا بهذه الضرورة. في بداية بحثها، تدرك بأنه مهما كان المدى الذي ستبلغه، فسيكون ذلك من خلال المعاناة: ((لقد وصلنا مبكرين جدا وأنا أشعر بشئ ما، وكأنه لا يمكنني حقا أن أصل الآ اذا تألمت ؛ وكأن النظرة الأولى للبحيرة، التي نحن

أمامها الآن، زرقاء صافية، هي خلاص، يجب أن نصل اليه عبر الدموع والإحساس بالغثيان)).

القديسة تيريزا عن الأرض العطشى للروح وهي تتطلّع الى مطر الله: ((لا تضعفوا، الاّ اذا كنتم تريدون أن تخسروا كل شئ، بالدموع يكون خلاصكم جميعا ؛ مياه بعد أخرى)).

الجمعة

غداءنا الأول في الحديقة لهذه السنة.

كتبت مجلة تايم بأن مؤتمرا لإعادة إعمار العراق سيعقد، وستقدم فيه الشركات الخاصة عروضها بعقود تتراوح بين ٥٢ مليار الى ١٠٠ مليار دولار لـ " إعادة إعمار " العراق الذي دمره القصف الإنجلو- أمريكي. وفقا للمجلة، ان هذا المؤتمر كان مخططا له قبل شهور من بدء أول هجوم. جان جاك روسو ((إعطهم نقودا وعاجلا سيكونون مقيدين بالأصفاد)).

أطياف الوجود الأمريكي تلوح مهددة فوق الطبيعة، في تسطح . أمر غريب أن تُعرض الكراهية، التي يبديها مرافقوا الراوية، بصورة كاريكاتورية : ((ديفيد يقول " تباً لهؤلاء اليانكي الخنازير الفاشست "، كما لو انه يتحدث عن المناخ)).

الحوار يؤرخ الرواية، أكثر من أي شئ آخر.

مع أن معظم الكنديين يسخرون من الأمريكان، مثل رفاق الراوية، الاّ انهم، على الأغلب، موسوسين بما يدعوه كارلايل ((التهذيب الإنجليزي المرائي، الذي يفضل فيه الشخص أن يتألم مُعذبا من أن يطلب حساءً للمرة الثانية)).

الأحد

إستمرار تدفق الأخبار عن قتلى وجرحى في العراق. الصور التي يعرضها التلفزيون تكشف عن حالة كلية من الفوضى. يصف الكاتب العراقي جبار ياسين حسين وهو يصف دخول الدبابات البريطانية الى البصرة، حيث يقف جانبا على الطريق رجل شاب مذعور، يتلفت في كل الإتجاهات ويداه مرفوعة بعلامة الإستسلام. بعد أن إبتعدت دمدمة الدبابات غطى الرجل وجهه بيديه كما انه لا يصدق انه لا زال حيا، ((هل ستمنح له الحرية، تلك التي لم يعد يقوى على تحملها ؟ أم انه، في كل هذا، يستشف الغموض الذي يلّف مستقبله ؟)).

الراوية في تسطح وهي تخاطب الأشباح المحيطة بها :((أي تضحية، ماذا يريدون؟))

هذا هو، دائما، السؤال.

شبح وفقا لجويس :

(أم ستيفن وهي ضامرة، ترتفع متصلبة عن الأرض يغطيها جذام رمادي وعليها إكليل ذابل من زهور البرتقال وخمار زفاف ممزق، وجهها رث بلا أنف، رمادي يعلوه تراب القبر وشعرها خفيف سَبْط. تركّز محجري عينيها المدوران المجوفان على إبنها ستيفن وتفتح فمها الخالي من الأسنان وتنبس بكلمة صامتة...)...

الأم : (بإبتسامة جنون الموت الخبيثة) " كنت يوما مي غولدنغ الجميلة. أنا ميتة ".

الاثنين

برد مفاجئ، لكنها لا زالت مشمسة. لم تأت القطة لتأكل عندنا منذ ثلاثة أيام تقريبا.

الراوية : ((نظفتُ الطاولة، وكشطت شرائح اللحم المعلّب قطعا كبيرة من الصحون التي على النار، وتركته طعاما للموتى. اذا أطعمتهم ما يكفي سوف يعودون؛ أو ربما هو العكس، اذا أطعمتهم ما يكفي سوف يبقون بعيدا، قرأت هذا في أحد الكتب، لكني نسيت إسمه)).

كانت جدتي تقبّل لُقم الخبز التي تتبقى من الوجبة، دائما، قبل أن ترميهم. كما لو ان الخبز الذي لم نأكله لا يعود ملكنا وانما لآخرين، للموتى ربما، وهي تحتاج أن تبدي إحترامها لذلك. أعتقد انها كانت تشعر بنوع من التواصل مع كل هؤلاء الذين رحلوا قبلها وكل هؤلاء الذين سيأتون أيضا، وتقبيل الخبز كان إعترافا بحضور شبحي، لشئ أو لشخص تجذر في الذاكرة أو في الإحساس. ربما تشعر هي بهذا في وجبة عيد الفصح، عندما تسفح قدح نبيذ من أجل النبي ايليا، ومن ثم تفتح الباب - حسب التقليد - قائلة العبارة الطقوسية ((دع كل اولئك الجوعى يأتون ليأكلوا)).

الخميس

أريت مكتبتي للكاتبة الأرجنتينية أليسيا بورينسكي. توقفنا عند نقاط الإهتمام المشترك : نسخ قديمة لكتّاب أرجنتينيين كلانا قرأها أيام صباه، سيلفينا اوكامبو، كورتازار، اوليفيرو جيروندو. ثم أشرت لها الى كتّاب كنديين، تقول انها لا تعرفهم : ساندرا بيردسل، شارون بوتالا، آن

مـايكلز، اندرياس شـرودر، سـوزان سـوان. إعـتـراف بمتع سـرية حـسب الترتيب الأبجدي.

أي من كتب أتوود سيُعد من الكلاسيكيات في المستقبل ؟ تسطح، الياس غريس، قصة خادمة ؟ قبل عام من إغراق نفسها في نهر اوس تسائلت فرجينيا وولف في يومياتها، ((مَنْ من أصدقائنا سوف يثير إهتماما أكثر في الأجيال القادمة ؟))، أنا سأَتساءل عوضا عن ذلك، مَن مِن كتّابي السريين سوف يثير إهتمام الأجيال القادمة من القرّاء ؟ ريتشارد اوترام ؟ ليليانا هيكر ؟ إسحق مانسك ؟ راشيل إنغالس ؟ فيل كوزينو ؟ جيمس هانلي ؟ جون هواكس ؟

الجمعة

رجعت القطة أثناء الليل.

طرق للنهايات.

حول نهايات القصص، لاحظ والتر بنجامين، بانه إنسجاما مع المعتقدات الشعبية الروسية ((فسّر الروائي ليسكوف " البعث " كإنعتاق أكثر مما فسّره كتجلّي، في مفهوم مماثل للحكايات الخرافية)). كُتبت الصفحات الأخيرة من تسطح، كما يشعر القارئ، بنبرة الحكاية الخرافية بالضبط. تدخل الراوية من عالم البشر الوهمي الى العالم الحقيقي للطبيعة، للأشباح والوجود الشبحي. لا خلاص، لا خاتمة بمفهوم تقليدي، لا " بعث "، بل، بالأحرى، إنهاء السحر.

أنجزت أتوود هذه النهاية ببساطة مذهلة. شرح باخ كيف ان العزف على الكلافير سهل جدا : عليك فقط الضرب على المفتاح الملائم بالقوة الملائمة وبالوقت الملائم.

السبت

في الجزء الأكبر من تسطح، يظهر العالم الحقيقي للراوية كعالم مسكون بالأشباح، عالم مبهم ؛ في الفصل الأخير يظهر عالم الأشباح نفسه كعالم حقيقي، مُدرك بعباراته الخاصة. تركض الراوية، هروبا من عالم البشر المصنوع، عارية عبر الغابات مثل وحش فرانكشتاين، مثل حيوان مطارد، حتى انها تؤمن بانها ستكتسى بالفرو مثل حيوان متوحش.

((هكذا هم)) تقول عن هؤلاء الذين يبحثون عنها الآن، ((لا يدعونك بسلام، لا يريدونك أن تمتلك شيئا، لا يملكونه هم أنفسهم)).

الإتصال الوحيد الذي تبغيه الآن هو مع البرية ؛ انها لا تريد أن تطأ قدماها طريقا مصطنعا، ((أي شئ يلمسه الحديد يؤذيه)). وبعكس طقوس روبنسون كروزو (الذي أنشأ مجتمعه ذا الرجل الواحد، بإستخدام الأدوات والكتب التي عثر عليها في حطام السفينة)، فإن الراوية تسلك طقسا من بناء معاكس : تحرق الصور والكتاب المقدس، تكسر الأقداح والصحون، تمزق مسّودات الكتب، تقطّع الملاءات والملابس. ((كل شئ من الماضي يجب أن يُباد)) كما تقول.

وهي تعرج، وتنزف ((غاضبة من الآلهة، بالرغم من انهم ربما قد أنقذوني))، تنزل نحو البحيرة ((متجنبة الأماكن الملوثة التي وطأتها الأحذية))، فترى شبح والدها، أو بالأحرى، ترى الشخص الذي صار عليه والدها، ((الشئ الذي تلتقيه عندما تبقى هنا وحيدا لوقت طويل جدا))، لكنه لا يبدي إهتماما بها. لأنها، أيضا، قد إحتوتها البرية، لم تصبح مخلوقا متوحشا بل شئ حجري أو خشبي، انها دافني هاربة من

ابولو. أحد الغواصين يراها، حرفيا، كعلامة على الأرض، ((أنا قطعة من الطبيعة، بإمكاني أن أكون أي شئ، شجرة، هيكل عظمي لغزال، صخرة)). اذا كانت تضحية إله بأن يتخذ شكل إنسان، فأن تضحية إنسان تكون بأن يصبح حجرا، غصين، طين. المسيح البشري يُعلق بشجرة آدم.

تسطح كحكاية الآم المسيح الأخيرة.

القديس يوحنا الصليب، واصفا كيف ان المسيح متيّم بالروح :

عندئذ ، وبعد وقت طويل ، تسلّق شجرة ،

فتح ذراعيه القويتين وبسطهما بشجاعة ،

تشبث بتلك الشجرة حتى عمّ الموت ،

وبألم لا يطاق كان قلبه مكلوما .

الفصل الثاني عشر

مايس

الثلاثاء

أحسست بالدفء في هذا الصباح المبكر؛ لم استطع النوم، فذهبت الى المكتبة قبل الفجر بقليل، وأيقظت القطة، فلم يسرّها ذلك.

ناشر كتبي الألماني هانز- يورغن بالمس إقترح عليّ إعداد إنتولوجيا عن الأرق.

خطرت لي بضع قطع ونتف صغيرة :

* ((لم يحاول النوم أبدا على جنبه، حتى في هذه الساعات الموحشة من الليل التي يتوق فيها المؤرق الى محاولة النوم على الجنب الثالث، بعد أن جرّب بلا جدوى pnin الاثنين الآخرين.)) نابوكوف.

* ((في ليلة معينة، بينما هو راقد بين النوم واليقظة، يُفاجأ بتنهيدة طويلة مرتعشة، تعلم أن يميزها كإشارة على ان عقله يتخيل رعبه مرّة ثانية، وإنه في هذا الوقت - الوقت المناسب - سيطلقه.)) كبلنغ، في نفس القارب.

* ((ما هو أرقنا إنْ لم يكن عنادا مهووسا لعقلنا لفبركة أفكار، سلسلة من إستنتاجات، قياسات، وتعريفات لذاته الخاصة، ورفضه التنازل لصالح البلاهة المقدسة لعيون تُغلق بسرعة أو للجنون الماكر

للأحـلام ؟ الناس الذين لا ينامـون (وكـان بأمكاني أن ألاحظ هذا في مناسبات عدّة في الشهور القليلة الماضية) يرفضون، تقريبا، بوعي أن يثقوا بتدفق الأشياء.)) مرغريت يورسنار، مذكرات هادريان.

* ((لقد كان شاهدا متوحدا ومشرقا لعالم من عدّة أشكال، عالم لحظي وتقريبا دقيق بشكل لا يطاق... كان من العسير عليه النوم. أن تنام هو أن تهرب من العالم)) بورخس، Funes the Memorios.

* عنوان لكتاب من المراجع المصرية في القرون الوسطى : فجر لليلة عمياء.

* ((ليلة مؤرقة، الثالثة على التوالي... أعتقد ان سبب الأرق هذا لأنني أكتب. مهما كان ما أكتبه قليلا أو رديئا، لا زالت هذه الصدمات النفسية الصغيرة تجعلني حساسا، أستشعر، على جه الخصوص في الليل وأكثر حتى في الصباح، إمكانية قريبة، وشيكة الحدوث للحظات عظيمة، بإمكانها أن تمزقني نصفين، تجعلني قادرا على كل شئ، وبسبب الإهتياج الذي يمور في داخلي والذي يعوزني الوقت للسيطرة عليه، لا أجد الراحة.)) كافكا، ٢ تشرين الأول ١٩١١ .

* ((نوم غير مريح، قلق مع أحلام متواصلة، مع رعب وحُصار، كانت هي الليلة التي تسبق النشر. حلّ الفجر أخيرا، ومع طلوع الشمس إستيقظ لويس تينوكو، هو الذي إعتقد أنه لا يصحى مبكرا أبدا، وذهب ليقرأ قصيدته المطبوعة.)) ماتشادو دي آسيس فجر بلا نهار.

ليست الكتابة بل هي القراءة التي تبقيني صاحيا. القراءة هي مهنة المؤرق بلا منازع.

غرفة المكتبة باردة. أفتش بين الكتب، وقد بدأ ضوء النهار يلوح لتوّه، ويراودني إحساس مريح بأنها تحوي كل ما أريد أن أعرفه، كما لو أنها إمتداد لجلدي، الموشوم مثل كويكيغ في موبي ديك مع " نظرية كاملة عن السموات والأرض، وبحث صوفي عن فن بلوغ الحقيقة ".

((كل فصل من الحياة هو طبعة منقحة عن سابقتها، وتغدو بدورها هي الأخرى معدّلة، حتى بلوغ الطبعة النهائية، التي سيلقيها المحرر الى الديدان)). وفقا لماتشادو دي آسيس نحن أكثر ما نكون شبها بالكتب المؤرقة التي نقرأها، مليئين بالمقاطع التي تحتاج الى تنقيح.

الأربعاء

تحمل كتبي إضافة الى علاماتها المميزة، توقيعي والتاريخ والمكان الذي قرأتها فيه أول مرّة، وخربشات على الهامش لقراءتي. أتشارك روح التملك اللاإرادي هذه مع إصحاب المهن في حرف أخرى : مع المعماريين، الذين - منذ أن نقش غارنييه بفخر إسمه على قبة أوبرا باريس - يوقّعون أسمائهم على أبنيتهم ؛ ومع " جامعي الملح " في الكاماروغ الذين يوقعون أسمائهم على أغطية صناديق " زهرة الملح " التي قاموا بجمعها؛ ومع نجّاري الموبليا الذين، وقبل الإنتهاء من عمل قطعة، يدسّون في شق قصاصة ورقية عليها إسمهم وتاريخ إتمام العمل.

حكت لنا شارلوت قصة نجّار القرية الذي صنع لنا رفوف المكتبة. ان الرجل الذي يحمل بجدارة إسم ديبوا، فقد أربع من أصابع يده اليمنى. كان ينشر لوح خشب ثقيل عندما إنزلق كف يده من الجانب نحو النصل. وجده جيرانه ملقى على أرض دكانه، فاقدا الوعي والدم ينزف منه،

فأخذوه الى المستشفى، لكنهم نسوا أن يأخذوا أصابعه المقطوعة معهم. عندما رجع مسيو ديبوا، وجد إصبعا واحدا فقط من اصابعه، فإلتقطه وإحتفظ به على رف في بيته، وغالبا ما كان يريه، بمتعة شيطانية، لزواره. ذات يوم إكتشف ان هذا الإصبع قد إختفى ؛ فإفترض بأن فأرا قد إستولى عليه. بحس من الواجب، كتب مسيو ديبوا قصة ما حدث له في قصاصة ورق وأدخلها في قطعة من الأثاث كان قد صنعها في وقت وقوع الحادث.

يعتقد ماتشادو دي آسيس (كما يعتقد ديديرو وبورخس) ان صفحة العنوان في أي كتاب يجب أن تحمل إسم المؤلف وإسم القارئ معا، بما أنهما يتقاسمان أبوّته.

((أسوأ عيب في هذا الكتاب هو أنت، أيها القارئ !)) كما يقول، متهما، ماتشادو دي آسيس، في منتصف مذكرات براس كوباس المنشورة بعد وفاته (الذي تناولته من المكتبة في ليلة أخرى من ليالي الأرق). ((أنت تتعجل التقدم في العمر، والكتاب يتقدم ببطء شديد ؛ أنت تشبه قصصك، مباشر وملئ بالأحداث، مروي بشكل متوازن وبإسلوب سلس، وهذا الكتاب وإسلوبي هما أشبه بسكيرين يترنحان يمينا وشمالا، يجريان ثم يتوقفان ساكنين، يتشكيان، يصرخان، يضحكان بصوت عال، يتوعدان السماء فوقهما، يتعثران ثم يقعان...)).

الخميس

مذكرات براس كوباس المنشورة بعد وفاته هي خليط من فصول سريعة جدا، وهي بالكاد أكثر من ملاحظات، نتف من حوار، مشاهد

حب مبتورة، صور وصفية قصيرة لشخصيات ومقالات مصغرة، تأخذ شكل سيرة ذاتية للبطل الجامح، واليائس براس كوباس، والذي يكون ميتا سلفا عندما يبدأ الكتاب.

كان ماتشادو دي آسيس رجلا إستثنائيا. ولد عام ١٨٣٩، وهوإبن لرجل خلاسي من ريو دي جانيرو يعمل في النقش والطلاء، وإمرأة برتغالية بيضاء تعمل غسّالة للملابس عند أرملة سناتور، وقد توفيت أمه عندما كان ماتشادو طفلا صغيرا. أصبحت الأرملة الأرستقراطية عرّابة الفتى، فأمضى هذا طفولته متنقلا بين عائلتين، فقيرة وغنية. تزوج والده ثانية، وعلى يد زوجة أبيه تعلم القراءة والكتابة. حين شبّ عن الطوق أقنعه جاره الخباز الفرنسي، أن يدرس الفرنسية وحثه على قراءة كتب لامارتين وفكتور هيغو، اللذان سيبقيان، طوال حياة ماتشادو، من كتّابه الأثيرين. لقد نشأ ماتشادو وهو ينظر الى العالم نظرة رومانسية، مقتضبة، ناقدة، ساخرة، كانت تتجلى في كل صفحة كتبها. ((لقد ترعرعت ولم يكن لعائلتي يد في ذلك. لقد نموت بالطبيعة، مثلما تكبر أشجار المغنوليا والقطط)).

يُصنف ماتشادو، في البرازيل، ضمن الرومانتكيين، مع هذا فأنا أشعر أن حساسيته باروكية. في الأدب الباروكي يبدو الشئ حقيقيا، فقط اذا كان يعني شيئا آخرا.

لدي ولع كبير بـ مذكرات براس كوباس، لهذا كنت أستغرب عندما أكتشف أن قلّة من أصدقائي فقط قد قرأوها. نحن نفترض أن ما يبهجنا يجب أن يبهج الآخرون؛ في الواقع، نحن ندرك في النهاية بأن الحلقة الخاصة من رفاق القراءة، هؤلاء الذين يشاركونا ولعنا الشديد، هي حلقة

صغيرة جدا. (أحد عشرة صديقا حضروا جنازة براس كوباس عندما بدأ يروي قصة حياته الحزينة - فقط أحد عشرة).

أملك خمس طبعات من براس كوباس (ثلاث منها مترجمة) وبضع دراسات عن حياة ماتشادو دي آسيس. اذا أخذنا بنظر الإعتبار شعبية شتيرن، وبينكون (لا أرى انه يستحقها - لا أملك صبرا على قراءته)، وكورتازار، فمن الصعب أن أفهم لماذا بقي ماتشادو دي آسيس (خارج البرازيل بالطبع) كاتبا غير معروف. ليس ثمة كاتب مثله، كل هؤلاء المؤلفون الثلاثة الذين ذكرتهم يشاركونه نفس الهَم، في الكيفية التي يجب على الأدب القصصي أن يعالج بها واقعا مفككا، ومتغيرا، ووقتيا، لكن ماتشادو فريد في رواية قصة تطرح نفسها للقارئ بشكل مجزأ، إن صح التعبير، مثل لعبة الميكانو، والتي يتوقف علينا في النهاية أمر وضع أجزائها المنفصلة عن بعضها، كي نبني منها عندما نقرأ، حكاية تكون مفهومة تماما، لكنها لا تتبع ثرثرة ظاهرة ومثبتة سلفا.

كتابات ماتشادو تُفسد بإستمرار ثقة القارئ بأمانة الرواية. عندما أقرأه يتولد لدي إنطباع بأني أراقب خدعا سحرية تبدو مستحيلة.

كان شاتوبريان سيتفق مع براس كوباس منذ أول جملة له : ((كنت في حيرة، لبعض الوقت، بين أن أشرع بهذه المذكرات من البداية أو أن أبدأها من النهاية؛ هذا يعني، بين أن أضع يوم مولدي في البداية أو يوم وفاتي)). إختار ماتشادو لذلك أن يبدأ بآخر صفحة.

هل هذه النزوة هي التي جعلتني، عندما قلّبت صفحات الكتاب، أن ألقي، أولا، نظرة سريعة على الكلمات الأخيرة فيه ؟

الأثنين

مذكرات براس كوباس المنشورة بعد وفاته كتاب ملائم جدا قراءته أثناء المطر.

بخلاف أبطال التراجيديات الإغريقية، الذين يكون مصيرهم مرتبطا بمصير أجيال الماضي والمستقبل، فإن قصة براس كوباس الحزينة تنتهي وهو يرويها. السطر الأخير من الكتاب هو ((لم أنقل الى أي مخلوق آخر ميراث محننا)).

ربما معظم الروايات يمكن أن تُدعى مذكرات منشورة بعد وفاة مؤلفها، لأنها تكون مروية فقط بعد أن تبلغ نهايتها. ((نموت ! كلنا يجب أن نموت؛ ما علينا الاّ ان نكون أحياء)). عند براس كوباس ليس هناك نوم في الموت، بل مجرد نوع من الأرق الأدبي. بالنسبة له الموت هو نقطة إنطلاق، هو اللحظة التي فيها نستطيع أن نتأمل الحياة بشكل نهائي، لأنه لن يكون هناك شئ أكثر من هذا. إن الموت، وسط أشياء أخرى، مجسّد. ليس البطل فقط من يموت، في بداية الكتاب، بذات الرئة؛ memento mori معظم الشخصيات تموت هي الأخرى. اذ تعاني أمه من موت بطئ ومؤلم، وتموت خليلته الأولى، الإسبانية مارسيللا، في المستشفى بمرض الجدري، وتنتهي يوجينيا المقعدة بشكل بائس، وتهلك يولاليا بالحمى الصفراء قبل يوم واحد من زفافها، وزوج فرجيليا، خليلته الثانية، يسقط ميتا في نفس اللحظة التي أصبح فيها وزيرا، ويموت صديق براس كوباس المقرّب عندما يدرك أن جنونه لا شفاء منه. رغم أن الموت ما كان يوما أمرا سهلا، الاّأنه يتيح لبراس كوباس أن يحدس جواب السؤال الأزلي ؛ لماذا ولدنا. كما هو الأمر في القصة البوليسية، حيث يتطلب الكشف عَن الغموض أن لا يعد لأحد ما من وجود.

((أنا سأموت))، قال ماتشادو دو آسيس ذات يوم، ((كما عشت، مع كتاب في يدي)). حسب ما قاله خوزيه بريسيمو، الذي رآه في ساعاته الأخيرة، إن كلمات ماتشادو الأخيرة كانت : ((الحياة رائعة)). في براس كوباس كتب ماتشادو : ((الصراحة، هي المزية الأساسية لرجل ميت)).

براس كوباس مهداة : ((الى أول دودة ستقرض اللحم البارد لجثتي)).

الثلاثاء

تتظاهر القطة إنها متفاجئة بذيلها. تراقبه لفترة ثم ما تلبث أن تنقض عليه للإمساك به. كما لو إنها أقنعت نفسها بأن هناك شئ يشبه ذيلها لكنه ليس ذيلها؛ ذيل روائي، اذا جاز التعبير. وكي تستمتع باللعبة، فإنها أتاحت لنفسها الإبعاد الإرادي للإنكار، الذي يمارسه القارئ.

يشرح براس كوباس للقارئ بأن مذكراته تنشا عن الأفكار التي تتشبث بحبل بهلوان عقله، وهي تطالبه بإنتباهه لهذه الكلمات : ((إكشفني والاّ سألتهمك)).

إلتهام : يتذكر بيوي كاسارس بأن الكاتب الأرجنتيني انريكه لاريتا أكّد له ذات يوم : ((أن ذكائه كان فعّالا جدا الى الحد الذي لم يتح مجالا أن يقرأ ؛ كل جملة كانت تطرح عددا كبيرا من الأفكار والصور، حيث تضلله عبر عوالم ذهنه الخاص وتجعله يفقد خيط قراءته)).

كشف : إستمعت اليوم، الى مقابلة إذاعية من الراديو الفرنسي مع كاترين اونريه، المعلمة التي كتبت مذكرات عن تجربتها في مدرسة إعدادية، عرّفت فيها الطالب الجيد بـ " الشخص الذي يبيح لنفسه أن يكون مدهوشا ".

الأحد

أنا في رحلة سفر مرّة أخرى. سافرت الى مدينة أوميا في شمال السويد، لتقديم محاضرة في الجامعة. الفندق الذي نزلت فيه كان مستشفى في بدايات القرن التاسع عشر، تغطي جدرانه صورا شنيعة لغرف العمليات، تظهر الأطباء، الأشبه بالقصّابين، متجمعين حول ما يشبه أجسام مرضى. لم أسمع هنا أي تعليق على الحرب في العراق، كأن أصداء ما يحدث من قتال قد تلاشت في البعد. الطبيعة المحيطة بي هنا كندية : ريجينا أو وينيبغ، لكن دون ناطحات سحاب. وأنا بإنتظار أن يقلّني أحدهم، أجلس في غرفتي مع كتاب براس كوباس. لايغيب عن بالي اللامعقولية الذي توحيها قراءة مؤلف برازيلي من القرن التاسع عشر على بعد زمني بحدود مئة وخمسين سنة، في غرفة معقّمة في الشمال الإسكندنافي البعيد في يوم الأحد اللوثري هذا.

أتخيل كتابا من المذكرات موضوعا في واحد من كيس الكتب الذي كان يحمله المسافرون على أكتافهم قبل قرون، يصف وقائع حياتي عبر الكتب التي قرأتها في الأمكنة التي زرتها. مهمة أنجزها في الحياة الآخرة.

وفقا لماتشادو دي آسيس (أو لبراس كوباس)، الحياة الآخرة هي المكان المثالي لإستبطان النفس، لاننا سنكون وحيدين تماما دون شاهد.

بخلاف فراديس وجحيم ملتون ودانتي المكتظة، فإن آخرة ماتشادو تشبه فضاء فكريا مصاغا من قارئ وكتاب : خصوصي بكل معنى الكلمة. بحسب براس كوباس ان الحياة مشوهة بالخزي و" الرذيلة البشعة " للنفاق، وتعاسة، سببها وجود الآخرين. ((لكن في الموت، ما الذي يهم ! كم هو أمر مريح... لأنه، أساسا، في الموت ليس هناك جيران، ولا أصدقاء، ولا أعداء، ولا أقرباء، ولا غرباء : لا جمهور)). يجب أن يروي براس كوباس قصته من وراء القبر، كي يترك آثارا على موته، الذي شعر، مثلما يشعر أي رجل آخر،انه كان مُقادا في فضاء مكتظ تحت النظرات اللامبالية لرفاق رحلة الحياة.

قبل تسع سنوات من موته في باريس، مجهولا، لا يقرأه أحد، كتب الشاعرالبيروني العظيم سيزار باييخو في مفكرته : ((اذا إجتمعت، عند ساعة موت إنسان، كل مشاعر الشفقة التي يبديها الناس الآخرون لتمنعه من الموت، فإن هذا لإنسان سوف لن يموت)).

الاثنين

ستوكهولم. من المحال الإستحمام قبل العمل. الإزعاج الرئيسي في السفر هو كيف تتعامل مع تجهيزات الحنفيات الجديدة في الحمام.

مذكرات براس كوباس المنشورة بعد وفاته هو كتاب إستطرادات، فيه الكثير جدا (كما يعترف ماتشادو) من مزاج شتيرن أو جوزيف دي ميستر : ((أعتقد ان القارئ يفضل، مثل زملاءه القرّاء الآخرين، الحكاية على التفكير، وفي رأيي انه محق. سنتفق مع هذا، لكن يجب أن أشير مرّة ثانية ان هذا الكتاب مكتوب بكسل، كسل رجل لم يعد

معنيا بقِصَر هذه الحياة الأرضية ؛ انه عمل فلسفي كتب بفتور همة، لفلسفة غير متزنة، في أوقات صارمة، وفي أوقات هازلة، شئ لا يرفع ولا يدمّر، لا هو بارد ولا هو ساخن، وهو أكثر من تسلية وأقل من رسالة نبي)).

((الإستطرادات هي إشراق، بشكل لا يقبل الجدل؛ انها حياة وروح القراءة ؛ اذا جرّدت الكتاب منه، على سبيل المثال، فإنك ستجرد أيضا الكتاب كله معها)). شتيرن في تريسترام شاندي.

عندما توفي شتيرن، كان بائعوا كتبه فقط حاضرين في جنازته. بعد أسابيع، كان طالب طب حاضرا درسا في التشريح، وقد إرتعب عندما إكتشف ان الجثة التي يشرحونها هي للمؤلف الشهير لكتاب تريسترام شاندي . بقايا شتيرن أرسلت الى المقبرة ليتم دفنها.

لكن الإستطرادات لا تعني القيام بالتدوين بإختصار لكل شئ. براس كوباس بُنيت بإستطرادات أُختيرت بدقة، تتيح للقارئ مجالا من الفراغات بين الفصول الموجزة (على سبيل المثال، بين الفصل المشهود المكوّن من قائمة كلمات تصف، بشكل تراكمي، جنازة والد براس، والفصل الذي يُسجل فيه حوارا بين براس كوباس وفرجيليا ، مكوّن بالكامل من إشارات التنقيط والفواصل).

في مفكرات لساموبل بتلر : ((اذا ما ثابرالكاتب على مبدأ التوقف وكتابة ملاحظاته في كل مكان وفي أي مكان، مثل الرسام الحقيقي الذي يتوقف في كل مكان وأي مكان ليرسم، فإنه سيكون قادرا على إعادة تشكيل عمله بطريقة حرّة. إنه سيصبح سخيا ، ليس في الكتابة - بإمكان أي أبله أن يكون كذلك - بل في الحذف والإسقاط.

تكون مختصرا لأن لديك أشياء تقولها أكثر مما يستوعبها الوقت. واحدة من المهارات الرئيسية هو أن تعرف ما يجب إهماله)).

ونحن على مائدة العشاء روى لي المحرر اندرس بيورنسون كيف إنه عندما دمّر الحريق كل مكتبته، شعر فجأة بانه لكي يجمّع واحدة أخرى، يحتاج أولا أن يعرف أي الكتب التي لا يجب أن تتضمنها مكتبته الجديدة.

الثلاثاء

العودة الى البيت. إنها تمطر ثانية. ثمة شعور بالسكينة في هذا الطقس غير المتغير، كما لو أن ثباته في الزمان تأكيد للثبات في المكان، وهذا يمنحني إحساسا باني مرحب بي.

كم هو غريب إن هذا البيت، في هذه الفترة القصيرة جدا (بالكاد عامين)، قد إكتسب ماضياً شخصياً صرت مشغولا به، تاريخاً من صداقتنا وإرتباطنا الحميم. كل لحظة هنا الآن، هي ليست فقط ما يحدث، مهما كان، بل أيضا ذكريات تتعلق بهذا البيت. يبدو الأمر كما لو إننا، وتقريبا بوعي، وضعنا جانبا اللحظات الحاضرة كي نسحبها في ما بعد، مثل الإدخار للتقاعد في الشيخوخة.

((أنت قارئ جاحد)) يقول ماتشادو، ((اذا لم تحتفظ بالرسائل التي كتبتها أيام شبابك، فسوف لن تعرف في يوم فلسفة الصفحات القديمة، سوف لن تجرّب متعة رؤية نفسك في مكان بعيد، في مكان شبه مظلم، بقبعة مثلثة الزوايا، وحذاء طويل الرقبة وبلحية آشورية، ترقص على أنغام مزمار يعزف أغاني الحب والإنتصار)). ويقول أيضا في

صفحات أسبق : ((صدقني إن أهون الشرين هو أن تتذكر؛ لا يجب على أحد أن يثق بالسعادة الآنية، اذ إن فيها قطرات من رضاب قابيل. اذا مرّ الوقت ذات يوم وانقطع الوجد، عندها نعم، عندها ربما نستطيع حقا أن نمتّع أنفسنا، لأنه بين الواحد والآخر من هذين الوهمين، أفضلهما هو الذي يمنحنا متعة بدون ألم)).

جاء الينا جارنا ليقدم بعضا من خشب للوقود. لقد حسب ما يكفيه من الخشب حتى بلوغه التسعين، وكل ما يبقى سيعطيه للآخرين.

الأربعاء

تتعلق قراءتي بكل شئ أفعله، وبكل مكان أزوره. يذهب براس كوباس الى البرتغال للدراسة في جامعة كيومبرا. عندما رأيت لأول مرّة، قبل بضع سنوات، هذه المدينة القديمة بكاتدرائيتها الرائعة وبناء مكتبتها الباروكي المدهش، كان شعوري بالحضور الراسخ للتاريخ (متجولا في أنحاء أقدم جامعة في البرتغال؛ زائرا " بيت الدموع "، المكان الذي قتلت فيه آينيس دي كاسترو زوجة ابن الملك الأمير بدرو عام ١٣٥٥)، أقل من شعوري بالشبح الزائل للشاب براس كوباس، في هذه المدينة، التي خصص لها بالكاد مقطعا واحدا من كتابه، حين جلس على المقعد السامي للعلم في جامعتها. بدا الأمر لي كما لو أني أثناء القراءة أدوّن بلا وعي ملاحظات عما سأمر به، أو ما مررت به يوما، من تجارب، لكني فشلت في فهمها.

جلب ناشر فرنسي كتابا فيه قطعا كتبها كاتب تشيكي من القرن التاسع عشر، إسمه لاذيسلاف كليما، أسمع عنه أول مرّة. يبدو لي كأنه

واحد من شخصيات ماتشادو دي اسيس : تلميذ لشوبنهاور ونيتشه، مخترع تبغ بديل مشكوك فيه، سائق قاطرة بخارية، صحفي، حارس ليلي في مصنع مُصادر، فيلسوف هاو. خلّف بعد وفاته عددا هائلا من المخطوطات في التشيكية والألمانية واللاتينية. يقول كليما حول حاجتنا لفهم تجربتنا في الحياة ((بدلا من قول " أنا أبحث عن معنى للحياة "، أي ذروة كل الذروات (ومنذ أول لحظة لفظت فيها الكلمة، إمتلكتها، فقد بلغت هدفي بمجرد أن لفظتها)، فإن الفلسفة البشرية تصرّفت مثل ذاك الأبله الذي يركض في الشوارع باكيا، وهو يبحث عن رأسه في كل زاوية شارع)).

ما أقرأه يؤثر في خبرتي، ليس في الحياة فقط بل أيضا على الصفحة. غالبا ما أجفل من إكتشاف صوت مؤلف قرأته في مؤلف آخر شديد الإختلاف، يبعد واحدهما عن الآخر قارات وعصوراً. هنا أسمع صوت ماتشادو دي آسيس في أول رواية بريطانية "المعزّون" لموريل سبارك:

من الممكن لرجل، أصبح بعد نصف قرن من الإلتزام المطيع متدينا، مهذبا نفسه بالتقوى بطريقة بطيئة ومتقنة، صاعدا سلّمه اللولبي بكل ثقة، وكي يتأكد تأكدا مضاعفا، من إكمال تأملاته، يؤدي تمارين التنفس العميق مرتين في اليوم، من الممكن لهذا الرجل أن يضطرب لو واجه متاعب لا تنضوي تحت أي فئة مألوفة.

الجمعة

خلال رحلة يوم واحد الى تورينو للقاء كتّاب كنديين، حيتني فتاة إيطالية قائلة : أهلا بك في تورينو مستر مارتل. ولأني متعب جدا

قررت أن لا أصحح لها خطئها وأن أقضي اليوم بإسم يان مارتل. كان كل من يصادفني من الناس يبدي إعجابه بروايتي حياة باي . في ذلك المساء، وحين وصل يان، أخبرته أن لا يفاجأ لو قال له أحد أنه يبدو أكثر شبابا عما كان عليه في الصباح.

قرأت في الصحيفة، ان مجموعة من قراصنة الكومبيوتر، الهاكرز، تسللوا الى موقع وزارة المالية الرومانية وقاموا بإدخال " ضريبة على البلاهة " تُفرض بنسبة حسب أهمية الوظيفة التي يشغلها من يدفع الضريبة. بقي هذا الموقع مغلقا الى حين نجاح الجهود في إعادته الى وضعه السابق.

وفقا لماتشادو دي آسيس، ان البلاهة هي جوهر الوضع البشري : ((انها حيلة قديمة لـ " البلاهة " بأن تصبح مفتونة ببيوت الآخرين، لهذا عندما تسود، يغدو من الصعب التخلص منها. وأية حيلة ! لا يمكن لها أن تُطرد، فهي فقدت كل حياء منذ زمن طويل.

واذا ما أنتبهنا الى العدد الهائل من البيوت التي تحتلها الآن، بعضها للأبد، وبعضها الآخر أيام العطلة الصيفية فقط، فاننا سنتوصل الى إستنتاج بأن هذه الهائمة اللطيفة هي بحق كارثة لكل اصحاب البيوت)).

الأحد

مثل فولتير، يدعو ماتشادو دي آسيس بسخرية الى فلسفة التفاؤل، من خلال شخصية المفكر المعدم كينكاس بوربا، فلسفة وصفها

كينكاس بالإنسانية، فحواها ان الألم عبارة عن وهم. تشسترتون : ((الشخص الذي يثور حقا، هو المتفائل، والذي، بشكل عام، يحيا ويموت في مسعى يائس وإنتحاري لإقناع كل الناس الآخرين كم هم طيبون... كل واحد من الثائرين العظام من إسايا الى شيللي، كانوا متفائلين. لقد كانوا ناقمين، لا على الشر في الوجود، بل على تراخي البشر في إدراك طيبتهم)).

الاثنين

ليلة قصيرة مليئة بالأحلام. يئست من محاولة النوم من جديد.

غالبا ما أحلم أحلاما تحدث في المكتبة. ليلة أمس حلمت، وأنا أمشي في غرفة المكتبة، و كانت مكتظة بالناس، أغلبهم كتّابا كنت أعرفهم وهم الآن ميتون. غمرتني البهجة بمرأى دينيس ليفرتوف وذهبت اليها لأقبلها، لكنها أدارت وجهها عني وهي تبتسم، ثم بدأتْ بسحب كتب من رفوف مكتبتي قاذفاً اياها في الهواء بمرح. كنت خائفا من أن تؤذي أحدا.

في واحد من دفاتر يومياته، يتحدث اندريه جيد عن حلم يزور فيه بروست في مكتبته.

فجأة، تلفت إنتباهه قطعة من الحبل مثبتة ببعض الكتب، سحبها فوقعت عدة مجلدات وتضررت أغلفتها بصورة سيئة. ((لا يهم)) قال بروست، بلطف أخّاذ وبموقف سيد مهذب : ((انها طبعة سان سيمون في...))، ثم ذكر تاريخ الطبعة. أدرك جيد فجأة ان الكتاب الذي

تسبب في تضرره هو واحد من أندر النسخ وأكثرها مطلوبة في تاريخ النشر في العالم.

الثلاثاء

بدأت الأيام الحارّة. نبات الوستريا المعرّش على المدخل مملوء بالأزهار العنقودية.

بإتباعه نصيحة مافيس، زرع سي. مزهر كبير من أزهار الكوسموس، إسم، حسب قاموس أوكسفورد الإنجليزي، أُستخدم لأول مرّة في العام ١٦٥٠ : ((عندما لُقّب " العالم " الأكبر للجمال الذي فيه)). سُمّي الكون على إسم زهرة، بإسم Cosmus أبحث عن مزولة (ساعة شمسية)، لنصبها على القاعدة التي تتوسط الحديقة. عندما أجدها، سأنقش عليها قولاً مأثوراً، مثل ((هذا أيضا سيُفنى)) أو ((كلها تجرح، لكن الأخيرة تصيب مقتلا)) أو ربما :

أنا المزولة. ما من كلمات
يمكنها أن تعبر عن أفكاري بشأن الطيور.

في ما بعد

لورق الجدران في غرفتي، في فندق ديه غران أوم في باريس (حيث توقفت في طريقي الى البيت)، تصميم من القرن الثامن عشر وعليه منقوش ثلاث حِكم، الأولى كُتبت تحت منظر يمثل إمرأة جالسة بين خرائب، تراقب كلباً مهيبا : ((الصداقة لا تخشى الزمن)). والأخرى

منظر فيه الأب الزمن جالس في مركب، عبر جدول، يجّذفه كيوبيد : ((الحب يجعل الزمن يمضي))، وأخيرا، كيوبيد نائم في مركب، يعبر نفس الجدول، يجّذفه الأب الزمن : ((الزمن يجعل الحب يمضي)).

لتأريخ مضي الحب والزمن، يضع ماتشادو بين أيدي قرآئه، في إنسياب يبدأ من الخلف، منذ الحياة الآخرة، كتابا واحدا فحسب، مليئ بالذكريات والملاحظات العشوائية.

والأمر متوقف على القرآء في أن يجعلوا من ذكرياته ذكرياتهم، في الموافقة أو عدم الموافقة على ما فعله، في التوقف عند أي فصل، لوصل أو عدم الوصل بين اللقطات المبعثرة. يتوقع ماتشادو من قرآئه أن يكونوا أوفياء للصداقة.

الثيمة المركزية الجلّية في مذكرات براس كوباس المنشورة بعد وفاته هي الحب : طبيعة الحب، الإصرار على الحب، ذواء وتحّول الحب، وفوق كل توقع، إعادة إكتشاف الحب بعد إختفائه. عندما يفكر براس كوباس بالنساء اللائي احبهن (الإسبانية مارسيللا، أخته سابين، مَثَله فرجيليا)، يقول براس كوباس، بأنه يتذكرهن ((كما لو ان هذه الأسماء والشخوص لم تكن سوى مظاهر لإنفعالاتي الخاصة)) - تقريبا، مثلما يتوقع ماتشادو من القرآء أن يتعرفوا في الصفحات على أطياف أفكارهم واهوائهم الخاصة، مثل متفرجون على ((مسألة جدية جدا على المسرح)).

الى حد ما، هذه هي حقيقة كل كتاب نحبه. نحن نعتقد إننا نتقرب منه عن بعد، نراقبه يزيح الستارة التي تحميه، نرصده يكشف عن

حكايته ونحن في المقاعد الأمينة للنظارة، لكننا ننسى ان ما يجعل الشخصيات باقية على قيد الحياة، وما يجعل من القصة حية، هو أمر يتوقف على وجودنا كقرّاء - يعتمد على فضولنا، على رغبتنا في تذكر تفصيل، أو على دهشتنا بسبب غياب - كما لو أن قدرتنا الخاصة على الحب قد خلقت، في خضم من كلمات، شخص المحبوب.

لا أعرف بعد الى أي كتاب ستقودني كلمات ماتشادو.

الفهرس



... ذلك إننا يجب أن نسعى بجهد إلى معنى كل كلمة وكل سطر، لأننا نفترض دائماً أن هناك معنى أكبر من الاستعمال الشائع الذي تتيحه لنا الحكمة والشجاعة وسماحة النفس التي نتحلى بها.


ISBN:2-84305-938-X
9 782843 059384